إبراهيم أحمد عيسى

الحاج ألمان

غيوم الريف

رواية



الحاج ألِمان

غيوم الريف

رواية

إبراهيم أحمد عيسى



إهداء

إلى الذين تمسكوا بيّ حين اقتلعتني عواصف الحزن.. إلى من منحوني الحياة دون مقابل وأعادوا غرس الأمل بحدائقي المدمرة.. إلى من آمنوا بأنني سأزهر ثانية، أهديكم جميع ورودي.

إبراهيم أحمد عيسى



لم نحلم بأشياء عصية نحن أحياء وباقون..
وللحلم بقية.

محمود درويش

١

الراوي

طنجة – المغرب
نوفمبر ١٩٣٩

ارتقت شمس الصبيحة الكسولة درج السماء ببطءٍ، وما لبثت أن تدثرت بلحاف من غيم رمادي داكن، رغم برودة الجو والهواء العليل وقف رجل على شاطئ مرقالة، خلع ملابسه وخاض داخل حوض صخري ممتلئ بمياه البحر الزقاق، الماء يصل حتى خصره بينما يمسك بسيخ من حديد يصطاد به الأخطبوط وينتقي المحار، وفي الأفق البعيد تطل الضفة الأخرى بخجل، جبالها البعيدة ترتجي الوصال، وتلك المدينة على الشاطئ الآخر تخلق في المخيلة أسطورة عن مدينتين، أختين فرقهما البحر والزمان، وهرقل الذي ضرب الأرض في نوبة غضب فشقها ليتعانق المحيط والبحر، قبل أن يذهب لمغارته وحيدًا معتزلًا البشر وآلهة الأوليمب، ليلبث في كهف وحدته لسنوات كما هو حاله الآن، ولكنه ليس بهرقل ولا تسري في عروقه دماء الآلهة، هو إنسان بائس عاش ما يقرب من نصف عمره ساعيًا وراء قصص الناس وحكاياتهم، حتى جاء



اليوم الذي صار عليه أن يعيش واقعه وقصته الخاصة، خاض حروبًا مختلفة يصوِّر ويدوِّن ما يراه، تارة بين رجال المقاومة في الريف ومرة بين صفوف قوات الريكولاس الإسبانية المدافعة عن مليلية، جاب عديد من المدن والتقى آلاف من البشر وظفر بمئات القصص، من الجزائر إلى وهران وتلمسان ووجدة مرورا بالريف وقبائله، كان هناك يوم أنوال حين صُفعت إسبانيا ومُنيت بهزيمة نكراء، ودلف إلى الحسيمة والناظور ليصوِّر أركانهما بعد طرد الإسبان منهما، لديه كثير من القصص والحكايا عن أُناسٍ من كل تلك المدن، ولكن يبقى لطنجة حنين خفيٌ يلامس الوجدان، أحب المدينة التي كانت مستقرَ حُلمه ومهد حبه وأرض ميعاده.. منذ سنوات جاءها محملًا بالأماني، وانتهى به المطاف متسكعًا في أزقتها هائمًا بدروبها وحيدًا، يصعد كل يوم إلى هضبة مرشان ويقف على حافتها ليشاهد المضيق والمرفأ وأسراب النوارس الحرة تجوب السماء.. طقس يومي يؤديه ويقف هناك بالساعات تلفح وجهه الرياح مثيرة بداخله شجنًا عجيبًا.. واليوم تُمطر السماء.

مطر طنجة ناعم خفيف، لا يكفي لغسل أرواحنا المنهكة ولا لطمس أثر خطواتنا بدروب المدينة، الشتاء موحش ها هنا والأمل ريشة طائر تبللت فسقطت



ودهستها قسوة القلوب، لم يعد هناك سوى الخواء ورذاذ المطر الذي يتساقط في مساء يوم غائم حزين، يَذْكُرها في تلك البقعة كما هو الحال مع كل شبر بداخل المدينة العتيقة وخارجها، لم يتبقَّ من أثرها سوى شذى عطر لم يفارق حواسه.. وقصة لا تلبث أن تتقد بوجدانه كلما لامس الهواء البارد فؤاده، تمنى أن يجمع أطفال المدينة كل يوم، ويحكي عليهم قصة البطل المهزوم والأميرة الفاتنة، قصة حربه من أجل الحفاظ على حبه، ولكن الحكاية انتهت. حكايته هو التي فشل في أن يدفنها بمقابر النسيان، وهو الراوي لكل قصص الحب والحرب وحكايات الشجعان من كل مكان، عاش زاهدًا متجولًا على المقاهي يكتب ويرسل بالبريد مقالاته للصحف بفرنسا وإسبانيا، ولكن الحرب انتهت وخمد شغف الناس بقصصه وأصبحت الصور باهتة، وما روي من حكايا لم يكن سوى شذرات مما بجعبته.

جميلة هي طنجة في الصباح، نشيطة كامرأة جبلية تستيقظ مع ضوء الفجر الأول، تعتمر شاشيتها وتمسك إبريقًا تسقي به أحواض زهورها، حسناء رائقة المحيا تطحن الحَبَّ وتعجن العجين، وعلى شفتيها ابتسامة رطيبة، يسمونها عروس الشمال المتوجة على حافة العالم، مرّ عليها الفينيقيون وتركوا مقابرهم



ورفاتهم شاهدة على وجودهم، كذلك الرومان أبت أطلالهم الاندثار مُقاومة البشر والزمان، لعلّ يومًا يأتي يذكره الناس هنا كذكر البونيين والرومان، وهؤلاء الفاتحين القاديون من الشرق، ربما يقول شخصٌ ما ذاتَ يومٍ، مر هنا غريب أحب طنجة التي أوته وحبيبتَه قبل أن يفرقهما الاختيار، صار وحيدًا وعَلق بشباك غرام المدينة الحسناء، يذكر المرة الأولى التي رأى تلالها الخضراء، وبيوتها البسيطة التي لا يشوبها سوء المظهر، بيضاء متناسقة متدرجة على الجبال والهضاب، يألف الغريب أزقتها ودروبها الصاعدة والهابطة فلا يضيع فيها ولا ينسىَ.. كان عائدًا إلى منزله حين مرّ به عجوز يرتدي جلابة بيضاء مخططة بلون أصفر حيّاه قائلًا بالعربية:

- هل سنلقاك بالمقهى الليلة؟

أومأ إلى العجوز مبتسمًا.

يعرف ذلك الشيخ أنه يسكن بدرب ابن بطوطة في تلك العطفة بعد زنقة ابن خلدون، يراه كل ليلة بالمقهى يستمع إلى الطرب الأندلسي يدندن ويردّد كلمات الموشحات متمايلًا على أنغام جوقة من الهواة.. الكل يعرفه هنا باسم الفرنسي الغريب، لم يدخل يومًا في نقاش مع أحد منذ سكن بتلك الأنحاء، لسنوات ظل



وحيدًا يحيا حياة أدنى إلى التقشف عن اللين متسكعًا في الدروب الضيقة للمدينة القديمة، لعلَّ سحرًا أصابه، أو لعنة حكمت عليه بالتيه هنا، يبحث عن طيفها يسترجي الدروب أن تردها أو تأخذه إليها فيراها يومًا، أَلِفَه الناس ورواد المقهى القريب من باب الفحص؛ حيث يجتمع رجال من الجاليات الفرنسية والإنجليزية والإسبانية، ينتظرونه كل ليلة سبت ليقص على مسامعهم حكاية جديدة.. بدَّل ثيابه وارتدى بدلته السوداء الأنيقة وتطلع إلى المرآة قليلًا، غَيرت تلك اللحية الكثة مظهرَهُ ونالت الشحوب والتجاعيد من وجهه، اعتمر قبعته وعلى شفتيه ابتسامة رثاء حزينة، خرج من المنزل صافقًا الباب خلفه يرافق وحدته وترحه متدثرًا بحنينه، مضى بدربه كذلك الرومان أثبتوا حضورهم هنا ولا تزال أطلالهم باقية حيث كانوا ينتظرونه.. رحبوا به رحّب به رفقاء السبت، هكذا كان يَذكرهم، عُمر قضاه هنا وأيام سبت لا تحصى لم يبدل فيها المقهى رواده، وقبل أن يحط بجسده المثقل على أقرب كرسي، طلب رفاق السبت منه أن يقص عليهم قصة هيامه وعشقه لطنجة، كعادتهم كلما حان وقت حكاية جديدة، تبدلت قسمات وجهه وحلَّ الشجن بمقلتيه، جال بالوجوه ناظرًا بعين مترقرقة، وبعد برهة من الصمت تحدث بنبرة رخيمة تفيض بالحنين:



- ما بيني وبين طنجة سر عاشقين أغرقهما سهاد الحب ولوعته، تستطيعون القول أني مريضٌ بها، وعلتي يا سادة ليس لها دواء.. ولكن إن كان هناك طبيب بينكم فليخبرني، كيف يُشفى المرء من حب طنجة؟

بسط الصمت عباءته فوق الرؤوس، وبدا أن الزمان توقف عند تلك اللحظة، في ذلك المقهى المكدّس بالأجساد والمعبق بالدخان، وفي إحدى الزوايا سأل رجلٌ جديدٌ على المقهى صاحبه:

- من هذا الرجل؟

- إنه «الغريب الراوي».. هكذا يسميه الناس هنا، فرنسي جاء إلى المدينة منذ سنوات ولا أحد يعرف من ماضيه، سوى أنه رجل يعيش وحيدًا، يُحب طنجة وله بها قصة وحكاية.

تبادل الرجلان حديثًا خافتًا، وفيما هم على تلك الحالة كان الراوي يعتدل في جلسته وقد خلعَ قبعته ووضعها جانبًا تنهّد وحط راحتيه فوق ركبتيه، ثبت نظره على كوب ماء رأى فيه البحر وسمع صوتَ موجِه ثم قال بنبرة قوية، جعلت الرجلين الجالسين إلى الزاوية ينتبهان، فاعتدلا في جلستهما ليسمعا قوله:



- ربما لم يحن الوقت لأقص عليكم حكايتي.. التي أظنها لم تنتهِ بعد.. ولكني سأقص عليكم نبأ شخصٍ أحببته وهو من ساعدني للقدوم هنا، رجل ترك كل شيء خلفه ليظفر بحياة جديدة، فكانت رحلته تستحق الخلود والذِّكر لما قدمه من شجاعة وبسالة في سبيل المستضعفين.. رجل دافع عن الحق واختار الجانب الذي رآه صحيحًا، يوم اشتعلت الجبال كان هناك في الريف؛ حيث الأسود يقاومون حتى آخر رمق، جرت الدماء أنهارًا وفتكت غيوم الموت السامة بالأبرياء، تلك حكايته وتلك قصته.. فأنصِتُوا.

٢

ليال باردة

ألمانيا – دوسلدورف ١٩١٣

غيم رمادي كثيف اجتاح سماء المدينة ملقيًا بقطرات مطر ثقيلة، تبللت الأرصفة والشوارع وتبدّل لونُ قرميد أسطح المباني العتيقة رويدًا إلى الاحمرار الداكن، تناغم هطول الأمطار ووقعها على الأرضيات مع ارتعاش أعمدة الإنارة التي راحت تضيء تباعًا، الأفق ما زال يحمل قبسًا من ضوء نهار تقهقر أمام المغيب، خريف حزين يرحل قبل الأوان، وأغصان الأشجار الخاوية من الأوراق تزيد المكان وحشة، المارة قليلون في تلك الساعة، وكَلب أصفر ذو وبرٍ كثيف يعبر الشارع مهرولًا، وقف لبرهة ينفض الماء عن جسده ثم حث الخطى باحثًا عن مأوى يقيه البرد، وعلى ذات الرصيف قُبالته زوجان كهلان يسيران بخطوات بطيئة، تتأبط السيدة ذراع زوجها ملتصقة به، يتوكأ الزوج على عصاه كملك متوج يسير برفقة ملكته بينما تمسك هي بمظلة سوداء اختبآ أسفلها كطائرين ضعيفين احتميا بورقة شجر وسط هذا الطقس الصعب، مبتسمان رغم ما تركه الزمن على وجهيهما، تحيط بهما هالة من حب



ومودة، ونظرات امتنان دافئة يتبادلانها، أثارا بداخله شيئًا من شجن وغبطةً وذكرى أمنيات لم تتحقق.. تُرى هل كانت حياتهما كالإبحار على متن قارب صغير فوق صفحة نهر هادئ؟! ألم تعبث بقاربهما يومًا الريح؟ أم أنهما تجاوزا كل العقبات سويًا وتحملا كل شيء في سبيل ذلك الوهج المتألق في عينيهما.

حياه الرجل بإيماءة من رأسه، وابتسامة هادئة وكذلك فعلت السيدة، حاول أن يبتسم لهما، ولكن شعر بأن هنالك ما يمنعه كأن الابتسامة ستشق جرحًا في قلبه فاكتفى بتحية صامتة، أكمل المسير بخطواتٍ ثقيلة فرضها عليه عقل تعصف به الأفكار.. وحيدًا يعود إلى تلك البقعة التي كانت مستقر لقائهما الدائم، ملتقى النهرين؛ حيث يتعانق نهري الدوسل والراين، والمطر يعزف على سطحيهما أنشودة ذات إيقاعٍ فريدٍ، المدينة خاوية والحزن رفيقه وبرج الكاتدرائية على الضفة المقابلة بدأ في إشعال أنواره، المداخن الكبيرة تضخ دخانها لتزيد السماء حلكة، وقباب القصور والمتاحف تبرز من فوق أسوار المدينة القديمة، مجرد ظلال سوداء في أفق مكدس بغيم المساء، أخرج يدَه من جيب معطفه الرمادي وأزال قبعته المبللة، تحسس الشارة المعدنية المثبتة في مقدمتها وتطلع إليها، استنشق نفسًا عميقًا ورفع رأسه للسماء مغمضًا عينيه



والمطر يغسل وجهه، الانضمام إلى الجيش كان حُلم أمه التي لطالما رغبت برؤية ابنها مرتديًا البزة العسكرية، زي يليق به ويمنحه قدرًا كبيرًا من الوسامة والانضباط، أراد أن يصبح محاميًا، ولكن مع إصرار أمه بأن يلتحق بالجيش ترك مكتب المحاماة، فقد أرادت له حياة رغيدة كأبناء عمومته الذين انتقلوا إلى فرانكفورت بعد التحاقهم بالجيش، يحرسون القصور هناك ويتقاضون راتبًا جيدًا بالإضافة لمسكن راقٍ، حقَّق حُلمها كما أرادت وكان ذلك سببًا في ضياع حُلمه الخاص..

«ماجدولين» تلك الجميلة التي تعلّق بها قلبه ووجدانه، رفض والدها أن يزوجها إياه، حاول أن يُقنعه ولكنّ الرجل ذا السلالة النبيلة قرر ألا يمنحها له، كيف تتزوج حفيدةُ دوقٍ من مجنّدٍ بالكاد يعول نفسه وأمه؟! ماذا لو ذهب يومًا للحرب وعاد إليها مصابًا أو لم يعد؟! ثم إنه ليس بضابط يستطيع الترقي لينعم بهبات الإمبراطور، التشبث بها كان أمله الوحيد، حاول مرارًا وتكرارًا، وتحين الفرص ولكنّ لقاءها كان ضَربًا من خيال، رآها تصعد لعربة القطار المتجه إلى فرنسا برفقة أسرتها التي قررت فجأة الرحيل، صفير القطار يدوي في أذنيه والمقطورة تنفث دخانها الأسود الكثيف أمام وجهه، ورحلت «ماجدولين» مبتعدة للأبد دون أن



تودعه وهو الذي لم يخطر على باله أن من الممكن للمسافات أن تفصل بينه وبين محبوبته. عَرف بعد ذلك أنها ستبحر من فرنسا إلى أمريكا نحو حياة جديدة، تلك الفاجعة التي جعلته يفقد صوابه، لم يبقَ له سوى ذكرى وحياة عليه الاستمرار فيها عنوةً، الخمر وكثير من الخمر، لا يداوي جرحًا بل يروي نبتة الألم بداخله، ما الجدوى من تلك الحياة إن لم يكن لديه سببٌ للبقاء حيًّا؟ كل أحلام الربيع صارت حطامًا، أوهامًا تذروها الرياح.. يذهب إلى معسكره ويقضي ساعات كئيبة في ذلك المكتب الصغير، حياة رتيبة لا يطيقها بين الأوراق والبرقيات وأوامر القادة التي لا تنتهِ.

شق سقف السماء برق أتبعه هزيم الرعد، جعله يفيق من شروده، المطر يَشتد وعلى الرصيف الآخر فتاة تسير بخطوات واسعة، تُسرع في مشيتها متلفتة وعلى مسافة ليست ببعيدة منها كان هناك شخصان يتبعانها، هناك خَطب ما.. هكذا حدثته نفسه ولم تمضِ لحظات؛ حتى صارا على مقربة منها، رغم الضوء الشحيح انجلت له رؤياها ورأى أنهما يقطعان سبيلها، معترضين خطواتها فلم تستطع التحرك يمينًا أو شمالًا، أحدهما وضع يده على كتف الفتاة وأوثق الآخر ذراعها، حاولت التملص وتناهت إلى مسامعه صرخة مكتومة بينما يدفعها مَن أمسك بها من ذراعها إلى الحائط



مكممًا فمها بيده الأخرى، الشخص الثاني كان أطول قامة من صاحبه، تلفت حوله ليتأكد من خلو المكان، لم يلحظ وجوده، ربما لأنه انشغل بالولوج خلف صاحبه والسيدة إلى زقاق مظلم.

نحيب وتوسل مقترنان برجاء لم يُثنِ الغاصبين، دفعها الذي كان يُمسك بها إلى الزاوية وأشهر في وجهها مدية صغيرة، أما صاحبه الأضخم بنيانًا فقد انهمك في تفحص حقيبة يدها، مفرغًا ما فيها على الأرض، بضع قطع نقدية من الفضة وقليل من أدوات التبرج ومنديل مخملي هي كل محتوياتها، الأمر الذي أثار غضبه ليقترب منها وعلى وجهه ابتسامة مقيتة، رفعت يديها وقد شبكت أصابعها متوسلة لهما بأن يتركاها وشأنها، ولكن صاحب المدية قال بنبرة ظفر:

- لا تخافي أيتها الجميلة.. لن نؤذيك فنحن كرماء وسنكون في منتهى اللطف معك، كل ما في الأمر أنه ليس لديك نقود كافية وسيكون عليك الدفع بشكل آخر.

أحست الفتاة البائسة والمغدور بها، أن لا منجي الليلة من الذئبين الضالين، انحدرت دموعها وقد أخذها فزعٌ عظيمٌ، وخرج صوتها من جوف كهف خوفها مكتومًا بالكاد يُسمع:



- أستطيع أن أدفع لكم راتبي فور أن أحصل عليه... أقسم أن...

قاطعها الآخر:

- كل ما عليكِ هو مرافقتنا بلطفٍ.. وإلا سيكون وقع الأمر عليك صعبًا في هذا الزقاق النتن، لا أمانع في مضاجعتك هنا وسط صناديق القمامة كما تفعل القطط والكلاب ولكن...

وفي تلك اللحظة ماءت قطة، وخرجت من صندوق القمامة فجأة، فانتفض الرجل الذي كان يقف خلف صاحبه، ظلت القطة تحدق في وجوههم ببرودٍ وكأن الحديث الأخير لم يعجبها، أفزعها الضئيل صارخًا فهربت راكضة، تابعها ببصره ضاحكًا لتقع عيناه على ذلك الشخص الواقف بمدخل الزقاق..

البرق يضيء الزقاق الضيق مجددًا، ويشوب السكون خريرُ ماءٍ يتساقط من أعلى أسطح البنايات، التفت الضخم ليرى ما الذي جعل صاحبه يَصمت فجأةً، أما الفتاة فقد ارتجفت متراجعة حتى التصقت بالحائط، وصوت الواقف بمدخل الشارع، يصل إلى مسامعها هادئًا عميقًا:

- من الأفضل لكما أن تتركاها ترحل في سلام.

أرادت أن ترى وجه منقذها وقد اختفت عيناها من سكب دموعها، ولكن الظلال كانت تحجب وجهه؛ إذ أن الضوء كان يأتي من خلفه، قال صاحب المدية اللامعة بنبرة تهكُّم وهو يبتسم نصف ابتسامة ويميل برأسه:

- لماذا لا ترحل أنت ولا تتدخل فيما لا يعنيك! أم تريد أن تحتفظ بذكرى غائرة في وجهك وربما في مكان آخر إن أردت.
- يبدو أنكما لم تسمعا ما قلت.

اقترب الرجل الآخر، وهو يذم على شفتيه ويطرق بقبضة يده راحة يده الأخرى، تحتدم شعلة الغضب في عينيه، ثم وقف وهو يرفع رأسه متأملًا خصمه بطرف عينه، وضع يدَه بداخل جيبه يدير شيئًا ما بداخله على ما يبدو أنها آلة حادة صغيرة، وباليد الأخرى راح يفرك ذقنه النابتة وقال:

- البطولة ليست مجرد كلماتٍ تتفوه بها.. وإنما فِعل تقوم به، ولا أعلم في الحقيقة منذ متى صار الجيش يَقبل الأطفال في صفوفه؟ هل يريد الجرو الصغير أن يكون بطلًا؟! هل هذا له علاقة بما يفعلونه بك هناك خلف الثكنات أيها المخنث؟



الكلمة الأخيرة تزامنت مع وقوفه أمامه ولا يفصله عنه سوى شبرٍ واحدٍ، كان أضخم منه ولا ينفك عن النظر إليه بسخرية وتعالٍ، حاول أن يقول شيئًا ما وهو يدفعه بعيدًا، ولكن الجندي كان أسرع من الكلمات التي لم تغادر طرف لسانه، أمسك بمعصم الرجل، وجذبه بكل ما أوتي من قوة لتعانق قبضته أنفه، وقبل أن يعي اللص ما حدث له، ارتطمت بمعدته ركبة الجندي الشاب؛ وبرغم الألم والضربات المتتالية استطاع الرجل أن يقبض على تلابيب الفتى ودفعه إلى الجدار، ارتطام عنيف ولكمة أصابت أضلع الشاب الذي انحنى متألمًا، فأعاد الضخم الكرة تلو الكرة، ومنحه لكمتين والثالثة استقرت بالحائط؛ حيث تفاداها الجندي، صوت طرقعة عظام القبضة، وصرخة ألم هادرة دفعت صاحبه للتدخل، أخذ يلوّح بالمدية، يتنقل بصره بين صاحبه المتألم والشاب الذي يواجههما، انقضّ صاحب السكين عليه وحاول طعنه عدة مراتٍ ولكنه فشل، خفة حركة الجندي ومرونته جعلاه أسرع منهما، ولكن المغتصب الآخر أمسك به، عراك بدائي دار بينهما، لكمات وركلات حتى كَبَل الشاب، احتضنه الضخم من الخلف مقيدًا إياه، وصاحب السكين يضحك قائلًا:

- أتعرف ماذا نفعل حين نُمسك بجرذ يُقلِق مجلسنا ويريد سرقة الجبن منا؟؟ نعلقه من



ذيله ونسلخه حيًا.

حاول الشاب التملص من بين ذراعي ممسكه، والآخر يقترب شاهرًا المدية متابعًا حديثه الساخر:

- يظل الجرذ يقاوم... ويقاوم حتى يُدرك أن لا جدوى مما يفعل، يستسلم لكل ما هو ممكن أن يفعل به.. وكذلك عليك أن تفعل.

بُترت آخر حروفه بفعل ضربة قوية تلقاها خلف عنقه، أخرسته وأوجعته ولكنها لم تسقطه على الفور، استدار ببطء متحسسًا قفاه، أحس بلزوجة الدماء على أطراف أصابعه، وبأنفاس متلاحقة رفع بصره نحوها، والشرر يتقافز من مقلتيه، وقسمات وجهه المتشنجة توحي بمقت شديد، هَمَ بالانقضاض عليها ولكن خوفها منحها رد فعل أسرع من غضبه، تباطأت قطرات المطر، وصوت قرقعة تزامن مع هزيم الرعد، منحته ضربة في منتصف الرأس تمامًا، وهوى جسده عند قدميها صريعًا، يحتضن وجهه الأرض والدماء تسيل من رأسه، لتمتزج ببركة ماء صغيرة، في تلك اللحظة ارتخى ساعدا الرجل الضخم حول صدر الشاب، الذي تملص منه، واستدار ليكيل له اللكمات والضربات تباعًا، وأمام عاصفة ضربات الجندي الغاضبة فرَّ السارق الآخر هاربًا.. ركض مبتعدًا عن المكان تاركًا خلفه صاحبه



يغرق في بحيرة من الدماء، لحظات مرّت والفتاة ما زالت تقف ممسكة بالعصا الغليظة وهي في حالة يرثى لها من الخوف والجمود، شفتاها ترتجفان، وجسدها ينتفض بعنفٍ، واجمة محملقة في ذلك الجسد المسجى أسفل قدميها، ساكتة لا تقول شيئًا، شعرها الأشقر المجعد ملتصق بجبينها، وكحل عيناها المحمرتين مختلطٌ بعبراتها يرسم خطين أسودين على وجنتيها، اقترب منها لاهثًا، ففزعت وألقت العصا متراجعة للخلف، كادت أن تسقط فأمسك بها رغم آلام ضلوعه:

- هل أنتِ بخير؟

هزت رأسها بإيماءة، وعيناها تفيضان بالدمع، حاول أن يطمئنها بإشارة من يده وهو يقول:

- حسنًا، اهدئي، انتهى الأمر.

أشارت بيد مرتجفة نحو الصريع، فاستطرد:

- ماذا عنه ؟؟ يستحق ما فعلتِه به، لملمي أغراضك ولنرحل.

ساعدها في التقاط أشيائها وحمل عنها الحقيبة، وقبل أن يرحلا عن المكان بصقت الفتاة باتجاه الرجل الملقى على وجهه ومنحته ركلة بطرف حذائها المدبب.. سار معها بخطواتٍ يشوبها عَرج وألم حاول كتمانه، كان شابًا في العشرين من عمره، أسود الشعر،



ذا عينين رماديبان بهما حزن دفين، لم يكن طويلًا ولا قصيرًا فقط أطول منها بقليل، نحيل بعض الشيء وعلى وجهه أثر كدمتين حمراوين من أثر العراك، كانت تتطلع إليه وعقلها يحدثها «يا له من بطل حقيقي جندي شجاع حذق أنقذها وكأنه أحد أبطال الحكايا الأسطورية أتى عبر الزمن». في الطريق إلى منزلها أخبرته أنها تعمل ممرضة بمشفى القديس بربروسا، مما يضطرها ذلك للسهر حتى وقت متأخر وفي بعض الأحيان تبيت في نزل الممرضات هناك لرعاية المرضى. اسمها «سارة» وكانت جميلة المحيا، شقراء ببشرة شفافة، من يدقق النظر يلاحظ العروق الصغيرة كتعرجات نهر الدانوب، صهبة الحاجبين بين صدغيها استوت جبهة عريضة، تعاني انحرافًا بسيطًا في أنفها، شعرها قصير وتضع على رأسها تلك القبعات الصغيرة الرائجة هذه الأيام، خصرها المنحوت احتضنه حزام عريض، رقيقة ثرثارة وفرحة بمساعدته لها، على باب منزلها تذكرت أن تسأله عن اسمه؟ فأجاب بنبرة عسكرية فاردًا منكبيه وظهره مستقيم:

- كليمس.. جوزيف كليمس.

***

جوزيف أوتو كليمس.. أنت مُدان بالاعتداء على المواطنين العُزل، وإحداث عاهة مستديمة، بليغة بشخص مدني، وكما هو موضح ومثبت أمامي أن سجلك العسكري مليء بالانتهاكات وحوادث الشغب وشرب الخمر أثناء مناوبتك بالخدمة.. هذا وقد وجدت الشرطة بمكان الحادث -أداة للجريمة، وقرصك المعدني المسجل باسمك، ورتبتك ورقمك التعريفي- وبعد معاينة إصابات جسدك ثبتَ تورطك في العراك مع المدنيين بل وصل بك الأمر أن تهشم رأس الرجل المسكين، يبدو أنك نسيت أن لهذه البدلة التي ترتديها واجبًا مقدسًا وهو حماية الوطن وأبنائه وبناء على ذلك.. قضينا نحن محكمة دوسلدروف العسكرية بتسريحك من الخدمة والحكم عليك بقضاء تسعة أشهر بالسجن العسكري على ما اقترفته من ذنب.

كلمات أعقبتها طرقة من المطرقة الخشبية للقاضي العسكري، محاكمة قصيرة حاول فيها أن يدافع عن نفسه ولم يُسمَح له، أخبرهم الحقيقة ولم يصدقوه، دون سببٍ رفضوا أن يتحدث بكلمة إضافية، سار بين الجند إلى خارج القاعة مقهورًا، ليتها كانت هنا لتشهد لصالحه، ياللسخرية فكل ما حدث له كان بسبب إنقاذه تلك الفتاة المسكينة، صحيح أنه لم يلُم نفسه على ما فعل، ولكن أليس من العدل أن يبحثوا عنها ويسألوها،



لقد أخبرهم باسمها واسم المشفى الذي تعمل به، ولكن على ما يبدو أن في آذانهم وقرًا، لم يسمعوه ولم يبالِ أحدٌ بحديثه ودفاعه عن نفسه.. طريق طويل قطعته السيارة بين الحقول الخضراء، حتى وصلت إلى مستقره، في السجن الحربي. استقبله الحراس بسخرية وإهانة مفرطة، فهو جندي لوث شَرف الجندية بالتعدي على المدنيين هكذا كانوا يتحدثون، حلقوا شعره، وأراقوا عليه دلوًا من الماء البارد، وبدأت الأيام الثقيلة في المضي ببطء قاتل. قضى ليالي الحزن، وحده في زنزانة مظلمة ذات باب من قضبان حديدية، ونافذة وحيدة. ساعة للمشي والتريض بين المذنبين كانت كافية ليرى زرقة السماء وغيوم الشتاء، وجهه ازداد شحوبًا ولا شيء سوى الكآبة تحاصر وحدته، تزوره أمه كل يوم أحد، وتأتي له بفطائر التفاح التي يحبها، كانت تبكي كلما جالسته وتأسف لحاله وما أصابه، أخبرته أنها أرسلت الكثير من البرقيات لأبناء عمومته ليساعدوه، لم تقص عليه أنها لم تتلق إجابة من أحدٍ، ولم تخبره عن حالها وأن كل ما تفعله فقط هو الجلوس وحيدة تفكر فيه، أخبرها أحد الضباط بأن الأمر قد حُسِمَ، وأنه وجب على جوزيف تقبُّل نتيجة جرمه ودفع ثمن انتهاك قوانين الجيش، وأردف: «سيدتي، نحن على أعتاب حرب وشيكة.. وعلى



المدنيين الألمان أن يثقوا في الجند وهذا لا يحدث بضربهم وإحداث العاهات الجسيمة.. على كل حال سيخرج ابنك بعد انقضاء العقوبة، وهي عدة أشهر بالمقارنة ببعض المساجين الآخرين.».. كلمات الضابط في ذلك اليوم كانت باهتة باردة، ومع ذلك لم تبرد نيران قلبها على ابنها، إنها أم ومهما كبر صغيرها فسوف تدافع عنه مهما حدث؛ رغم خيبة أملها كانت هي الوحيدة التي صدقت حكاية ابنها عن تلك الممرضة، ولم تكتفِ بالتصديق بل راحت تبحث عن أدلة تثبت براءة ابنها حتى وجدتها أخيرًا، لم تمتلك مع هذا الخبر صبرًا، وفي أول زيارة بعد اكتشافها لحقيقة الممرضة أتت له مبتسمة على غير العادة، تقص عليه اللقاء الذي دار معها، كانت الأم منبهرة بالفتاة حدثته بفرح:

- حينما ذكرتك لها لمعت عيناها، ولما أخبرتها بما حدث لك انطفأت لمعتها، وفي عرفنا نحن النساء إن العين لا تلمع إلا لما تُعجب به، جوزيف.. الفتاة مستعدة للذهاب إلى المحكمة، والشهادة لصالحك، وحالما تفعل ربما تتقلص مدة العقوبة، إنها رائعة وأظن أنها نوعك المفضل من الفتيات، شقراء ذات ملامح دقيقة، ألمانية ذات عرق نبيل.. لا



تحزن يا بني فالقادم يحمل لك خيرًا، هذه هي تراتيب القدير دومًا يعوضك الرب حين يأخذ منك شيئًا.. سنذهب أنا وهي إلى المحكمة العسكرية ونطلب إعادة المحاكمة.. إفادتها ستكون لصالحك بالتأكيد.

كانت تحكي وتثرثر بأمنياتها حول مستقبله، بيت مكتظ بالأحفاد والحفلات، حدثته كثيرًا، بينما عقله كان ينزلق في وادٍ سحيق، وقبيل رحيلها أهدته الأم في ذلك اليوم نسخة قديمة من الكتاب المقدس، بقي لأيام لا يقترب منه وحين قرر القراءة شَعر بالفتور حتى توقف أمام سفر التكوين، تمعن في قصة يوسف وإخوته وكيف باعوه وغُدرَ به.. السجن الذي لبث فيه لسنين حتى صار عزيز مصر وصاحب خزائنها، ولكنه ليس يوسف ولا أمل في أن يُصبح ملكًا ذات يوم، هو صاحب الحظ الأسوأ على هذه الأرض، أيام التأمل والبحث عن سر الحياة فاقت كل أحزانه، لماذا خُلِقَ؟ ولِمَ تلك الحياة قاسية لهذا الحد؟! حاول جاهدًا أن يجد تفسيرًا لحالته تلك، البؤس والشقاء والفقد كلها أشياء فُرِضَت عليه، وكل ما حاول أن يختاره خَسره، أين العدل في الدنيا، إن كانت اختياراتنا تقابل باختيارات مضادة، إن كان كل شيء مُقدّرًا لا يمكن تغييره لماذا نتحمل عناء البقاء على قيد الحياة؟!



الإحساس بالظُّلم والقهر يحيطان به، وحولهما سياج من أسلاك شائكة، وأسوار خرسانية مرتفعة، أبراج حراسة شاهقة، وسُحب الشتاء المارة ببطءٍ في سماء سجنه، وكل هؤلاء المساجين بزيِّهم الموحد ذي الخطوط السوداء والرمادية، مشهد يتكرر يوميًا دون جديد يُذكَر، فقط كل الذكريات السيئة وجدَت لها بعقله مستقرًا، الهَم والحُزن جليساه في تلك الليالي الباردة، والأمل في غدٍ أفضل مجرد وهمٍ، يحاول أن يصبِّر به روحه الممزقة، والحنين إلى الماضي أشبه ببناء بيت من رمال، إن لم تذره عاصفة الواقع تجرفه دموع الشوق لأحباب اختاروا البعد عنه، سئِمَ تلك الحياة حقًا، ولا سبيل إلى الخلاص من هنا، سوى أن يأتي الموت ويحرر روحه، لعله يشاهد هذا المكان من الأعلى بينما يرتقي درجات السماء، لن يُلقي نظرة أخيرة على تلك الأرض ولا يريد أن يعبأ بأمر تلك الديار.. ستحزن أمه كثيرًا وسيفتقدها أيضًا؛ ولكن لعلَّ في الخلاص أملاً في لقاء بعيد عن تلك الدنيا.

برودة الجدران تتعشق جسده ولا أمل في العودة بالزمن وإصلاح الأمور، ربما سيكتب رسالة أخيرة يلتمس فيها العذر من والدته المسكينة قبل أن يذهب إلى الموت، هكذا ستكون النهاية إذًا؛ تليق بحياته التي



ليس لها معنى أو مذاق، والرب إن كان موجودًا فسيطيب ثراه حتمًا.

خطاب كُتب بأحرف مرتجفة يطلب فيه المغفرة من أمه وأن تسامحه، لا سبيل للعيش على تلك الأرض الظالم أهلها، صنع حبلًا من أقمشة الفراش وقام بالتأكد من ربطه جيدًا بقضبان النافذة الوحيدة بزنزانته الصغيرة، كل شيء جاهز ومُعَدّ للنهاية، بهدوءٍ ارتقى حافة الفراش وارتدى أنشوطة المشنقة، ثبتها حول عنقه والجدران الرمادية تبدو أكثر اتساعًا بما تحويه من مشاهد لحياته الغابرة، عمله في مكتب المحاماة، تعرُّفه على «ماجدولين» عشية عيد الميلاد، الثلوج المتساقطة وأيام الحب على ضفاف النهر، احتضانها بين ذراعيه، كان كمَنْ مَلك العالم حتى كُتب عليهما رحيلٌ دون وداع لا يليق بقصة عشقهما.. انفرط من عينيه الدمع بروية فما كان منه إلا أن أغمضهما عن الذكرى واستنشق نفسًا عميقًا وقفز.

لم يحسب أن تحرير الروح من الجسد أمرًا صعبًا إلى هذه الدرجة، ألمٌ راح يعتصر رقبته وقدماه ترتعشان بعنفٍ، أنفاسه المتسارعة تخفت ويداه تأبيان الموت.. أصابعه تمسك بالأنشوطة دون إرادته، ودَّ الاستسلام لتخرج روحه بيُسرٍ وسلامٍ ولكن الألم أشد قسوة، حين أقدم على الأمر ظن أن الموت سهل المرا،؛



ولكنه كان مخطئًا تمامًا، فالموت يتلذذ بعذاب الجسد قبل أن يترك الروح تفر إلى السماء.. الظلام يداهم عينيه الجاحظتين، والدماء لم تعد تتدفق في عروقه.. ضوء يَسطع وبداخله تجسدت صورة لشيخ عجوز متشح بالبياض، هادئ الملامح يطالع وجهه ببرود هذا هو الموت إذًا! وانقطع الحبل ليسقط أرضًا، ارتطم بعنفٍ على الأرضية الصلبة، يَسعل بعنفٍ مرارًا، والزبد يسيل من فمه.. انفجر بالبكاء، ظلّ ينتحب متكورا على نفسه كجنين في رحم الزنزانة المعتمة، رحل ملك الموت دون أن يحمل روحه معه، فقط منحه ألمًا مضاعفًا، وتركه لقمة سائغة للحياة.

*****

أربعة أشهر من السجن ظلمًا، انفتح بعدها الباب الحديدي الكبير ليرحل، الحقول الشاسعة مكسوة بألوان ربيع بهيج، سار على دربٍ ترابي يؤدي إلى قرية تتوارى في الأفق البعيد، أسراب العصافير تحلق بتناغم في سماء ملكتها شمس الصبيحة، غمرته بدفء افتقده لأشهر، وقرب المنازل البسيطة القليلة، كان هناك مجموعة من الفلاحين يرعون أبقارهم وأغنامهم، تطلعوا إليه متفحصين إياه فما كان منه إلا أن منحهم ابتسامة هادئة طمأنتهم، اتخذ سبيله مسترشدًا بتلك



العلامات الخشبية على جانبي الطريق والتي تبلغه أنه بعيد عن مدينته، مشى كثيرًا وحين شَعر بالإنهاك استلقى تحت شجرة بلوط انتصبت على جانب الطريق، وما لبث أن أفاق على صوت صرير ووقع حوافر تقترب، فإذا بفلاح عجوز يقود عربة خشبية يجُرها بَغلٌ مُسن يعَرض عليه أن يَقله إلى أقرب نقطة يريد، ارتقى إلى جوار الرجل الذي رحّب به، سار البغل ساحبًا العربة والعجوز يدندن بأغنية قديمة بينما يضع عودَ قشٍّ في طرف شفاهه، صرير العجلات، ووقع أقدام البغل جعلاه يغفو، تتأرجح به كقارب يُبحر بروية مع التيار، وعبير أقحوان الربيع يعمر الأجواء.. ها هو يتنسم الحرية من جديد بفضل والدته التي سَعت بكل جهدها لكي يُفرَج عنه، اتصلت بأبناء عمه في فرانكفورت وأرسلت البرقيات للقيادة العسكرية، وأتت بالممرضة لمقر المحكمة، لم تيأس يوما وفي كُل زيارة كانت تُبشره بالخير.. ولكنها لم تأتِ في الأحد الماضي، ضاق صدره وراح يتساءل عن سبب غيابها، وفي صباح الثلاثاء أخبروه أنه حصل على الإفراج.. واليوم خميس الحرية؛ حيث سيعود إلى منزله ويلقي بجسده بين ذراعيها كما كان يفعل، لعلها تنتظره وقد طهت له فطيرة التفاح الذي يحب، بجانب أضلع الخنزير المشوية على الفحم مع زيت الزيتون، الحياة تبتسم



من جديد وكل ما عليه هو أن يعود إلى المنزل ويبدأ من جديد.

دوسلدورف القديمة تزينت بحلة الربيع، أشجارها الكثيفة تلقي بظلالها على جانبي الطريق، وأغصانها زاخرة بصنوف شتى من العصافير، ونهر الراين يجري تحت قنطرتها الحجرية متدفقًا إلى الجنوب، تطفو فوق سطحه مجموعة من البط المنهمك في صيد الأسماك الصغيرة، المقاهي عامرة، والنوافذ مزينة بأحواض الزهور، وعربة بائع الشطائر تفوح برائحة اللحم المقدد، لوح له البائع ضاحكًا:

- جوزيف..

ترك الرجل عربته وزبائنه وتوجَّه إليه محتضنًا إياه، كان فرِحًا دون ادعاء وهو يردف:

- قلوبنا كلها كانت معك، أنت بطل وكل سكان الحي يعرفون ذلك، لقد قصت الفتاة ما حدث في تلك الليلة على مسامعنا جميعًا، لديك أم رائعة يا رجل إنك محظوظ بها.

- بل أنا المحظوظ بجيران مثلكم.

ربت الرجل على كتفه ولم تفارق وجهه تلك الابتسامة العريضة رغم شاربه الكث:



- انتظر حتى أعد لك بعض الشطائر اللذيذة من نوعك المفضل.
- شكرًا لك سيد «مارك»، دعنا نؤجل أمر الشطائر لوقتٍ آخر، كما تعلم أمي تنتظرني وأتوقع أنها أعدت وليمة كبيرة لهذا اليوم.
- اعذرني جوزيف.. لن أعطلك عن العودة إلى المنزل ولكن تذكر أن غداءك يومَ غدٍ عندي.
- اتفقنا.

ودعه وسط أنظار الجيران المتطفلة، مضى في طريقه إلى المنزل القريب، قبل أن يَدلف تفحص صندوق البريد الخاوي، دس يده في جيبه باحثًا عن المفاتيح، ولكنه تذكر أنه كل متعلقاته تركها حين قُبض عليه، شَرد لبرهة متذكرا ذلك اليوم الكئيب، وفُتح الباب فجأة ليظهر وجه أمه بخديها الأحمرين، وابتسامتها الرطيبة، وعينيها الواسعتين اللتين تحويان حنان العالم بأكمله، ألقى بجسده في حضنها، راحت تعتصره بين ذراعيها، أطلقت العنان لدموع الفَرح؛ بينما أغمض عينيه مستنشقًا عبق حبها.. هدهدته وأرجحت جسده متمايلة يمينًا ويسارًا، قبل أن تفلته وتتطلع إلى وجهه، قائلة:

- ها هو صغيري قد عاد إلى البيت.



جذبته إلى الداخل وهي تردف:

- حبيبي، أعتذر عن عدم قدومي إليك يوم الأحد الماضي، المنزل منذ رحيلك كان يشبهني؛ حزينًا كئيبًا، أردت له أن يعلم أن صاحبه آتٍ، أنهكت نفسي في ترتيبه وتنسيقه قبل عودتك.. أما المفاجأة فهي أن سارة ساعدتني في ذلك أيضًا، هيا اصعد لغرفتك وارتح، سأدفئ لك بعض الماء لتستحم قبل الغداء، ستأتي الفتاة ويجب أن تراك في أجمل حال كما رأتك أول مرة فأنا متأكدة من أنك كنت جميلاً يومها يا بطلي.. آهٍ يا صغيري.. كم أنا سعيدة بعودتك، كانت الأيام الفائتة قاسية دونك.

ضحك جوزيف من طريقة حديث أمه فلا تزال كما هي منذ أن وعى على عينيها الحانيتين تعامله كأنه الصغير الذي لم يكبر بَعد، قبلها فاحتضنته بوحشة بعدها عنه وقلبها الملتاع عليه، بفكرها الشارد من القلق عليه وقلبها الذي لم يهدأ ولم يستقر، وبالأيام التي اشتدّ بها حنينها إليه، كانت تعدها على أصابعها تتلمس مرور الزمن، تراقب تعاقُب الليل مع النهار وهي جالسةً أمام النافذة، ولما شعرت بقوة ضمتها على ابنها تكاد تعصره بين يديها، أفلتته وهي تطلع إلى وجهه ثم



حثته على المضي بدفعة رقيقة، صعد جوزيف الدرج دون أن ينطق بكلمة.. وقف متوسطًا غرفته، الغرفة كما تركها بل أكثر نظافة ونظام عن ذي قبل، كتبه رصت بعناية، والفراش تم توضيبه ووضع عليه وسادات نظيفة وغطاء جديد، وعلى الطاولة استقرت قارورة زجاجية دُسّ في فوهتها عدة زهور بيضاء وبنفسجية، وضوء الشمس يتسلل من النافذة مفترشًا تلك السجادة الصغيرة في منتصف الغرفة، ابتسم لصنيع والدته وحنوها حتى على أشيائه ثم ألقى بجسده على السرير وظل يحملق في السقف الخشبي طويلاً حتى سمع نداء أمه:

- جوزيف.. الماء أصبح جاهزًا.

بالفعل محظوظ من يحظى بكل هذا الدلال. جلس في حوض الاستحمام وصبت فوق رأسه الماء الدافئ رويدًا، حممته وفركت جسده بالصابون، كانت تخشى أن يدخل إلى عينيه فيحرقه كما كان يشكو في صغره، بدا أن الزمن تراجع وعاد به إلى حيث كانت تحممه في صباح كل أحدٍ قبل الذهاب إلى الكنيسة، استرخى وترك الماء ينساب على جسده مغمضًا عينيه، وحين فرغت طلبت منه أن يحلق لحيته النامية، ووضعت المناشف بالقرب منه وخرجت، حينها دق باب المنزل، سمع جوزيف والدته تتحدث مع شخصٍ ما، ظلّ قابعًا



في الحوض مسترخيًا لبرهة، على ابن أمه المدلل أن ينهي استحمامه ويحلق لحيته كما أمرته، وقف أمام المرآة يحدق في وجهه وبدا له أنه شخص آخر، لم يكن ذلك الشاب المغرور المتهور الممتلئ بالأمل والحياة، وها قد أصبح الفتى الذي يحب عمله في مكتب المحاماة، لم يَعد جندي البرقيات بتلك القبعة والبدلة الأنيقة والوجه الحليق، كان ينظر في عيني جوزيف جديد تمامًا ولد من رحم المعاناة والظلم والألم، أمسك الشفرة بعد أن غطى لحيته وشاربه بالصابون وبدأ في الحلاقة.

عشاء شهي على ضوء الشموع برفقة «سارة» ووالدته، كثيرٌ من الحكايات والضحكات، كان وسيمًا بعد أن أزال لحيته، وترك شاربًا رفيعًا جعله أشبه بأبناء الطبقة البرجوازية، حمالات سوداء، وقميص أبيض ناصع، وحوار مفتوح تطرق إلى كل شيء؛ أنواع الطعام وتلك القصص المخجلة عن جوزيف الصغير، مواقف أثارت الخجل في نفس الفتاة وبدا جليًا على وجهه انزعاجه من ثرثرة والدته العفوية، نظرات متبادلة بينهما، والأم تتصنع عدم الملاحظة تارة بانشغالها بأمور بسيطة وتارة بالتفافة بعيدة عنهما.. بعد العشاء ساعدهما جوزيف في حمل الأطباق إلى المطبخ، وأصرت على أن يجلسا في حجرة المعيشة إلى أن

تجهز لهما الحلوى، المنزل بسيط من طابقين في الطابق الأسفل كانت حجرة المعيشة تستحوذ على معظم المساحة، عدة أرائك قديمة ولكن ما زالت تحتفظ بتماسكها تتوسطها سجادة عتيقة يدوية الصنع في منتصف السجادة طاولة خشب فُرِدَ عليها مفرش مطرز، اختار جوزيف أن يجلس قرب المدفأة فوق كرسي خشب أسود اللون وكانت سارة تجلس بعيدة قليلًا على أريكة كبيرة، تأملته ببطءٍ في حين أنه كان شاردًا مع ألسنة النار، إنه هادئ، ولكن بداخله جذوة مشتعلة، اليتم طُبع على محياه فجعلت ملامحه تشبه طفلًا، ساكن يتلمس الدفء، إنها ليست حادثة سجنه وفصله من العمل فقط هي التي جعلته منسحبًا هكذا، ثمة شبح يقرفص فوق كتفيه ولكن أي شبح، سألت سارة نفسها.. ثم سألته:

- لماذا هو كرسي واحد أمام المدفأة؟
- إنه كرسي والدي، وما كان لأمي أن تجلس فيه أو حتى تجلس بالقرب منه لقد كان هذا هو مكانه المفضل يا آنسة سارة.
- اسمي سارة، أحب أن يناديني أصدقائي بسارة فقط.
- ممتن لما فعلتِه من أجلي يا.. يا سارة.



ابتسامة هادئة ارتسمت على شفتيها قبل أن تقول بنبرة خافتة:

- الامتنان كله لك على ما قدمته لي في تلك الليلة، وهبتني الحياة يا جوزيف بإنقاذك لي، من كان يدري كيف كنت سأعيش إن فعلوا بي شيئًا، ربما قُتلت بعد انتهائهم مني، كنت ملاك الرب الذي هبط من السماء لينقذني من براثن أعوان الشيطان.
- لا أدري ما أقوله ولكني فعلت ما تحتم على أي رجل فعله، وهو تقديم المساعدة لمن يحتاجها.
- أنت شجاع، لم أنسَ بطولتك وظللت أقص على صديقاتي ما حدث لأيام، ما يؤلمني هو أنني لم أكن أعرف أنك قابعٌ في السجن بسببي، ظننت أنك أديت مهمتك البطولية واختفيت تمامًا، أو عدت إلى السماء من حيث جئت، حتى قابلت والدتك وأخبرتني بالأمر، أنا آسفة حقًا لما حدث لك ولا أعرف كيف أعوضك عما حدث.
- لا عليكِ، لا تبتئسي، ها أنا حر الآن.



رجع لصمته المبهم مرة أخرى، تناولت وسادة الأريكة الموضوعة خلفها، ووضعتها أمام المدفأة وجلست فوقها أمام جوزيف، نظرت إلى النار وسألته:

- ولكنك لن تعود للخدمة بالجيش مرة أخرى!

ألقى نظرة على المطبخ حيث توليهم أمه ظهره ثم أجاب بصوت خافت:

- سارة أنا ممتن للظروف، فلقد كان الالتحاق بالجيش تلبية لمطلب أمي، هي من أرادت أن أصبح عسكريًا وتوسطت لدى أقاربي حتى أبقى داخل أحد مكاتب القادة، لم أحب الأمر على الإطلاق.. كنت مقيدًا دومًا وسبَّب ليّ ذلك الكثير من المتاعب مع الأفراد والضباط، أنا رجل حر، هل تعلمين ما تعنيه تلك الكلمة؟ وهل تعلمين ما الذي قد يسببه تقييد رجل حر يا سارة؟
- أعلم بالطبع، إنها مرحلة ومضت وعليك أن تنساها.. قل لي هل تفكر في عملٍ ما؟
- ربما أعود للتدريب في أحد مكاتب المحاماة.. عليَّ أن أفكر جيدًا في مستقبلي.
- أتمنى لك كل التوفيق.. جوزيف أنت إنسان نبيل وأستطيع أن أتنبأ لك بمستقبل باهر،

سيذكرك التاريخ ذات يوم.

انفجر ضاحكًا كما لم يضحك من قبل، الأمر الذي جعل والدته تلتفت مستغربة، كانت فرحة لرؤية ابنها يضحك من جديد، بينما انكمشت «سارة» في مقعدها وهي تحرك رأسها يمينًا وشمالًا برفق تستنكر كونها سمعت هذه الضحكة من هذا الهادئ، اصطبغت وجنتاها بحمرة الخجل الممتزجة بالدهشة، لا تعلم لأي مدى كان صدر جوزيف يحترق، تقدمت الأم منهما تحمل طبقًا كبيرًا يعج بصنوف من الحلوى احتفاء بضيفتها العزيزة، تطلعت إليهما مبتسمة قائلة:

- ألا تضحِكاني معكما!
- «سارة» تقول إن التاريخ سيذكرني ذات يوم.

رفعت حاجبها وقالت بثقة:

- لم تقل سوى الحقيقة.. أوَلست ابني.. بالطبع سيكتبون عنك ذات يوم.

في تمام السابعة مساءً، غادر جوزيف المنزل برفقة ضيفتهما، ارتدى سترة، واسعة لم تفلح الأزرار في إحكامها على جسده النحيل وكأنها لم تكن يومًا سترته، نظر لسارة وقال:

- على ما يبدو أن الحياة أخذت مني عدة أرطال.



- احمد الرب أنها أبقت لك على شيء.

مسدت الأم على كتف سارة.

- ملابسك خفيفة يا سارة سأجلب لك شالًا، ألا تشعرين بالبرد؟

- لا يا سيدتي لا أشعر بالبرد.

سألها جوزيف وهو يحكم وضع كوفيته حول عنقه.

- ولماذا؟

ابتسمت وانحنت قليلًا ووالدة جوزيف تضع الشال الصوفي على كتفها وقالت محدثة إياه:

- هل فكرت ذات يوم إن كان تمثال الثلج الذي كنت تصنعه وأنت طفلًا، يشعر بالبرد أم لا؟ أم أنك لم تكن لتهتم.

لم يجد إجابة لسؤالها، وقبيل خروجهما أوصتهما بتوخي الحذر وألا يتأخر في العودة.. طريق خاوٍ يهيم السكون في أرجائه، وقع خطواتهما المتهادية جعل قطًا أسودَ يتلصص عليهما، رفع ذيله وأخذ يموء مستأنسًا بوجودهما ثم أخذ يطارد ظلالهما، كانت فرصة مثالية لكسر جمود ورتابة سيرهما، حدثته:

- حين كنت في الثامنة من عمري أهدتني جدتي هرًا صغيرًا، أستطيع تذكُّر فرحتي ذلك



اليوم، وكيف عارضت أمي الأمر، ولكن أبي قال لا بأس من ذلك، فلا أحد يستطيع أن يثير غضب الجدة التي فرضَت أمرًا واقعًا على زوجة ابنها، مرت الأيام وتوليت العناية بالهر حتى صار قطًا كبيرًا، لا يفارقني حتى في الفراش، وإن غبت عن المنزل كان لا يأكل ولا يشرب حتى أعود، سافرت ذات يومٍ إلى بافاريا بصحبة العائلة وتركته عند صديقة لي، وحين عدت لم أجده عندها، أخبرتني أنه هَرب ولم تعثر له على أثر، مضت الأيام وكدت أنساه حتى وجدته ذات يوم يجول بشارع قريب من منزلنا، ولن تصدق ما فعل.. تذكرني رغم مرور ما يقرب من عام وأخذ يتمسح بي وحين أردت أن آخذه معي للمنزل لم يتبعني، حملته بين ذراعي ومضيت وما كان منه إلا أن قام بخدشي وتملص قافزًا..

- قط لعين.
- لا ليس كذلك، كان قد تبدّل واعتاد على حياة جديدة ولم يعد ذلك الهر الذي ربيته، ربما ظن أني تركته وتخليت عنه، أصبح لديه واقع جديد تأقلم عليه أراد أن يتجول بين الحدائق مطاردًا الفئران والطيور، والبحث عن إناث،



وفرض مناطق للنفوذ.. لعلّ أيام وحدته كانت سببًا في ذلك التغيير، أو أنه ظن أن البشر أقسى من أن يهتموا بحيوان أليف، بعد أن كان منعمًا صار شريدًا، لأيام ظللت أحاول فهم ما فعله ولم أجد جوابًا سوى أن الهَجر والوحدة قادران على تبديل النفوس.

- أتعرفين، لم أحب القطط يومًا، أردت ذات يوم أن أقتني كلبًا ورفضَت أمي، وتمنيت أن يكون لي حصان ولكن كل ذلك ظلّ مجرد أمنيات لم تتحقق.
- ما زال أمامك وقت لتحقق ما تتمناه.
- أظن أن بعض الأمنيات لا سبيل لتحقيقها أبدًا.
- إن أردت تحقيقها فستفعل، الأمر منوط بقدرتك على السعي لأجلها.
- وربما ما نسعى لأجله لا يسعى لأجلنا.

شَعرت أن كلماته هذه فيضٌ قليلٌ من حزن يجثم على قلبه، توقف عن السير وأخذ يجول ببصره في أنحاء المكان قبل أن يحدثها مردفًا:

- يبدو أننا تجاوزنا باب منزلك.
- نعم.. أخذَنا الحديث ونسينا، لم نبتعد كثيرًا.



اتخذا سبيل العودة إلى حيث منزلها والصمت يتبع أثرهما، أمام البيت وقفا متقابلين، تطلعت إليه مبتسمة وكذلك فعل، حاولت أن تقول شيئًا ولكن كلماته كانت أسرع:

- كانت ليلة جميلة.. شكرًا لك «سارة» على كل شيء.

- بل الشكر لكما على دعوتي للعشاء الرائع.

برهة صمت قطعها مجددًا بنبرة صوته العميقة:

- حسنًا سأرحل الآن.. هل تريدين شيئًا؟

دنت سارة منه وبلا كلفة مسحت بأطراف أصابعها جبينه المتعرق رغم برودة الجو، ومن قبيل الذوق شكرها وأخرج منديله يمسح حبات العرق بنفسه وما زال واقفًا معقود اللسان أمامها ففي حقيقة الأمر وما سبّب ارتباكه أنه لا يود مواجهة عينيها حتى لا تجيب بما حوته حشاه من الكسرة والضعف، حفيف الشجر حولهما صنع لحنًا مع صوت بعيد لعازف كمان لا يعرف أين بالتحديد يكون موقعه، هل يعزف من إحدى الشرفات أو من أحد الشوارع الخلفية، لعله وحيد يستأنس بلحن رائق، راحت سارة تشجعه فسألته عن خطته لليوم التالي فأجاب أنه لا يعلم، ربما لن يخرج وسوف يفضل البقاء في المنزل ليستريح ومن دون أن



يوجه عينيه صوب عينيها المرتكزتين على وجهه، استدار يريد الانصراف ولكن سارة أخذته من يده برفق ثم قامت على مشطي قدميها وقبّلته على جبينه.

تفاجأ من فعلها وتراجع للخلف:

- سارة، رويدًا.

اتسعت عيناها وشعرت بأنها تلقت صفعة، ما كان يجب أن تفعل هذا، رفعت يديها:

- آسفة، جوزيف لم يكن عليَّ فعل هذا.
- لم يحدث شيء.. ليلة سعيدة يا سارة.
- ليلة سعيدة لك أيضًا.

ألقت جملتها وهرعت تصعد درجات السُلم، بينما ظلّ واقفًا حتى فتحت الباب ودلفت، تصلب في مكانه للحظات قبل أن يرحل، لم يأخذ سبيله إلى المنزل عائدًا، بل توجه إلى ملتقى النهرين؛ حيث بدأت الحكاية.

****

تمضي أيام العُمر، وما فات لا يمكن تعويضه، وما هو آتٍ يخضع لاختياراتنا التي بفعلها نجني النتائج، وكل بداية جديدة تصبح أصعب بفعل جذور الذكريات المتشبثة بأرواحنا، وكل تلك الأحلام التي بُنيت بغرض تحقيقها تنسف وتتفتت، كجبل يُغرس بجوفه أصابع



المتفجرات لصنع فجوة كافية لمرور قطار الحياة، الذي لا يتوقف أو يتأخر لرحيل أحدٍ، وكل تلك الآلام العالقة بأذهاننا تصبح كمثل الصدأ فوق قنديلٍ قديم لا يكاد يُضيء، نتراكم وتثقل كاهلنا ولا نجد سبيلًا سوى أن نمضي رغم كل شيء حتى نجد النهاية أو تجدنا، أسابيع قضاها جوزيف بين المنزل والمقهى وساعات من البحث عن عمل، تتودد إليه «سارة» ولا يكاد ينظر إليها، تحاول أن تسعده بطرق شتى ولكنه خاوٍ، لا يشعر بشيء باتجاهها، إنه مجرد حطام إنسان يتحرك بين الناس، روح مهشمة ويستحيل أن تُجمع شظاياها للإصلاح، جُلَّ ما يريده أن يجد عملًا يساعده على العيش هو وأمه، لن يبقى هكذا أبد الدهر، تطعمه أمه وتمنحه نقودًا بقدر ما استطاعت، لم تشتكِ يومًا ولم تبغِ سوى أن يبتسم، حاولت مرارًا أن تفاتحه بأمر «سارة» محاولة إقناعه بالخروج معها، ولكن لم تفلح في ذلك، غير أن الأمّ لم تيأس ورتبت لهما لقاءً بدى له وكأنه عفوي؛ حيث جمعتهما مكتبة المدينة العامة، بعد ظهيرة أحد الأيام، كان قد ذهب لاستعارة كتابٍ جيدٍ كعادته منذ خَرج من محبسه، كان يتجول بين أُرفف المكتبة يعاين العناوين المختلفة، وضوء النهار يتسرب من النافذة العلوية ليضيء الممر الذي يسير فيه، ظهرت فجأة من العَدم وكأنما خلقت من ضياء الشمس،



زادتها الأشعة الذهبية جمالًا وتوهج شعرها الأشقر بهالة مشعة، بدت كقديسة هبطت للتوِّ من ملكوت السماء، ثوبها الأزرق البسيط منحها إطلالة جذابة، لوهلة ظن أنه يَحلم ولكنها اقتربت منه وتسلل إلى أنفه عبير عطرها الفريد، كان شاردًا حين أوقظته بكلماتها، تأملها قليلًا لكنه لم يبدِ أيَّ إعجاب:

- لم أكن أعرف أنك تهوى القراءة.
- عادة اكتسبتها منذ فترة وجيزة، هل تأتين هنا دومًا؟
- ليس دومًا.. ولكني محظوظة اليوم بلقائك.
- كيف تسير الأمور معك في المشفى والحياة؟
- لا شيء جديد.. هذا الأسبوع أعمل ليلًا فكما تعلم نحن رهن تبديل نوبات العمل بشكل أسبوعي.
- جيد..

تبادلا النظرات للحظات والصمت يلفهما حتى ابتسم لها وسألها:

- هل تبحثين عن كتابٍ ما؟! هذا قسم كتب المحاماة والقانون على ما أظن...
- آه.. نعم أعرف فقط رأيتك وأحببت أن ألقي التحية.. كنت اتجه إلى قسم الروايات.



- عظيم، أنتِ ممن يحبون قراءة الروايات إذًا.
- أحب الرومانسية منها.
- لمن تقرئين؟؟

كان سؤاله مباغتًا، ولكن من حسن حظها أنها رأت حين دخلت للمكتبة فتاة تعيد أحد الكتب لمديرة المكان ورددت الاسم الذي قالته الفتاة:

- تيودور فونتانه..

تمتم وهو يومئ لها برأسه:

- إيفي بريست.. كانت تلك روايته الأخيرة من المرجح أنك قرأتِها.
- نعم بالتأكيد.. رواية رائعة، هل تنتظرني للحظاتٍ.. سأعود بسرعة.

تركته وحثت خطاها مبتعدة في فعل تعجب منه ولكنه لم يتوقف عنده كثيرًا، أخذ يكمل بحثه بين الأرفف، بينما دلفت هي إلى الرواق الموازي استندت بظهرها إلى أحد الأرفف وحاولت تنظيم أنفاسها المتلاحقة، لم تقرأ تلك الرواية.. إنها لم تقرأ كتابًا منذ كانت بمدرسة التمريض، ولطالما تهكمت على زميلاتها المغرمات بتلك الروايات والقصص الخيالية، كان عليها الهرب قبل أن يطرح عليها سؤالًا آخر، مرت لحظات وهي على هذه الحالة قبل أن تعود إلى الرواق الذي



تركته فيه، لم يكن له أي أثر.. أي حظ عاثر هذا الذي يطاردها، ليس من الذوق أن يتركها هكذا ويرحل دون أن يستأذن و... «سارة هل وجدتِ ما تبحثين عنه؟» باغتتها كلماته فاستدارت لتفاجأ به خلفها، تراجعت بعفوية وكادت تسقط ولكنه تلقفها، كانت بين ذراعيه للمرة الأولى وعيونهما تتعانق، وشخص سخيف سعل خلفهما، كانا في موقف محرج.. اعتدلت وابتسم هو للرجل الذي رمقهما بنظرة خاوية قبل أن يتجاوزهما، تابعت مرور الرجل بينما جوزيف يقول لها:

- حصلت على مبتغاي. رفع أمامها كتاب كبير عن تاريخ أوروبا.

منحته ابتسامة رقيقة:

- جيد، هل نرحل؟
- لم تجدي ما تبحثين عنه؟
- سآتي في وقت آخر.
- إذًا هل تقبلين دعوتي لشرب كأس من العصير؟

بدت فرحة وقد اتسعت عيناها أكثر وتوردت وجنتاها:

- بالطبع.. لنذهب.

جلسا في مقهى قريب من الساحة، المكان مكتظ بالزبائن وعازف قيثارة يتجول بين الطاولات، تسامرا في كل شيء إلا الكتب تملصت من أسئلته حول الروايات والقصص، ورغم أن لقاءهما كان طويلًا إلا أنه كان قليل الكلام بعكسها، غامضًا ربما.. أو متعَبًا يحمل بداخله حزنًا يكفي لإغراق دوسلدروف، وقلبه موصد بقفل غليظ لا مفتاح له، حاولت أن تجلعه يتحدث أكثر عما يقلقه ولكنها فَشلت في الحصول على إجابة، تحدثه عن الحب وأبويها وإقناعها لهما بالرحيل عنهما والانفصال نحو حياة جديدة، كيف الأمر شكل صدمة لهما، ولكنهما اقتنعا وما هي إلا أيام وسينتقلان إلى جوارها هنا في دسلدروف، حياتها الخاصة تسير وفق ما أحبت رغم الأيام الصعبة التي مرت عليها وليالي وحدتها التي على وشك الانتهاء، أما هو فكان يحدثها عن سر الحياة، تخبره بقصص عن زواج صديقاتها، ويخبرها أن حربًا وشيكة ستقع في الأنحاء، رغم كل هذا كانت سعيدة بمجالسته والسير معه حتى بوابة المشفى، ولكنه باهت جامد يكتفي بابتسامة باردة.

في مساء ذلك اليوم سألته أمه عن يومه، أخبرها أن وجوده بالمكتبة تصادف مع تواجد «سارة»، وأنهما خرجا سويًا، تهللت أساريرها لبعض الوقت قبل أن يخبرها أنه لا يود الارتباط والزواج، حَزنت كثيرًا



وعاتبته، يتفهم أنها تريد رؤيته واقفًا أمام القس بالكنيسة متأنقًا مع عروسه، أن ترى أحفادها وتحملهم وتهدهدهم وتغني لهم، حدثته بما تطمح فتعلل بالبحث عن عمل أولًا، وتلك كانت حُجته حتى اليوم الذي قُبل فيه بمكتب صغير للمحاماة. عاد إلى المنزل في ذلك اليوم مبتهجًا، وسرعان ما تبددت بهجته.. وجد أمه ملقاة على أرضية غرفتها، فَزع وهرع لنجدتها، هَزها مرارًا كانت فاقدة للوعي وأنفها ينزف دمًا، حملها بصعوبة إلى الفراش وراح يحاول إفاقتها، وبعد برهة فتحت عينيها بتثاقل، احتضنها وبكى: ظننت أني فقدتك.. هل أنتِ بخير؟!

سَعلت الأم وتناثر رذاذ الدم من فمها، حاول أن يهدئ من روعها فهاله ما رأى، لم يكن الرذاذ سوى قطرات من دم لوث شفاها، حدثها بنبرة مرتجفة تفيض بالهلع:

- استريحي.. سآتي لك بكأس ماء.

سقاها الماء على جرعات ودثرها في الفراش بعد أن مَسح ما ألمّ بوجهها من دماء، لاحظ أن حرارتها مرتفعة وبالكاد تفتح عينيها، حاول أن يظهر التماسك أمامها، لا يدري ماذا يفعل جلس إلى جوارها يفكر، كانت تهذي بكلمات غير مفهومة وربما ذكرت اسم



«سارة» أو هكذا هيأ له، ولكنها بدت الحل الأمثل في هذا الظرف، كان مترددًا في ترك أمه على تلك الحالة ولكن سُرعان ما حسم قراره، قبّل جبينها وهمس في أذنها أنه سيذهب لإحضار طبيب.. ركض مسرعًا عبر الأزقة والشوارع حتى وصل إلى بيتها لاهثًا، طرق الباب بقوة مرارًا ولم يحصل على إجابة، كان حائرًا لا يَعرف ماذا يَفعل، المشفى الذي تعمل به يقع خارج البلدة القديمة سيأخذ وقتا حتى يصل إلى هناك.. كان عليه أن يُنقذ والدته فركض على غير هدى، وبينما كان يَقطع الطريق مسرعًا اصطدمت به عربة مُسرعة، حَلّق في الهواء لبضعة أمتار ثم هوى وآخر ما رآه ضباب يغشي كل شيء.

*****

٣

حياة جديدة

البحر المتوسط – صيف ١٩١٤

أبحرت بارجة حربية ترفع العلم الفرنسي وسط البحر الهائج، تحمل على متنها الفوج الثاني من مشاة -الفيلق الأجنبي-، مرتزقة من مختلف الجنسيات والأعراق، قبلوا التجنيد بالجيش الفرنسي مقابل مبالغ جيدة وامتيازات خاصة، خرجت البارجة من مرسيليا منذ أيام يرافقها سرب من النوارس المحلقة تتبع مسارها، كهؤلاء الجند يبحث الطير عن حياة جديدة، بعيدًا عن أوروبا التي تعيش حالة من التوتر وطبول الحرب تُقرع في عدة بلدان، يحشدون قواتهم على عدة جبهات، ومستعمرات فرنسا في أفريقيا بحاجة لمزيد من الجند للحفاظ على أراضي إمبراطورية مترامية الأطراف، ما زال الناس يذكرون كيف انهزمت إسبانيا، ومُحيَ اسمها من سجل الإمبراطوريات، فقدت مستعمراتها في أمريكا وكذلك حال العثمانيين الأتراك الذين يفقدون السيطرة على أراضيهم تباعًا، أما فرنسا فتزداد قوة ونفوذًا بأعماق الأحراش الإفريقية.. لا يكف الرجال عن الحديث حول الحرب القادمة وسياسات



الدول؛ لهذا تركهم وصعد إلى سطح السفينة، وقرب مقدمتها وقف يتأمل البحر الشاسع، يستنشق رائحة الصباح المشبع بملوحة البحر الشاسع، يحدِّث نفسه بذكرى قريبة لم يستطع نسيانها، تمنى لو أن يلقي كل تلك الذكريات إلى قاع البحر وينسى.

تبدّل الحال كثيرًا، ومرة أخرى صار جنديًا ولكن هذه المرة، مجرد جندي مرتزق ضمن فيلق أجنبي بالجيش الفرنسي، حياة لم يكن يتخيلها يومًا، يذكر ذلك اليوم الذي فتح فيه عينيه، ليجد نفسه على فراش العَجز بمستشفى دوسلدروف، ذراع مكسورة ورأس لُف بأربطة من الضمادات، لا يدري كم لبث.. كل ما أراده هو النهوض والعودة إلى المنزل حيث ترك أمه المريضة، ما إن اعتدل في الفراش حتى هَرعت إليه الممرضة، حاولت أن تثنيه عن النهوض ولكنه دفعها بعيدًا، صرخت ونادت على زميلاتها وسرعان ما اكتظ المكان بهن رفقة الأطباء، حاولوا تهدئته وإقناعه بالبقاء في الفراش، ولكنه كان غاضبًا يجول في وجوههم بحثًا عنها ثم حدّث أحدهم:

- أين هي.. أين «سارة»؟ أمي مريضة وبحاجة لطبيب.

- حسنًا اهدأ من فضلك.. ستأتي «سارة».



- كم لبثت هنا؟ أريد العودة إلى المنزل.
- عليك أن ترتاح وبعدها ننظر في أمر عودتك إلى المنزل.
- أنت لا تفهمين أمي مريضة للغاية وعليَّ العودة.

ها قد عادت «سارة».. نطقت بها إحداهن فالتفت جميعهم نحوها، كانت شاحبة واجمة تقف على عتبة الغرفة متشحة بالسواد، ذابت الجموع البيضاء من حولهما ولم يبقَ سواهما، كان يتطلع إليها وجفن عينه اليسرى يرتعش، هز رأسه نافيًا تلك الأفكار التي راودته:

- «سارة».. هل أمي بخير؟

لم تجبه، خفضت رأسها قليلاً للأمام، فأعاد عليها السؤال والدمع ينساب بروية على خديه، حاول النهوض فخانته قدماه، سقط وهرعت إليه منادية زميلاتها، تشنج جسده وتلاحقت أنفاسه وصار يضرب رأسه في الأرض باكيًا... كان قد لبث في المشفى ثلاثة أيام، لم يحضر جنازة والدته ولم يكن في صفوف المعزين، أخفت عليه أمر مرض ذات الرئة حتى استفحل ورحلت دون أن يودعها.. فراق بعد فراق، وداع حبيب يسلمه لوداع حبيب آخر، صارت الأيام



كلها متشحة بسواد الحداد، يزور قبرها كل صباح، يحدثها ويطلب منها المغفرة على تقصيره في حقها، يلوم نفسه على موتها، ولا يملك من الحياة سوى الحسرة.. المنزل كئيب وطيفها في كل مكان، فصار يهرب من المنزل ليمشي هائمًا في بالشوارع والحدائق، يخشى العودة إلى البيت حيث تحاصره الوحدة، «سارة» كانت ترعاه في الأيام الأولى بعد خروجه من المشفى، ولكنه طلب منها التوقف عن المجيء، أصبح حساسًا تجاه أي مشاعر مقابلة لا يريد أن يشفق عليه أحد، لذا تحاشى نظرات أهل الحي والحديث معهم، و أرادت سارة أن تساعده ولكنه أبَى، حتى جاء اليوم الذي قرر فيه الرحيل، سيترك دوسلدروف وألمانيا كلها، دون أن يعرف إلى أين سيذهب.وإذ به يجد نفسه تائهًا بشوارع باريس، أيام قضاها في فندق صغير قبل أن ينتقل إلى شقة قام باستئجارها بنصف ما كان معه من مال، البحث عن عمل أمر حتمي ليبدأ حياته الجديدة، نما بداخله شعور بالفشل وعدم جدوى الحياة، لغته الفرنسية كانت جيدة كفاية ليتعامل مع الناس القليلة التي يحتك بها، صاحب المقهى ومالكة المنزل، وبائعة الخبز، باريس راقية ولكنها متوحشة، يستطيع أن يرى فيها تفاوت الطبقات، الفقراء والشحاذون وعازفون ينتشرون في الطرقات، بائعات الهوى، وأصحاب

القبعات والملابس الأنيقة، وتلك الحانات العامرة بالسكارى، فكر كثيرًا أن يعود أدراجه إلى بلدت،ه إلى «سارة» التي جرحها رغم محاولاتها الحثيثة لمساعدته، ترك لها رسالة، ومفتاح منزل والدته، وكثيرًا من الكتب، وذهب إلى باريس ليبحث عن أمل جديد وحياة يبدأ خوض غمارها من جديد، ولكن الفرنسيين يبغضون الألمان.. حقيقة واقع جديد فُرض عليه، وتعرَّف على جوانبه خلال رحلته المضنية في البحث عن عمل، شعور سيء أن تعي جيدًا كم أنت غريب في بلاد لا يعرفك فيها أحدٌ، تشتهي محادثة أي شخص لعلك تُفرغ ما بجوفك، شريد.. حزين.. وحيد ينهش البؤس في وجدانك، تنتظر عَطف السماء عليك، كان بحاجة لأن يدفن جسده في صدر أمه كما كان يَفعل، أو يبكي بالساعات بجوار قبرها.. ليته ما رحل عن دوسلدروف أبدًا، ليته مات ودفن إلى جوارها.

«وحده البحر قادر على كتمان أسرارنا، نلقي بأمنياتنا بداخله ونحدثه بما لا يمكن أن نبوح به للبشر.. ولكن ماذا لو فاض كيله وقرر الحديث ولفظ كل أسرارنا؟ سيكون الأمر مأساويًا أليس كذلك؟»انتشله الصوت القادم من خلفه من بئر الذكريات، استدار ليجد شابًا، طويل القامة، يعتمر قبعة



بيضاء ذات شريط أسود، يُثبت كاميرا على حامل معدني بالقرب منه متابعًا حديثه:

- عذرًا على تطفلي.. ولكن المشهد ساحر ووجب التقاط تلك الصورة، هل تسمح لي؟

نظر إليه جوزيف مستغربًا ولم يبدِ أي تعبير، فقط تنحى جانبًا في صمت، وفوجئ بالمصور يلوح بذراعه قائلاً:

- ابقَ حيث أنت.. وقِف كما كنت قبل أن أحدثك.

اقترب بخطوات واسعة باتجاهه، ومدَّ يده لمصافحته ففعل جوزيف والشاب يستطرد:

- أنا «رينيه فوليتير».. صحفي فرنسي حر ومصور هاوٍ.

ردَّ ببرود:

- جوزيف أوتو كليمس.

- أوتو؟! أنت ألماني إذًا.. المرة الأولى التي أصادف فيها ألمانيًا في الجيش الفرنسي، تقريبًا كل الجنود الذين تعرفت بهم من الفيلق الأجنبي إما بلغار أو صرب وإيطاليون ويونانيون وقليل من اسكندنافيا ولكنها المرة



الأولى التي أقابل فيها ألمانيًا.. هل تسمح لي بالتقاط الصورة؟

- لا.

- ستكون صورة من الخلف، لظهرك وأنت شارد تنظر إلى البحر، ستكون مميزة وربما تحظى بفرصة الظهور على الصفحة الأولى لإحدى الجرائد الفرنسية تحت عنوانٍ رئيسيٍّ جذاب... «أبطال فرنسا والتطلع إلى الضفة الأخرى.. أمنيات جندي ذاهب إلى الحرب.. لسوف أعود يا أمي.»

الجملة الأخيرة أوجعته، حدق في وجه «رينيه» لبرهة ثم حدثه بنبرة غاضبة:

- ابتعد عن طريقي.

ألقى جملته وهَمَّ بالرحيل، ولكن «رينيه» وقف أمامه مبتسمًا بسماجة:

- حسنًا يا صاح لا تغضب.. إن بدلت رأيك ستجدني حتما أتجول هنا أو هناك، سيكون حوارًا ممتعًا. والتمس لي العذر فالمشهد رائع وأنا بحاجة لتلك الصورة وربما تفضي لي بحوار خاص معك. ولا بأس إن كتبنا الأحرف



الأولى فقط من اسمك إن كنت لا تريد أن يعرف أحد مكانك.

لم يلتفت إليه جوزيف بل وأكمل المسير، هذا ما كان ينقصه، فضول صحفي يبحث عن سَبق، أي شيء ينفع الناس من قراءة مقال عن مرتزقة انضموا إلى الجيش الفرنسي؟ دلف إلى عَنبر المبيت حيث يكتظ الجنود، هل هم مثله هاربون من الحياة؟ أم أن لهم غَرضًا آخر؟ الذهاب إلى أرض جديدة من أجل بعض المال، هل هذه هي الحياة التي أرادها!

قبيل أيام من الانضمام إلى ذلك الفيلق، كان قد تعرف على شخص وعده بعمل في إحدى الحانات، ولأيام ظل يتردد على المكان بحثًا عن ذلك الشخص، لم يجد له أثرًا وظن أنه محض خيال اختلقه عقله المتعب، التردد على تلك الحانة جعله يستأنس بأجوائها، أغواه الصخب المحيط به وكان كافيًا لينسيه جبال الذكرى الجاثمة على قلبه، وذات ليلة قرر المراهنة بعد أن رأى أناسًا يفوزون وآخرين يخسرون ولا زالت ضحكاتهم تملأ وجوههم، سحب كرسيًا خاويًا وجلس على طاولة المراهنة، ورغم توتره حاول أن يُثبت لنفسه أنه ليس سيئ الحظ كما يتخيل ولكنه كان مخطئًا، خَسر كل ما تبقى من ماله، نهض متثاقلًا يلوم نفسه على ما فعل، وبينما كان يَجلس برفقة كأسه



اشتم عطرًا نسائيًا فواحًا، فقط أمال رأسه جانبًا ليرى تلك الجالسة إلى جواره، حسناء فاتنة مكتنزة في ثوب أحمر بيضاء كأن جسدها نُحِتَ من البلور وتضع بين شفاهها الحمراء مَبسم يحوي لفافة تبغ، تمايلت بغنج ودلال:

- هل تُشعل سيجارتي إن كان لديك عود ثقاب؟

ابتسم لها وهز رأسه نفيًا:

- في الحقيقة لا أدخن.

أطلقت العنان لضحكة رقيعة مرتفعة وكان وجهه أقرب للعبوس وهو يولي وجه عنها ثم مالت نحوه وهمست:

- المرة الأولى التي أصادف رجلًا في حانة ولا يحب التبغ، ألا تشتهي أن تتذوقه؟ رغم ما يبدو عليك من نفاد الصبر وسرعة الغضب ألا أنك تبدو طيب القلب لا تعرف المكر والخداع وليس لك في عالم الهوى باع.

ولى وجهه نحوها لقد كانت فائقة الجمال والخمر تملكت من رأسه، حاول مقاومتها ولكنها غاوية ومثيرة، حاول أن يقول شيئًا فتلعثم حين لامست أناملها وجنته، عيناها المكتحلتان حاصرتاه، وشعرها الأحمر الناري أثار بداخله رجفة غريبة أنذرته منها، ولم يمض



كثير من الوقت حتى وجدها تلثم شفاهه بشغف، وبينما هم على هذه الحالة جذبته يد غليظة من عالمها الوردي، أفاق على تلك الدفعة من رجل ضخم البنيان، حاول أن يفهم الأمر؛ فما كان من ذلك الشخص إلا أن صفع الجميلة، صوت اللطمة جعله يدرك الأمر، إنها تخص ذلك الشخص على ما يبدو، حاول جوزيف أن يتراجع ولكن الحبيب الغاضب انقض عليه، ولم تمضِ لحظات حتى تحول الأمر إلى مشاجرة عنيفة، اللكمات والركلات وصراخ المومسات وترنُّح السكارى، وأخيرًا تكالب عليه الجميع قاوم حتى غُلب وسُلم للشرطة، أصبح عليه دفع غرامة قدرها خمسمائة فرنك، وإلا السجن ومن بعده الترحيل إلى ألمانيا، كونك ألمانيًا في باريس كمثل حمل وديع يعيش بين قطيع من الذئاب، جلس في ركن الزنزانة يحدث نفسه: «اللعنة يا جوزيف فأنت لست سوى خاسر وفاشل ولا تجيد فعل أي شيء، حزت نصف سوء الحظ الذي في العالم، والنصف الآخر وُزِّعَ على البشرية جمعاء، لا في وطنك وجدت نفسك ولا في الغربة التقيت بمن ينسيك نفسك، كل ما أريده هو وجه جديد دون ماضٍ، دون ذاكرة والأهم وجه لا يشبهه».. في المخفر تدخل رقيب جيش لفهم ما حدث، بدا الرجل مهتمًا بمجموعة من الموقوفين، وما لبث أن عَرض عليهم ذلك العرض المغري، عقد لمدة



خمسة أعوام مقابل امتيازات وأموال شريطة أن يخدموا فرنسا وجيشها، سيصبحون فرنسيين تمامًا ولهم حق الترقية، عرفهم الضابط بنفسه، وأخبرهم أنه هولندي الأصل وأنه تقلد عدة مناصب في الفيلق الأجنبي، حتى صار القائد المسؤول عن التجنيد، ولم يكن هناك مجال للرفض، إما السجن ومن بعده الترحيل المخزي أو الانضمام لذلك الفيلق الذاهب إلى أفريقيا.

****

تهادت السفينة فوق سطح البحر الرائق، بقعة ضوء وسط عتمة الليل والبحر، أوقفت المحركات ليعلو صوت الموسيقى الصاخبة، قاعة الطعام اكتظت بالجند وأقداح البيرة والرقص والضحكات، دخان السجائر وأوراق اللعب والحكايات الجانبية، حالة صخب راح «رينيه» يُسجّلها بكاميرته، يلتقط الصور تباعًا دون أن يعبأ به أحدٌ، زجاجات النبيذ الرديء، وأطباق الطعام الخاوية، وخليط من الوجوه والأعراق، دلف جوزيف إلى القاعة متجهًا إلى حيث قدور الطعام، حصل على وجبته، صحن فاصولياء وخبز وكأس من صفيح به قدر من نبيذ، جال ببصره في الطاولات، جميعهم منهمكون فيما يصنعون، هناك مقعدان فارغان في الزاوية البعيدة.. مذاق الطعام سيئ فاكتفى ببضع



لقيمات دفعهم إلى جوفه برشفات النبيذ، وبينما كان جالسًا يقلب بملعقته طبق الفاصولياء شاردًا، لمح أحدهم يجلس قبالته، كان رجلًا قصيرًا، ذا شارب كث، وحاجبين كثيفين، حيَّاه الجندي بإيماءة من رأسه، فرفع جوزيف كأسه محييًا إياه، الصمت كان ثالثهما كان يُفكر في حياته الجديدة، وذلك المستقبل الغامض في مكانٍ لا يعرف فيه أحدًا، بينما كان رفيق طاولته يلوك آخر لقمة من وجبته التي أنهاها بسرعة، استأذنه مشيرًا إلى طبقه.. فدفعه إليه جوزيف بلطفٍ، ابتسم الرجل وهو يقطع الخبز مستعدًا لتناول الطبق الإضافي، قال بفرنسية ذات لكنة غريبة:

- شكرًا لك يا أخي.

- لا عليك.. ولكن أظن أنك بحاجة إلى شراب يساعدك على هضم تلك الوجبة.

رفع الرجل بصره نحوه وقال بفم ممتلئ بالطعام:

- لا أشرب الخمر.

ابتلع ما كان يَمضغ ثم مسح يده في صدره ومدها إليه قائلاً:

- أنا «إسماعيل».. وينادونني التركي.. وأنت؟

- كليمس.

- اسم غريب.. من أي البلاد أنت؟



- ألمانيا.
- إذًا أنت ألماني.. هكذا هو الأمر في هذا الفيلق، سأناديك بألمان، انظر حولك ستجد العديد من الوجوه غير المألوفة، جميعهم فقراء وعاطلون وبعضهم مجرمون، يبحثون عن فرص جديدة للحياة، جميعنا في هذا الفيلق نتشارك نفس السمة وهي الهروب من واقع مرير وذكرياتنا البائسة، كما أننا جميعًا غرباء، ولكن اعذرني في القول... أنت لا تشبهنا، يبدو عليك أنك شخص مُتعلم.. ربما وُلِدتَ بمكان راق.. لماذا انضممت إلى هذا اللفيف؟

شَرد جوزيف قليلًا، كان تائهًا في غياهب غابة الذكريات النامية بعقله بحثًا عن إجابه، أفاق على صوت التركي الأجش:

- عبد الله، تعالَ انضم إلينا.

كان يُلوح لشخص نحيف يقف على مقربة منهم، وما لبث أن انضم إليهما ضاحكًا بفم فقد منه إحدى ثناياه العلوية، كان يتفحصه والتركي يتابع حديثه السريع:

- عبد الله... أعرِّفك على كليمس ألِمان.

تصافحا ثم راح عبد الله يبحث عن مقعد خاوٍ، لم تمضِ لحظات حتى عاد حاملًا كرسيًا وانضم إليهما متحدثًا بلغة لم يَفهمها كليمس:

- «إسماعيل».. بحثت عنك كثيرًا أين كنت؟

لاحظ التركي تلك النظرة في عيني ألِمان، فضحك وقال بالفرنسية:

- دعنا نتحدث باللغة التي يعرفها الجميع هنا.

تلعثم عبد الله وخرجت كلماته ركيكة وهو يقول:

- أنت تعرف أني ما زلت أتعلم.

تدخل جوزيف بلباقة قائلًا:

- لا عليكم، تحدثوا باللغة التي تحبونها، عليّ العودة إلى عنبر النوم أشعر بالنعاس.. سعدت بلقائكما.

نهض محييًا إياهما ورحل عن المكان، تجاوز الزحام والطاولات ومجموعة من السكارى الراقصين، وبينما كان يَخرج التقت عيناه بعيني «رينيه»، الذي لوح له صائحًا: «كليمس انضم إلينا».

لم يعره أي اهتمام، وأكمل طريقه إلى الخارج، لم يَذهب لمكان نومه بل إلى السطح، ملأ صدره بهواء الليل العليل، وهو يشاهد نجوم السماء التي تكدست فوق السفينة، آنس ضياءها وحشة الظلام الذي جمع



بين البحر والسماء، الأجواء ما زالت جديدة عليه، والتعرف على الناس في ذلك الوضع ربما يكون جيدًا؛ ولكنه ليس بحاجة لأن يقتحم أحد حياته، كان مستندًا على حافة السور يتطلع إلى الظلام حين سَمع صوت «رينيه»:

- هون على نفسك يا رجل.. عليك أن تتأقلم مع وضعك الحالي.

التفت إليه ببرود:

- ألن تكف عن مطاردتي؟
- أنا لا أطاردك.. ولكن لديك شيء أريده.

رمقه جوزيف باستغراب:

- لدي أنا؟! يبدو أنك مخطئ و...
- لديك قِصة أريدها.
- قصة؟!
- نعم.. قصتك.

***

شَحب من ضباب ناعم غلفت جبال البرّ الشاهقة، بدأت تبرز في الأفق وضياء الشمس يفترش الشاطئ على مهل، الجميع متحمسون ويستعدون للإنزال، همة في جمع الأغراض، وترتيب الطوابير، الضباط يلقون تعليماتهم كل على فرقته، صعدوا تباعًا إلى السطح

بانتظام، يلفحهم نسيم البحر، وبقعة من بياض راحت تفترش ظلال الجبال البعيدة، تقترب السفينة، وتتجلى المدينة القابعة على سفح الجبل.. صياح النوارس وهدير المحركات، وأثر على الماء من موج، وقصبة عتيقة تطل عليهم من فوق منحدر وعر، حلّق سرب من طير بحري أسود فوق أسوار المدينة ومآذنها المرتفعة مرورًا بمنازلها البيضاء كزبد بحر تَرَكَ أثره على قدم جبلٍ مستلقٍ بطول الساحل.. وعلى سطح السفينة تراص الجند كلٌ في طابوره، سُلِّمَ لكل واحد منهم بندقية، ووقف على رأسهم القادة والضباط، والعلم الفرنسي يَخْفق فوق الرؤوس، تقدّم أحد الضباط بخطوات عسكرية وتوقف أمام الجمع الغفير، قائلًا بغلظة:

- مرحبًا بكم في الجزائر.. سيكون لديكم الكثير من الوقت للتعرف على المدينة، ولكن قبل هذا، وفور وصولنا سنتحرك إلى معسكر أُعِدَّ خصيصا لهذا الفيلق، ومنه ستذهبون إلى مواقع تدريبكم حتى يتم إلحاقكم وتوزيعكم بعدة معسكرات، مهمتكم الحفاظ على الأمن.. لا تنظروا إلى نساء العرب، ولا تتوقفوا يومًا أمام دور عبادتهم، لا تحتكوا بهم على الإطلاق، إلا في حدود الممكن والذي يتناسب

مع مهماتكم.. أكرر لا تعترضوا نساءهم، ولا تعبثوا بدور عبادتهم، ستجدون كثيرًا منهم ذوي ابتسامة ودودة، ومنهم من سيعرض خدماته عليكم، لا تنصتوا إليهم فتلك الابتسامات والتملق مجرد فخ لاستدراجكم للموت ربما.. رجال الفيلق الأجنبي.. انتباه.

ضربت أرجلهم الأرض بدقة واحدة، السفينة ترسو على رصيف الميناء و «رينيه» المبتهج يلتقط الصور للجند، كان يُركز على الوجوه، وتلك التعابير الخاصة بكل شخص، كل منهم على وشك بدء مرحلة جديدة من حياته، التقط عدة صور لكليمس ومن جاوره في الطابور، «إسماعيل التركي» و «عبد الله الصربي»، هذا عن يمينه وهذا عن يساره يبتسمون للكاميرا بينما حافظ هو على جموده، وبدأ الإنزال على أرض الجزائر.

الأيام الأولى له في تلك المدينة قضاها داخل معسكره قرب باب الواد، توزع عليهم المهام والتعليمات بشكل يومي، تدريبات يومية شاقة، كان منضبطًا وعرف نفسه لقادته أنه كان جنديًا سابقًا بالجيش الألماني الأمر الذي جعله محط الأنظار، شاركه الغرفة الضيقة رفيقاه المسلمان، المرة الأولى التي يرى فيها صلاة المسلمين، كان ينصت لهما ويراقبهما بحذر؛ لطيفان ودائما الابتسامة رغم كثرة حديثهما باللغة



التركية التي لا يفهمها، يبدأ يومه مبكرًا مع دوي البوق الذي يعلن قدوم الفجر، ومن بعده يَسمع أذانًا بعيدًا يتردد صداه في الأنحاء، كان وقعه غريبًا على نفسه حتى اعتاده، عَمل بمستودع الطعام لأسبوعٍ واحدٍ، قبل أن ينتقل لفرقة ضبط الأمن، حين خرج إلى شوارع المدينة العتيقة للمرة الأولى.. أحب التجول في منطقة آل الجبل كما يسمونها، مرتفعة ذات شوارع ضيقة منحدرة وصاعدة، بها أزقة وحارات رطبة ذات أسقف، وعقود نصف دائرية تحمل ممرات علوية بين المنازل، وأشجار متسلقة على الجدران البيضاء، كانت مرتعًا للعصافير، النساء ملتحفات بملاحف بيضاء وأغطية للوجوه، يمشين في تجمعات بصحبة ذويهن من الرجال المتحفزين، كان الجنود يدعونهم بالأهالي ودومًا ما يشيرون إليهم؛ كأنهم أقل مرتبة من هؤلاء المتعاونين مع الحكومة الفرنسية، اخترقت دوريته الأسواق المكتظة العامرة بالبشر، ورائحة التوابل والأسماك تزكم الأنوف، خَيل وعربات وكثير من المعمرين الفرنسيين يتجولون هنا وهناك، خارج الأسوار العثمانية القديمة وعلى الساحل استقرت عدة مبانٍ حديثة، دار البلدية، والمسرح، ودار البريد، وقصر الحاكم، كان ذلك الجزء من المدينة أكثر تنظيمًا، ويشرف على البحر والميناء، له طابع خاص وتجمع فيه العديد من رعايا فرنسا



والدول الأوروبية، واقتصر وجود الأهالي على الأعمال الأقل شأنًا، كل يوم يَمر يَعرف ركنًا جديدًا، وجانبًا من جوانب المدينة العجيبة، جميلة وجذابة، انصهر فيها عالمان مختلفان، الجولات اليومية كانت كافية لتُزرع بداخله بذور الخيال، التي سرعان ما نبتت في رأسه بأحلام عن مستقبله بتلك المدينة، شهر مضى قضاه في دورياته برفقة الصربي، والتركي اللذين لا يكلان عن الكلام، طوال الوقت يتحادثان، ويشركانه في الحوار محدثين إياه بالفرنسية فقط حينما يريدان.

ذات نهار قرر الخروج عن طور الرتابة المعتادة، كل يوم يشبه الآخر الاستيقاظ مبكرًا.. الإفطار.. الطوابير وبعدها الانطلاق في ساعات بجولة في شوارع المدينة ثم العودة إلى المعسكر قبيل المغيب، يقضي لياليه بين الأرق وشخير التركي، ولكن في ذلك اليوم قرر الذهاب إلى الشاطئ.. بدل ملابسه واستأذن من ضابط حراسة المعسكر، سأله: إلى أين ستذهب؟

باقتضاب أجاب:

- فقط أردت التجول بحرية بعض الشيء على الشاطئ.
- حسنًا، كليمس! كن حذرا ولا تتوغل في أحياء الأهالي.



خريف الجزائر بديع ويختلف عن دوسلدروف، التلال والجبال المحيطة اكتست بلون بُني زادها شحوبًا، تستطيع أن تَشم عبير البحر وتملأ صدرك بعبق برودة تَقلب الأجواء، الشوارع المنحدرة إلى الوطاء –المدينة المنخفضة– تجعل رؤية البحر أكثر روعة، المنازل المتوازية والبنايات البيضاء تحتضنك برفقٍ وفي نهايتها ترى زرقة البحر كأنها طاقة أملٍ، والنوارس المحلقة عائدة لأعشاشها ومن فوقها سماء تخضبت بحمرة المغيب، المشهد رائع والرياح تعبث براية فرنسا المطلة على الميناء، والقصبة تطل بأبراجها الشامخة على الخليج الشاسع كحارس قائم بحماية المكان، ومن فوقها ازداد احمرار السماء، وقد اختفت الشمس عن الأنحاء، رحلت وتركت أثرها في سماء المدينة التي بدت حزينة رغم جمالها الفتَّان، جلس على رمال الشاطئ يتأمل تبدُّل ألوان البحر أمام وطأة الليل القادم من الشرق.. حدث عقله وتحاور معه، أي قدر هذا الذي ألقى به هنا بعيدًا عن بلاده، كان الرحيل عن ألمانيا قراره وكانت «سارة» ترجو بقاءه، كان وحيدًا وعليه أن يبقى كذلك، فقط كل ما أراده هو المضي قدمًا في هذه الحياة باحثًا عن الخلاص.

***



جاء الشتاء وأتى معه فوج جديد من الجنود، رأى في وجوههم تلك النظرات القلقة بشأن المستقبل، تذكَّر كيف كان حاله حين وطأت قدماه الميناء وأرض الجزائر لأول مرة، عالمه الجديد الذي أُقحم فيه.. استرجع عقله تلك الليلة التي سبقت الوصول إلى الجزائر، سهرة على سطح السفينة مع «رينيه»، كان لطيفًا ومستعدًا لفعل أي شيءٍ مقابل سَماع قصته، عَرَّف نفسه بأنه شخص ليس لديه سوى ورقة وقلم وكاميرا، عابر سبيل يُسجل لحظات يظنها مهمة ويتمنى لها الخلود، كان دائم القول أن على العالم أن يَعرف ما حدث لهؤلاء الجند الذاهبين للحرب، حياتهم وأحلامهم وتلك الهموم التي تثقل كاهلهم، لديه هواية عجيبة وهي جمع حكايات البشر، يبيعها للصحف والمجلات بأوروبا للحصول على رزقه وقدرٍ من المال يكفي لأن يفتتح صحيفة ذات يوم كما يسعى، في البدء رفض جوزيف الحديث فبادر «رينيه» بالأمر واكتفى هو بالاستماع:

- أتعرف يا كليمس لماذا أُصرُّ على الحديث معك؟ لأنك تختلف عن كل هؤلاء المتاعيس في الداخل، أستطيع أن أرى ذلك في قسمات وجهك، ربما ليس لديهم ما يبكون عليه ولا تاريخ مُشرف يفتخرون به؛ لذا انضموا للفيلق



الأجنبي مقابل المال وأحلام الثراء، وقليل منهم يَهرب من الماضي، وأظن أنك من النوع الثاني ولكنك لا تشبه أيًا منهم رغم ذلك، تتعامل بشكلٍ راقٍ بعض الشيء، ربما لأنك ألماني، أو تلقيت تعليمًا جيدًا، كنت تَعمل في منصب هام، أو لعلك تكون ابن إحدى العائلات الأرستقراطية.. كل تلك التخمينات لا تنفي السبب الهام، أنت مُثقَلٌ بالهموم وبحاجة للبوح، لا يستطيع أحدٌ أن يبقى صامتًا أبدَ الدهر، كل ذلك البؤس بداخلك قد يكون سببًا في موتك العاجل، كوحش ينمو بجوفك سينهش روحك ويقتات على أحزانك ومع الوقت سيكبر، حتى يقضم قلبك وينتهي أمرك. لك كل الحق في الصمت ولكني سأسديك نصيحة، إن كنت تريد الهرب من الماضي فعليك أن تواجهه للمرة الأخيرة، أن تتصالح مع ذاتك وتحدد ما تريد، وربما عليك أن تصفح وتعفو عمن تسببوا بكل ذلك الألم بداخلك، رغم كل هذا الهم الجاثم على وجهك وشجيرات الحزن النابتة في قلبك إلا أنني أستطيع الجزم بأنك قادرٌ على تخطي كل الصعاب والترقي، لا يليق بك هذا الحال.



- أي حال؟
- أن تكون مرتزقًا من أجل حفنة فرانكات، اُنظر حولك يا رجل، الكون شاسع للغاية وما دمت تتنفس ما زال لأحلامك بقية ويمكنك تحقيقها.
- بعض الأحلام صعبة التحقيق، وربما انتهت منذ زمن بعيد.
- أو لعلنا لم نسعَ لتحقيقها بالقدر الكافي، ولم نقاتل كفاية للحفاظ عليها، أو لم تكن غاية بالأساس ولهذا تخلينا عنها بسهولة، أستطيع أن أشتم رائحة الفقد في كلماتك القليلة يا كليمس.

شَرد جوزيف لوهلة ثم ملأ صدره بشهيق مفعم بهواء البحر:

- فقدت حبيبتي.. سجنت ظلمًا.. خسرت وظيفتي.. حاولت الانتحار وفشلت.. وماتت أمي دون أن أودعها.. تركت دياري وخذلت من يحبونني بانكساري وهربي من مواجهة الأمور. وما كان لدي من مالٍ خسرته في مقامرة، وبسبب غانية بلغارية وجدت نفسي داخل حَبسٍ ومخير بين الترحيل أو الانضمام



إلى الجيش الفرنسي، لم أعد ذلك الشخص الذي كنت عليه، تحطم شيء بداخلي ولم يعد بالإمكان إصلاحه.

مد «رينيه» إليه يده بسيجارة ووضع أخرى على شفاهه دون أن يشعلها:

- لا تجلد نفسك يا رجل.. ولا تحمل نفسك ما لا طاقة لك به، واعلم أن كل شيء قابل للتصحيح، فالموت حقيقة دامغة، لا يمكنك لوم نفسك على موت والدتك، ولعل من ظلموك سيعانون يومًا ما بشكل أو آخر، وأما حبيبتك التي فقدت فلعلها لم تقاتل من أجلك كما فعلت أنت.. وهكذا أظن، لو أرادتك حقًا لتغلبت على كل الظروف وتجاوزت جميع الصعاب، لو أحبتك كانت ستبقى رغم كل شيء.

- أتعرف يا رينيه، أنا متعب كعصفور أنهكه التحليق تحت مطر غزير، شظايا الذكرى تستنزف روحي، مسببة جُرحًا غائرًا صعب أن يندمل. وأشعر أن بداخلي حربًا لا تتوقف ولهيبًا لا ينطفئ.



إلى الجيش الفرنسي، لم أعد ذلك الشخص الذي كنت عليه، تحطم شيء بداخلي ولم يعد بالإمكان إصلاحه.

مد «رينيه» إليه يده بسيجارة ووضع أخرى على شفاهه دون أن يشعلها:

- لا تجلد نفسك يا رجل.. ولا تحمل نفسك ما لا طاقة لك به، واعلم أن كل شيء قابل للتصحيح، فالموت حقيقة دامغة، لا يمكنك لوم نفسك على موت والدتك، ولعل من ظلموك سيعانون يومًا ما بشكل أو آخر، وأما حبيبتك التي فقدت فلعلها لم تقاتل من أجلك كما فعلت أنت.. وهكذا أظن، لو أرادتك حقًا لتغلبت على كل الظروف وتجاوزت جميع الصعاب، لو أحبتك كانت ستبقى رغم كل شيء.

- أتعرف يا رينيه، أنا متعب كعصفور أنهكه التحليق تحت مطر غزير، شظايا الذكرى تستنزف روحي، مسببة جُرحًا غائرًا صعب أن يندمل. وأشعر أن بداخلي حربًا لا تتوقف ولهيبًا لا ينطفئ.

- على ذِكر الحرب، أظن أنك على دراية بأن الحرب بدأت في أوروبا والجنون صار يحكم كثيرًا من البلدان، قُتل ولي عهد النمسا وزوجته على يد أحد الشباب من منظمة اليد السوداء الصربية، التحالفات تُعقد الآن ويشحذ الجميع سكاكينه للحرب، أتعرف أن وجودك كألماني ضمن فيلق بالجيش الفرنسي يجعلك خائنًا لبلادك، في بعض الأحيان نخوض حروبًا لا نريدها ولكننا مجبرون على ذلك، كليمس.. لماذا جئت إلى هنا؟
- للموت، أفتش عنه، لعلني أستعطفه، لربما يرفق بي.

مط «رينيه» شفتيه وأخذ يبحث في جيبه عن شيء ما قائلًا:

- إجابة خاطئة.. جئت لتولد من جديد، حالما تنزل عن تلك السفينة سترى بعينيك دنيا مختلفة، عليك أن تتأقلم معها، وأن تمنح عقلك قسطًا من الراحة، أن تغفر لمن أساء لك إن كنت تحبه، وأن تتنصل وتعترف بكل حُمق ارتكبته، كن صادقًا مع نفسك ولا تحمِّلها فوق طاقتها، كليمس لا تفكر إلا في المستقبل ودع



الموت يأتي وقتما يريد.. هل معك قداحة أو ثقاب؟

- أنا لا أدخن.
- لماذا أخذت السيجارة إذًا؟!

انفجرا ضاحكين حتى دمعت عينا جوزيف، كان الرجل محقًا في كل ما قاله في ذلك اليوم، وها هو قد تأقلم رويدا مع حالته الجديدة، صار يتسامر بالساعات مع «إسماعيل» التركي، ويستمع لقصصه المضحكة، رجل بسيط جدًا انضم إلى الفيلق سعيًا وراء الرزق، أراد أن يصبح طاهيًا، ولكن لم يحالفه الحظ، ترك أراضي الدولة العثمانية المهترئة، وجاب أوروبا منبوذًا لأنه تركي، كل مساء كان يرتدي سرواله وسترته التركية بالإضافة لطربوشه الأحمر ويذهب إلى تجمعات الأهالي، الأمر الذي نهى عنه قادة الفيلق، ولكن «إسماعيل» عصى الأوامر وعوقب مرارًا، ومبرره الوحيد أنه يشتاق للحديث مع أبناء دينه والصلاة معهم.. ذات مساء وبينما كانوا يجلسون لتناول الطعام، بدا الحزن جليًا على وجه التركي الأمر الذي أثار فضول جوزيف فاقترب منه سائلًا عن السبب، تلك المرة الأولى التي يراه فيها متجهمًا هكذا، أجاب الرجل بحرقة:



- دولتنا العلية انضمت إلى الحرب وستقاتل ضد الإنجليز والفرنسيين، اختارت أن تقف إلى جانب ألمانيا.
- هل هذا ما يضايقك؟
- ما كان على السلطان خوض تلك الحرب، الدولة العثمانية ضعيفة، سيتكالبون عليها وبعدها يَفرغون إلى بعضهم ، الخبر أبهج الأهالي هنا في الجزائر ولكن الأمر مُقلِقٌ للغاية، اليوم سَبني أحد الضباط الفرنسيين ونعتني بالخائن.
- هل أنا خائنٌ يا ألِمان؟
- لماذا تقول هذا؟
- نحن نخدم جيش العدو، نحن مع فرنسا التي تحارب ألمانيا والدولة العثمانية.
- الأمر ليس كذلك يا «إسماعيل»، نحن نعمل هنا فقط وليس لنا علاقة بالحرب.
- حالما تنتقل الحرب إلى هنا سيكون علينا القتال، وسيكون لنا علاقة بها بشكل أو آخر، نحن معرَّضون للكره من الجميع، الأهالي المغصوبون على أمرهم، والفرنسيون الذين قد يشكون بولائنا فتكون نهايتنا الإعدام رميًا



بالرصاص. أما عَلمت بأمر تلك القصص عما يحدث في الجنوب بالصحراء؟

- نعم سَمعت ولم أصدق، اعتدت أن أصدق ما أراه فقط.

- هناك في الصحراء يقوم رفاقنا في هذا الفيلق بمطاردة المتمردين وقتلهم بل وقَطْع رؤوسهم، محتفظين بالرؤوس كتذكار، حكايات يشيب لها الولدان قصها عليّ الأهالي، نساء يُغتصبن، وأطفال يتم قتلهم بلا هوادة، وقرى بأكملها يسكنها الموت.

- إنهم يهولون الأمر يا «إسماعيل».

- دعك من كل هذا.. ألم تلحظ أن هناك مساجد تحولت لكنائس، ألم ترَ كيف تتم مصادرة المنازل بالقرب من باب الواد؟ ألم ترَ ما حدث منذ يومين بعينيك في ساحة القصبة، إعدام من قالوا أنهم يتسترون على المتمردين ويساعدونهم.

- نعم رأيت ذلك ولكنهم متمردون على كل حال يقتلون ويخربون و...

صاح «إسماعيل» وهو يلوح بيديه:



- أنت لا تفهم شيئًا يا ألِمان.. هل سألت نفسك على ماذا تمردوا؟ هل تَعرف كيف دخلت فرنسا للجزائر وهذه الأراضي؟؟ بسبب مَروحة.
- مروحة!!
- نَعم.. ذات يوم جاء القنصل الفرنسي لقصر الداي حسين لتقديم التهانئ بمناسبة عيد الفطر، وأثناء ذلك طالبه الداي بأن تدفع فرنسا ديونها والمقدرة بملايين الفرنكات، وكان لدى القنصل من البجاحة ما يكفي ليرد على الحاكم بشكل غير لائق، نسي أنه في حضرة الرجل صاحب الحق وداخل قصره؛ فما كان من الداي حسين إلا أن قام بتوبيخه وتعنيفه بكثير من الكلمات، ثم لوح للحرس بمروحة يده فأخذوا القنصل إلى خارج القصر، ولم يُعجب الأمر ولاة الأمر في باريس، ولم يمض كثير من الوقت حتى هبت فرنسا لاسترداد كرامتها المهدورة، هل لك أن تتخيل بأن عليهم ديونًا وبلغت بهم الوقاحة لشن حرب على من منحهم الحياة ذات يوم، لسنوات ظلت فرنسا في عزلة تامة وفي خصام مع الدول الأوروبية، ولم ينجدها سوى



الجزائر.. لم تكن الجزائر كما هي الآن، بل كانت أشد قوة وأعتى قوة بحرية في غرب البحر المتوسط، والآن صارت محتلة وأهلها مجرد هَمج متخلفين وجب عليهم الانصياع لفرنسا.

- أنت على دراية بتفاصيل التاريخ.
- من لا يَعرف تاريخه يقضي مستقبله تائهًا.
- ولماذا قَبلت بأن تكون جنديًا في الفيلق الأجنبي الفرنسي؟ إن كانت هذه هي صورتك عن فرنسا.
- وددت أن أكون طباخًا لا أكثر، أسعى خلف لقمة العيش، ولم أتخيل يومًا أن أكون جزءًا من الهول الذي يحيق بأهل تلك البلاد.
- «إسماعيل»، لا تتحدث مع أحد بمثل تلك الأمور..
- فقط أتكلم معك لأفرغ ما بصدري يا ألِمان.. ووحده الله يَعلم كيف ينجينا من هذا الهَم العظيم.

ابتسم جوزيف ونهض ليبدل ملابسه قائلًا:

- أين عبد الله، لم أره منذ يومين؟



- رحل مع فرقة المشاة الأولى إلى الجنوب، لا أعلم متى سيعود ولكن يبدو أن هناك أمرًا ما يحدث في الصحراء.

قضى جوزيف ليلته يفكر في حديث صاحبه التركي، أصابه أرقٌ كان قد ظن أنه فارقه للأبد، وكثير من الأسئلة ترددت في جنبات عقله، ماذا يَفعل هنا؟ حين جاء إلى هنا لم يُفكر بسكان تلك البلاد، فقط كان همه الهروب من وحدته والماضي الذي يلاحقه، ولكن الأمر الآن تبدل، الجميع يتحدثون عن الوحشية التي يقوم بها رفاقه في الفَيلق، قطع الرؤوس وإحراق المحاصيل ومداهمة المنازل وهدمها، اغتصاب النساء وإذلال الشيوخ، حكايات تنتشر كما النار في الهشيم ويأمل ألا تكون حقيقية.

***

شَهر مضى على غياب «عبد الله الصربي»، لا أخبارَ واردة من الفرقة، كل ما يعرفونه أنهم يخوضون قتالًا شرسًا مع المتمردين في جبل مستاوة، وإن كان الوضع هادئًا في الجزائر إلا أن حوادث الشغب تحدث بين الحينِ والآخر، الفتيان الجزائريون يرفضون التجنيد الإجباري، والسفن الفرنسية تشحن كثيرًا منهم إلى جبهتها في أوروبا، الأخبار المتواترة عن الحرب هناك



تعطي مؤشرًا بأن ألمانيا تتقدم، وصار مجرد الدفاع والحديث عن الدولة العثمانية وحلفائها خيانة عظمى تستوجب القتل، الوضع يزداد اختناقًا و «إسماعيل» التركي صار شاحبًا يتملكه الحزن، غياب صاحبه يؤثر فيه والكل يعامله بحذرٍ كما هو الحال مع كليمس ألمان.. بعد مغيب يوم ممطر جَمع «إسماعيل» ملابسه وشَرع في غسلها في أحواض الاستحمام بالثكنة، كان منشغلًا فيما يَفعل حين سَمع صوت جند البوابة يصيحون ومن بعدها دلفت شاحنات عسكرية إلى الساحة، حالة من الهَرج أتبعها خروج القائد العام من مكتبه، هَرع الجند إلى العربات وراحوا يساعدون من فيها على النزول، عَشرات الجرحى يتم إنزالهم تباعًا تحت إشراف الفرقة الطبية، وجوه مغبرة وملابس ملطخة بالدماء، وجد نفسه يسرع لمساعدة رفاقه، دون أن يَعلم ما حدث، حمل رجلًا مصابًا بطلق ناري في فخذه إلى نقالة المسعفين، وبينما كان يتابع ما يحدث ذاهلًا رآه يحاول النزول من الشاحنة، كان مصابًا في كتفه اليسرى ركض هلعًا نَحوه دافعًا مَن بطريقه، وما إن وصل إليه حتى صاح به: عبد الله.. صاحبي ظننت أني فقدتك أيها الصربي.

ابتسامة متهالكة ارتسمت على وجه عبد الله و «إسماعيل» يساعده لينزل منن العربة متابعًا:



- يبدو أنك أصعب مما كنت أتخيل.

بنبرة متألمة تحدَّث عبد الله:

- نحن الصرب نتحمل ما لا يطيقه كافة البشر.

تلقفه مساعدو الأطباء وأدخلوه إلى مبنى المشفى في الوقت الذي وصل فيه جوزيف إلى جوار التركي سائلًا:

- «إسماعيل».. ماذا هناك؟

- عاد عبد الله مصابًا.. مع عددٍ من الجند.

- إصابته خطرة؟

- إنه صلب سيتحمل، سيعالجوه ويخرجون الرصاصة منه، سيشفى سريعًا إن شاء الله.

استدار جوزيف متفحصًا الشاحنات وآثار الدماء على أبوابها، وقال:

- يبدو أن الوضع صعب في الجبال.

- هذا ما سنعرفه حين نستطيع زيارة عبد الله، ولكن الأمور لا تبشر بخير أبدًا.

- هل تظن أنهم سيقذفون بنا إلى هناك؟

- مع نقص الرجل واشتعال الحَرب في أوروبا وتعدُّد الجبهات، أظن سيأتون بالمزيد من الجند للدفع بهم إلى هنا، وحتى يأتي ذلك



المدد يا ألِمان أعتقد أنهم سيدفعون بنا إلى الجحيم.

بعد عدة أيام صار بمقدورهم مجالسة عبد الله، أصبح يخرج إلى الساحة لاستنشاق الهواء ومحاولة المشي، لم يخبرهما شيئًا عما حدث، فقط كان دائم الوجوم، يشرد كثيرًا وكلما حاولوا سؤاله عما حدث في جبل مستاوة يشحب وجهه ويتلفت حوله. يناشدهم بإرجاعه إلى عَنبر المرضى، أثار الأمر قلقهما ونضجت في رأسيهما أسئلة لا إجابة لها، إنه خائف من شيء، يَشعر بالصدمة ولا يريد الحديث، ربما هددوه أو أنه اقترف فعلًا شنيعًا يخشى أن يخبرهم به.. استمر خروجهم للدوريات اليومية وملاقاة صاحبهما الصامت عند العودة. صلاة «إسماعيل» الدائمة في غرفته جعلت شيئًا بداخل كليمس يتحرك، مضى زمن طويل منذ آخر مرة دخل فيها إلى كنيسة، ربما صلوات صاحبه المسلم جعلته يُفكر كثيرًا في أمر الرب، يتذكر الأيام الخوالي حين كان يمرّ بالقرب من كنيسة السيدة الأفريقية القريبة من باب الواد، موقعها المطل على الخليج وبناؤها البيزنطي ذو النقوش العربية جعلاها ملفتة إلا أنه لم يفكر يومًا أن يدخلها، حتى جاء اليوم الذي قرر الذهاب إلى هناك، الدعاء لوالدته وسؤال الرب عن مستقبله المبهم، كان كل ما يجول بخاطره، مرّ



بحي سوسطارة القديم وسط عيون الأهالي المتحفزة، اتخذ دربَه إلى حيث السيدة الأفريقية، مريم العذراء تقف فوق المبنى فاتحة ذراعيها مغمضة العينين وعلى رأسها تاج الملكوت، ومن خلفها قبة الكنيسة المبنية من الحجر اللامع، ظلّ واقفًا يحدق في التمثال طويلًا حتى أفاق على صوت هادئ حدَّثه بالفرنسية:

- إنها تستمع بأسى لشكوى قلبك المحاط بالأشواك.

استدار إلى محدثه ليجد قسًا كهلًا يقف على مقربة منه، ابتسم وتابع بنبرته الدافئة:

- هذه المرة الأولى التي أراك فيها أيها الجندي، من النادر أن أرى أحد رجال الفيلق الأجنبي هنا.

- كنت مارًا من هنا وحسب.

- أنت لست فرنسيًا.. أليس كذلك؟

بتوجس ردَّ:

- ألماني.

رفع القس حاجبيه الكثين مستغربًا، قبل أن تعود الابتسامة إلى وجهه مرة أخرى:

- يحزنني ما يحدث في أوروبا وتلك الحرب الغاشمة التي تحصد أرواح الشباب، لو التف



الناس حول كلمة الرب لعم السلام ربوع الأرض.. أصلي كل يوم لأرواح أولئك البسطاء الذين شردتهم الحرب، أستطيع أن أرى ما بداخلك من ألمٍ، والسبيل الوحيد لتزيح ذلك الثقل عن قلبك هو الصلاة، تعالَ معي للداخل.. تعال بُني.

تبعه جوزيف عبر الحديقة الشاسعة إلى الكنيسة، الريح تعبث بالشجيرات وأغصان الأشجار، وأمامهم كانت أبوابها الثلاثة الكبيرة مغلقة، وحده الباب الأوسط كان مفتوحًا ويحوي بابًا أصغر، دخلا إلى البهو المعبق برائحة عطور نفاذة، أعمدة رخامية مدفونة بالجدران الحجرية الكبيرة، تحيط بقاعة رحبة يتوسط عُمقها قبة رُسم عليها جدارية لمريم العذراء، تتوسط عددًا من شخصيات قصص الإنجيل، وعلى الجدران علقت ألواح عليها كتابات عربية وفرنسية وأمازيغية، سكون عجيب لا يقطعه سوى تغريد عصفور يحلّق باحثًا عن مخرج، وربما هو روحُ الرب تحلّق في سماء قبة القلب الأقدس، يتخلل ضوءُ الشمس النوافذَ الزجاجية المعشّقة بالألوان لتغمر تمثال القديس أغسطينوس، كان يتأمل المكان والقس يقول بنبرته الحنونة:



- ستجد كثير من الكتابات العربية هنا، وكذلك الأمازيغية، فالجزائريون مُرحَّب بهم دومًا، إنهم يبجلون العذراء التي ذكرت في كتابهم المقدس، أنا محظوظٌ بخدمة الرب في تلك الأرض من أفريقيا.. تستطيع أن تستشعر السلام والمحبة هنا.

قرأ جوزيف إحدى العبارات المتكررة بالفرنسية على الجدران بصوت مرتفع:

- يا سيدة أفريقيا، صلي من أجلنا ومن أجل المسلمين.

ردد القس بخشوع:

- آمين.

كانت أمي تُمجد العذراء وتصلي متوسلة لها أن تحفظني دومًا، ولكني كنت بعيدًا كل البُعد عن الكنيسة وعظات الأحد، وكم سبَّب ذلك لأمي الكثير من الحزن، لم أجد ما قد يريحها قبل أن أرحل عن بلدتي سوى أن طلبت من حفَّار القبور أن يضع فوق قبرها تمثالًا صغيرًا للعذراء.

- لعلها فخورة بك الآن، وتتباهى بفعلك في الملكوت.

- أتمنى ذلك.



- يا بُني، النساء يؤثرن في مجريات الحياة، هذه الكنيسة بُنيت بمجهودِ راهبة واحدة، حاربت من أجل أن يكون للعذراء كنيسة هنا، وها هو بيث الرَّبِّ يقبعُ فوق أكبر تلة في بوابة أفريقيا، تستطيع أن ترى الكنيسة من البحر ومن أي مكان بالمدينة، لولا أن تلك السيدة أصرت على بناء هذا المكان لظَلَّ أهل تلك البلاد تائهين، النساء هن هبة الرب وأنت ابن أمك البار، إنها تحبك وهذا ما جاء بك إلى هنا، لتتذكرها وتُصلي من أجلها.

- يبدو أنني نسيت كل الصلوات.

أومأ القس برأسه متفهمًا:

- لا عليك بُني.. سأصلي معك من أجلها، هات يدك.

بتردُّد مدَّ جوزيف يده إلى القس الذي ربت على ظهر يده مطمئنًا واستقبل المذبح مغمضًا عينيه وبدأ في الصلاة:

- يا مريم البتول الطوباوية، كيف يمكننا نحن غير المستحقين، أن نوفيك حقك بالشكر والإكرام لكونك أنقذتِ العالم الغارق بالخطيئة.



شَرد في تلك اللوحة المرسومة على الجدار، مريم العذراء تحتضن ابنها الرضيع، تذكّر أمه وكيف كانت تدلله في الصغر، أصناف الطعام التي كانت تعدها خصيصًا وِفق طلبه، تذكّر «ماجدولين» ورحيلها عنه دون وداعٍ، الظلم الذي عانى منه، وأيام سجنه، محاولة الانتحار.. قبر أمه، وتلك الحشائش والزهور النابتة حول الشاهد الرخامي، حروف اسمها المنحوتة، وصورة العذراء. الحياة مستمرة وتمضي دون توقف، لا بأس أن يتخلى عنك أقرب الناس، ولا ضير من أن تنزف وحيدًا بعيدًا عن شواطئ عمرتها ذات يوم بالأوهام الوردية، أن تمضي في دربٍ مُوحِشٍ وقد فارقَتْكَ الأماني وتبخَّرَت الوعود، كُلُّ هذا قد يكون هيِّنًا على مَن يحمل في قلبه كثيرًا من الندوب، كان يأمل دومًا بنهاية سعيدة ولم يحصد إلا أشوك الورود، لم يكن مؤمنًا ذاتَ يومٍ وكل ما يذكره هو سفر التكوين وقصة يوسف.. كيف أصبح بغدرٍ من إخوته؟ وكيف أمسى سجينًا، وجوه كثيرة مرت بعقله الشارد في غابات الذكرى.

ضغط القس على يده فاستدرك صوت الرجل يكمل صلاته:

- اقبلي امتناننا، -اقبلي امتناننا، واستمدي لنا بصلواتك الصفح عن خطايانا، احملي صلواتنا



إلى قدس السماء، واجعليها قادرة على منحنا السلام مع الله. ساعدي البائسين، قوّي مثبَطي الهمّة، واسي المحزونين، صلّي لأجل شعبك، وليشعر الآن كلُّ مَنْ يعظّمك بمعونتك وحمايتك، كوني مستعدةً لمعونتنا حين نصلّي، وأحضِري إلينا الجواب لصلواتنا، لأنّ الله باركك وجعلك مستحقة لأن تحملي مخلّص العالم، الذي يحيا ويملك للأبد.. آمين.

- آمين.

******

ليلة ممطرة أتبعها شروق لشمس ذابلة لا وهج لها ولا دفء، تراص الجند بطابور الصباح أمام القائد العام للمعسكر، انتظر حتى اكتملت الصفوف وشرع في السير بينهم، ظلّ يدور ناظرًا في وجوه رجاله بتمعُّن قبل أن يعود ليقف أمامهم عاقدًا ذراعيه أمام صدره قائلًا:

- يبدو أن وقت دورياتكم في هذه المدينة انتهى، وحان الآن خوض الحرب كبقية زملائكم في الفيلق، المتمردون قطعوا خطوط الإمداد حول جبل مستاوة، وعلينا استعادة تلك النقاط التي فقدناها خلال الشهور



الماضية، سيتم إلحاق بعضكم بسلاح المدفعية، والبقية سيمثلون نواة الهجوم على بؤر المجرمين، أثق أنكم قادرون على خوض تلك المعركة بل والانتصار فيها، الانتقام لزملائكم أمرٌ واجبٌ؛ فكل منكم لديه رفيق مصاب أو مفقود.. أو ميت، اليوم والغد لديكم راحة فليذهب كل منكم وليفعل ما يريد ومع صباح بعد الغد سنتوجه إلى الحرب.. استمتعوا بعطلتكم اليوم وغدًا، واستعدوا لما هو آتٍ.

انفضَّ الجند عائدين كل إلى ثكنته وظلَّ «إسماعيل» جامدًا مكانه، كان ملفتًا للأنظار، وهو يحملق في الخواء شاردًا، الأمر الذي جعل جوزيف يتجه نحوه ويجذبه من ذراعه قائلًا بخفوت:

- ماذا بك أيها التركي؟!
- سيرسلوننا لنقتل الأبرياء.

تلفت جوزيف حوله حتى يتأكد من عدم سماع أحد لما قاله صاحبه:

- «إسماعيل»، ماذا تقول؟
- لقد قص عليَّ «عبد الله الصربي» كل شيء، إما أن تقتل أو تُقتَل.



- هذه هي الحرب يا رجل، ولقد وافقنا على خوضِ تلك الحياة بملء إرادتنا، وقّعنا عقودًا لخمس سنوات من الخدمة لذلك الفيلق ولن نستطيع التملص من الأمر الآن.
- أنت لا تفهم يا أَلِمان.. لن أقتل أحدًا.
- هيّا اِمشِ معي إلى غرفتنا ولنناقش الأمر هناك.

داخل الغرفة صَبَّ جوزيف كأسَ ماءٍ لصاحبه الخائف، شَرب «إسماعيل»، ثم أخذ يحدق في الكأس الحديدي الفارغ وقال:

- لقد كان عبد الله محقًّا، ما كان علينا الانضمام إلى فيلق الموت هذا لنحارب أبناء ديننا، كنت أظن أن الأمر سيقتصر على الطبخ أو الدوريات وحفظ الأمن، ولكن ما قاله الصربي وقصّه على مسامعي يشيب له الولدان، بإلحاحٍ شديدٍ مني نطق وتحدث، أخبرني أن إصابته كانت من الضابط جان وليس المتمردين، لقد قتل الضابط عددًا من رفاقنا الذين رفضوا تنفيذ الأوامر بقتل أهل قرية صغيرة قرب جبل مسناوة، واكتفى بإصابة عبد الله على أمل أن ينزف حتى الموت، أراد



أن يبقيه حيًا ليشاهد المذبحة، ولكن الثوار هجموا على المكان في الوقت المناسب.

- ثوار؟!

- نعم إنهم ثوار وليسوا متمردين يا ألِمان، ثاروا على الظلم والقسوة المفرطة، الناس هنا لا يقبلون بالتجنيد الإجباري لأبنائهم والدفع بهم في جبهات قتال باردة بأوروبا، حرب لا دخل لهم فيها.

- ولماذا تركوا عبد الله وبقية الرجال يعودون كل تلك المسافة دون قتلهم؟

- لقد قاوم رفاقنا وصدوا الهجوم ونجحوا في الفرار عائدين إلى هنا.

هز جوزيف رأسه مبتسمًا:

- إذًا عبد الله حمل بندقيته وهو مصابٌ وقاتل هؤلاء المتمردين.. أقصد الثوار.. أليس كذلك؟

- نعم.

- وهي الحرب كما قلت أنت، إما أن تقتل أو تُقتل، حاول أن تريح عقلك يا «إسماعيل»، ولا تحاول ارتكاب أي حماقة بالفعل أو القول، إن عبد الله قاتلَ من أجل حياته أناسًا رفض أن يقتلهم، ولكن إن كانت لهم الغلبة فربما كان



عبد الله ملقى بالصحراء تقتات النسور والضباع على جيفته.. فكر جيدًا وقبل أن تقرر شيئًا عليك أن تفكر بحياتك.. سأخرج إلى المدينة بعد قليل.. إن وددت الذهاب معي في جولة.

- إلى أين ستذهب؟
- إلى حيث يمضي بي القدر.

خرجا إلى المدينة بعد أن بدّلا ملابسهما، ارتدى جوزيف بنطالًا أسود وقميصًا أبيض وبالإضافة لسترة رمادية اعتمر قبعة عصرية سوداء من الصوف الإنجليزي، بينما اكتفى «إسماعيل» بزيٍّ تقليدي دون الطربوش الذي سبّب له كثير من المتاعب في الأيام الماضية، تجولا في الطرقات متخذين طريقهم إلى الوطاء، كان «إسماعيل» يثرثر بقصص طريفة عن النساء الفرنسيات، لسن من نوعه المفضل نحيفات جلد على عظم» بينما كان يتغزل في مفاتن المكتنزات «الناضجات كتفاحات الجنة»، ظل يتحدث وجوزيف يستمع إليه حتى رآه؛ «رينيه» كان يدلف إلى مقهى يطل على قارعة الطريق، فما كان منه إلا أن حث الخطى محدثًا صاحبه:

- «إسماعيل».. تعال معي.



تبعه التركي باستغراب دون أن ينطق، وعلى باب المقهى وقفا وعينا صاحبه تجولان في أرجاء المكان، سأله:

- أِلمان هل تبحث عن أحد؟

- إنه هناك، تعال.

بالقرب من المَشرب جَلس «رينيه» يطالع عدة أوراق، ما إن رآه «إسماعيل» حتى تذكره، فهمس وهو يتبع صاحبه:

- أو ليس هذا هو الصحفي الفرنسي؟!

ابتسامة عريضة ارتسمت على وجه «رينيه»، نهض مصافحًا جوزيف بحرارة وعيناه تتفحصان «إسماعيل»، الذي داعب شاربه الكث ليظهر انفراج شفتيه، بعد تبادل التحيات دعاهما للجلوس وأشار للنادل فجاء مهرولًا و «رينيه» يسألهما:

- ماذا تشربان؟

أجاب جوزيف بدماثة:

- عصير البرتقال سيكون مناسبًا.

ضحك «رينيه»:

- يبدو أن مصاحبتك للأتراك جعلتك تُقلِع عن الخمر.

عقد «إسماعيل» حاجبيه وقال بصوته الأجش:



- ماذا بهم الأتراك؟

لوح «رينيه» بيده، وأمال رأسه إلى الأمام قليلًا، وقال:

- لا شيء أنا أحب كل الناس.. إنها مجرد مزحة يا صاح.

رفع بصره إلى النادل المتململ أمامهم، وأردف:

- أعطِنا كأسين من عصير البرتقال، وقد طلبت مسبقًا نبيذًا ولم يأتِ حتى الآن.

ردَّ النادل الفرنسي برتابة:

- على الفور يا سيدي.

لحظات صمت مرت عليهم قبل أن يقطعها جوزيف:

- مرّ وقت منذ تقابلنا آخر مرة، كيف سارت الأمور معك؟

حك «رينيه» رأسه، ثم ابتسم وهو يقول:

- أعيش أيامًا رائعة، أطارد القصص، كثير منها يحدث هذه الأيام، والجزائر مليئة بالحكايات المثيرة.. ماذا عنكما؟

بنبرة هادئة أجاب جوزيف:

- لا جديدَ تحت الشمس، بين التدريب والدوريات ودروس تعلُّم العربية، وبعد الغد



سنرحل إلى مكانٍ غير معلوم لمطاردة المتمردين.

حل النادل في تلك اللحظة، فتوقف الحديث بينما تُوضَع الكؤوس على الطاولة، وما إن أولاهم ظهره ومضى قال «رينيه»:

- يبدو أن أيام الهناء والراحة انتهت، الحرب مستعرة على كافة الجبهات، الإسبان يتعرضون لهجمات متعددة في شمال المغرب والفرنسيون مشتتون بين صحراء الجزائر والمغرب وعدة جبهات في أوروبا، والأسطول البريطاني يبحر نحو الشرق، الجنون أصاب العالم.

قاطعه «إسماعيل»:

- وماذا عن الجانب الآخر؟؟
- أي جانب؟!
- الدولة العثمانية وألمانيا وحلفاؤهم.

ارتشف القليل من كأسه، ومطّ شفتيه قبل أن يجيب على التركي:

- يخوضون غمار حرب شرسة من أجل البقاء، أجزم أن بعد تلك الحرب اللعينة سيتغير شكل العالم عما نعرفه الآن.



أومأ جوزيف برأسه موافقًا:

- وهذه قصة تثير شغفك بالتأكيد، أن تؤرخ لتلك الأحداث.

- أتمنى ذلك يا كليمس.. سأرحل في الفجر متعقبًا أثر قصة آمل أن تستحق المخاطرة.

- إلى أين؟!

لم يجبه «رينيه» الذي ابتسم، وهو يلوح لشخص ما خلفهما، حركته المباغتة أثارت الفضول داخلهما ولكن من استدار كان «إسماعيل»، جال ببصره في المقهى العامر ولم يحدد أي شخص و «رينيه» يقول:

- معذرة.. هناك ضيف سينضم إلينا إن لم تمانعا.

في تلك الأثناء كان يتقدم نحوهم الرجل المنشود، انزاح الرجال جانبًا ليعبر ذلك الشاب الطويل ذو الملبس التقليدي الأنيق، والعمامة البيضاء متقنة اللف، لحية نامية ومشذبة وابتسامة راقية كان الجميع يعرفونه، يلقون عليه التحية بينما يسير نحو مجلسهم، نهض «رينيه» ليصافحه مقدمًا إياه لصاحبيه المتفحصين إياه:

- هذا السيد حدو بن حمو البيقوي.

ضحك الشاب المغربى وقال بفرنسية سليمة تمامًا:



- حدو الأكحل وكفى يا صاحبي.

مدّ يده مصافحًا إياهما وهو يردف:

- سعدت بلقائكما.

ردّ «رينيه» بسرعة:

- إنهما صديقاي؛ جوزيف كليمس و «إسماعيل» التركي، من الفيلق الأجنبي.

بهتت ابتسامة الأكحل وتبددت، تبادل النظرات مع «رينيه» ثم قال بالعربية محدثًا إياه:

- هل تثق بهما؟

أجاب «رينيه» بعربيته الركيكة وهو يشير له بالجلوس:

- لا تقلق، فلا علاقة لهما بما حدث في مستاوة.

- ولكنهما من رجال الفيلق الأجنبي الذين قاموا بعدة مجازر هنا في الجزائر.

قاطع كليمس حديثهما قائلًا بالفرنسية:

- هل هناك شيء ما؟

هز «رينيه» رأسه نفيًا وقال الأكحل بينما يَجلس بجواره:

- فرنسيتك ليست جيدة سيد كليمس.

- أنا ألماني.



بهت الأكحل واعتدل في كرسيه، مما جعل «رينيه» يتدخل قائلًا:

- الرجلان من دورية الأمن في المدينة، يقتصر دورهما على حفظ الأمن هنا في أزقة الجزائر.. بالمناسبة يا كليمس السيد بن حدو هو دليلي في القصة الجديدة التي أخبرتك عنها، ورغم أنه يَملك مقهى على ساحل بورساي قرب تلمسان إلا أنه يحب المغامرة.

ابتسم حدو الأكحل وقال بنبرة يشوبها الغرور:

- فقط أهوى قصص القراصنة.

ربت «رينيه» على كتفه قائلًا:

- كفاك تواضعًا يا رجل، لقد سمعت تلك القصص عن أنك تقطع المسافة من تلمسان إلى وجدة والريف وحتى تطوان على صهوة جوادك وحدك.

- هذا قبل أن أتدرب على الطيران في معسكرات الجيش الفرنسي.

- طيران.

نطق بها «إسماعيل» و «جوزيف» في ذات الوقت، فاستطرد الأكحل:



- نعم أستطيع قيادة الطائرات ويومًا ما سأشتري طائرة وأحلّق بها في سماء المغرب الكبير.
- وهل سنذهب إلى الريف بطائرة؟
- رينيه هل أنت أصم؟ قلت لك يومًا ما سأشتري طائرة وحتى ذلك الحين سنمتطي الخيل وربما البغال في بعض المناطق.. وسنمشي سيرًا على الأقدام لأميال في الجبال الموحشة حيث ترعى أسود الأطلس المفترسة.
- حدو هل تخيفني؟

ضحك حدو ولوح بيده:

- لا يا صاحبي ولكن أخبرك بالحقيقة، سنتخذ أكثر الدروب وعورة وقسوة، أحببت أن أخبرك ذلك أمام صديقيك حتى لا تعود باكيًا إليهما.

رمقه رينيه بنظرة لائمة وقال محدثًا إسماعيل وجوزيف:

- ربما تستغربان الأمر ولكن للرجل علاقات جمة مع قادة الجيش الفرنسي هنا في الجزائر والمغرب، يتحدث الإسبانية والفرنسية والعربية والأمازيغية.



رفع الأكحل رأسه وشدّ قامته وبزهو فتح ذراعيه:

- إذًا هل لديكم عروس لي؟!

انفجروا ضحكًا من قوله، كان مرحًا، لا يشوب حديثه مللٌ أو نصب، ورغم حوارهم الطويل معه إلا أنه كان غامضًا بعض الشيء، ثرثر على مسامعهم ببعض ما يحدث في منطقة الحماية الإسبانية شمال المغرب، بدا أنه يهول من قوة المتمردين الذين أسماهم همسًا «المقاومة» تلك التي تزعمها محمد أمزيان الذي اغتيل منذ عامين بالريف، وأسد جبالة -الريسوني- الذي يسعى رينيه لمقابلته والحصول على حوارٍ حصريٍّ مع ذلك الزعيم الشهير؛ بطلٌ يقاوم الفرنسيين ويخشاه الإسبان، كان من الواضح في حديثه أن الوضع في المغرب يختلف عن الجزائر، وأن الإسبان أكثر وحشية رغم ما يظهر عليهم من تسامح، ورغم ذلك يعرف الشريف الريسوني كيف يتعامل مع هؤلاء وهؤلاء بدهاء يفوق أي قائد عسكري، وحين سألوه عن رأيه فيما يحدث، أخبرهم أنه يحب المغامرة وأينما تكن مصلحة بلاده سيكون متواجدًا.

أخبرهم أن العداء مع الإسبان يعود لأيام طرد الأندلسيين من ديارهم بالضفة الأخرى، لهذا جاءت إسبانيا لتكمل مهمتها ووصية جدتهم إيزابيلا، أهل



الريف يتذكرون وسيقاومون ولن يرضوا بأن يكون لهم نفس مصير الموريسكيين ذات يومٍ، أما الفرنسيون فهم شيء آخر ليسوا بهذا السوء على الأقل في المغرب، ربما لأنه لم يذهب لمناطق نفوذهم يومًا ولكنه تعلّم على أيديهم الكثير من الأمور، وهو ممتن لذلك، بدا أنه تتردد أو يُظهِر عكس ما يبطن، في نهاية الجلسة منحهما «رينيه» عنوان مقهى الأكحل وتمنى أن يراسلاه ويستمر التواصل بينهم، وافترقوا على أمل اللقاء من جديد في مكانٍ آخر، وخلال الطريق إلى معسكرهما تبادل «إسماعيل» و «جوزيف» أطراف الحديث عن ذلك المغربي الغريب، ظلّ عالقًا برأسه – جوزيف- طوال تلك الليلة، رأى كثيرًا من الأهالي يتعاونون مع الجيش الفرنسي، ولكن هذا الرجل لم يكن مثلهم أبدًا، يخفي كثيرًا من الأشياء خلف تلك الابتسامة والزي الأنيق.

****

بسطت الشمس ضياءها على أرض المعسكر، صباح رائق رغم الحركة المستمرة في أرجاء المكان، تجمع الجند استعدادًا للرحيل، تراصوا ووضع كل واحد منهم حقيبته أمامه وعلقت البنادق على الظهور، بدأت الشاحنات والعربات في التوافد تباعًا، وتبدلت الأجواء



بالغبار وأصوات المحركات ووقع أقدام الجند، الضباط يحصون السرايا وعلى رأسِ كُلِّ طابورٍ عريف ينادي بأسماء الذاهبين للمعركة، الرفاق يودعون بعضهم بعضًا، متمنين أن تسير الأمور على خير حالٍ، حركة لا تتوقف بساحة المعسكر وعَلم فرنسا يخفق فوق مبنى القيادة العتيق، نزل الدرج أحد الجند كان يتحرك بخطوات واسعة باتجاه القائد العام للفيلق، وقف أمامه مؤديًا التحية العسكرية قبل أن يرفع يده اليسرى بورقة قائلًا:

- سيدي، وصلت تلك البرقية من القيادة العامة.

أخذها الكولونيل ذو الشارب المنمق، وأشار إلى الجندي بالانصراف، وأخذ يتطلع إلى ما كُتب فيها بصمت، ظلَّ شاردًا لبضع لحظات، وهو يتأمل الساحة، ووجوه رجاله، والعربات المغادرة للمكان؛ ثم دسّ الورقة بجيب سترته وتحرك بآلية تامة نحو أحد ضباطه، ما إن رآه الأخير حتى انتفض منتبهًا فحدَثه الكولونيل باقتضابٍ:

- لاريونيون... أعطِ الأوامر لسريتين من رجالك بالذهاب إلى الميناء.

- سيدي، ألم يكن من المفترض أن تذهب كل السرايا إلى مستاوة وأحوازها؟



- جاءتنا تعليمات جديدة تقتضي بأن نُبقي بعض الرجال لمهمة أخرى، سيكون عليك تأمين الميناء وإفراغه من الأهالي والمدنيين والأجانب، أقيموا الحواجز وتأكدوا من الهويات والتصاريح حتى أبلغك بالأوامر الجديدة.
- أوامرك سيدي.

ألقى لارينيون التحية وبدأ في تنفيذ الأمر، توجه إلى الطوابير وتوقف أمام آخر سريتين من الفيلق متفحصًا وجوه رجاله مشيرًا للعريف الذي قال بصوت جهوري:

- انتباه.

دقت كعوب الأحذية الأرض بقوة وشدت الأجساد ورفعت الرؤوس، بينما سار لاريونيون بين الصفوف قائلًا:

- يبدو أنكم أكثر حظًا من زملائكم، لن تذهبوا إلى المعركة هذا اليوم.

بدت السعادة على محيا الرجال وهو يستطرد:

- ستذهبون إلى الميناء وسيشرف قادة السرايا على توزيع المهام عليكم.

بين الصفوف كان «إسماعيل» يهمس إلى جوزيف:



- ما الذي يحدث يا ألِمان؟
- لا أعرف، ولكن عليك أن تبتهج.
- لماذا أبتهج؟ لربما سيرسلوننا إلى أوروبا لنحارب في الصقيع هناك.
- لا تستعجل أيها التركي، سنعرف كل شيء حالما نصل إلى الميناء، نحن لسنا سوى بيادق على رقعة اللعب.

لم يمر كثير من الوقت حتى كانت السريتان تمران بين المنازل، عبروا الأزقة محدثين جلبة بوقع أقدامهم، أطلت النسوة من خلف النوافذ واختفى الأطفال من الحارات، والرجال يتساءلون فيما بينهم عما يحدث، جمع غفير من الجند يمر بانتظام متخذًا طريقه إلى الوطاء، العيون الجامدة للأهالي تفيض بالحنق وقلة الحيلة، كذلك حال جند الفيلق، جلهم لا يبالون إلا بتنفيذ الأوامر دون تذمر، وحده «إسماعيل» التركي كان يثير تلك الأسئلة بداخل جوزيف، الذي كان يسأل نفسه ما الذي سيفعلونه في الميناء؛ هل التركي محق وسيرحلونهم إلى جبهات القتال في أوروبا؟ هل سيعود ليحارب أبناء بلده؟.. خُيل إليه الطائرات وهي تقصف دوسلدروف، والشوارع الراقية الممهدة بالبازلت الأسود صارت مرتعًا لجند الفيلق الأجنبي، وراية فرنسا ترفرف



فوق قصر البلدية، ونهر الراين الحزين يتدفق جنوبًا بماء أحمر قانٍ، والجثث طافية، تتزاحم عند مجمع النهرين، هل سيقاوم بائع الشطائر العجوز؟ هل ستكون «سارة» في المشفى تعالج الجرحى، أم ستكون أسيرة لدى مجموعة من أفارقة الفيلق؟!

مَنزله سينهب وصورة أمه ستهشم وتدهس تحت أقدام رفاقه من الفيلق الأجنبي.. أهذا ما سيحدث حقًا؟ الحرب مريرة وقاسية.. وإن فكر في التراجع سيكون عقابه الموت رميًا بالرصاص.



٤

ملاك الرب

المغرب – مكناس ١٩١٦م

بسط جناحيه وترك جسده ينساب في الهواء، يحلق بزهو فوق مدينته العتيقة ومن فوقه شمس الصبيحة الدافئة، سنوات مرت منذ فتح عينيه بأحد الجحور ببرج القصبة، فرخ صغير تطعمه أمه ما تبقَّى من صيدها، كبر وسقط الزغب رويدًا عن جسده واستبدله بريش بُني أرقط ناعم الملمس، استعجل الطيران قبل الأوان وكاد أن يَسقط ميتًا على الصخور لولا أن تداركته أمه، مرت الأيام وخفق بأجنحته مرة أخرى ورأى مكناس التي طالما شاهدها من العُش، الآن يطير فوقها ممتلكًا سماءها، تفر العصافير والحمائم لرؤية ظلّه، وطير اللقلق يغادر أعشاشه فوق المأذنة فزِعًا من رؤية ظله المحلّق فوق المدينة العظيمة... فاقت مدائن كسرى وعمائر الروم بهاءً، قصور ضخمة وحدائق غنّاء وأسوار متينة مسها الزمن وترك بصمتَهُ على جدرانها، والنخيل المتناثر في رحابها كان شاهدًا على تاريخها التليد، درة المغرب وفخر العمارة، دار السفراء والوفود، دروبها ظليلة وشوارعها مكتظة



بالبشر شاحنات الجيش الفرنسي تشق الطريق إلى مبتغاها، القصبة حيث توقفت وبدأ فوج من الجند ينزل عنها، وطأت قدَمَا جوزيف الأرض بعد رحلة مرهقة قطعها مع رفاقه بالفيلق، قدموا من الجزائر عبر طرق وممرات جبلية صعبة، رحلة دامت لأسابيع وبين السير على الأقدام وركوب الخيل والشاحنات وصلوا أخيرًا إلى مستقرهم الجديد، سَلبت عمائر المدينة وبيوتها العتيقة عقلَه، لم تكن مثل أي بلدة رآها خلال رحلته العجيبة تلك، رائحة التوابل نفّاذة والهواء يتلاعب بالأقمشة المعلقة على أبواب المحال، وجوه أهل المدينة القاسية وعيونهم لا تستسغهم، يستطيع الإحساس بذلك.. الفيلق الأجنبي سمعته تسبقه وهذا يضعهم في موقف سيءٍ، كان يسير بين زملائه حين ربت «إسماعيل» على ظهره قائلًا:

- إلمان ألست متشوقًا لرؤية المدينة والتجول بأزقتها وتذوُّق أكلاتها.

اكتفى بالابتسام وهو يشاهد الحماسة تفيض من عيني صاحبه التركي، لم يكن حاله هكذا منذ عامٍ ونصف..

في ذلك الصباح الذي ذهبوا فيه إلى ميناء الجزائر بدلًا من ذهابهم لمقاتلة المتمردين في مستاوة، تمركزت



فرقتهم بالمرفأ وأقاموا الحواجز ومنعوا دخول الأهالي، وسيرت دوريات مشددة حول المكان، لم يكن أحدٌ يعلم ما سيحدث في الساعات القادمة، وكانت ليلة باردة لعبت فيها الرياح برؤوسهم، لا يعرفون ما القادم، خبر غريب تسرب إلى مسامعهم أن هناك سفينة قادمة، ربما تلك التي ستأخذهم إلى فرنسا ومنها إلى جبهة القتال ضد ألمانيا، مرّ الوقت ببطء بينما يحاولون النجاة من مستنقع الأفكار والخيالات الكئيبة، ومع شروق الشمس برزت في الأفق بارجة ضخمة يرافقها ثلاثة قوارب حربية، كانت أعظم ما رأوا في حياتهم، شعروا بالضآلة إلى جوارها، بينما تدلف بروية إلى الخليج حيث الميناء، رست السفينة وبدأت الرافعات في العمل، نهارٌ كاملٌ من العمل الشاق والحذر، قطع مدفعية حديثة ذات أجزاءٍ كبيرة، صناديق ذخيرة وقذائف ضخمة تتناسب مع حجم الفوهات، كانت هذه مهمتهم إذًا في ذلك اليوم.. على مدار أيامٍ تمَّ نقل المدافع إلى مناطق أُعدّت خصيصًا لها خارج أسوار المدينة، الأمر الذي أثار الرعب في نفوس الأهالي، فرنسا تؤمّن مستعمراتها وتستعد لحرب ضروس.. كان من حسن حظهما أن تم اختيارهما برفقة «عبد الله الصربي» ليتدربوا على المدفعية، أشهر من التدريب والمناورات أصبح سلاح المدفعية الخاص بالفيلق



الأجنبي جاهزًا لدخول أي معركة، ولكن المعارك لم تأتِ إليهم أبدًا وهو ما جعل «إسماعيل» يبتهج ويشعر بحب الحياة الجديدة التي مُنحت لهم، فهم في الواقع لا يفعلون أي شيء سوى تنظيف المدافع والاستلقاء بقية اليوم في الخيام، إلى أن جاء اليوم المنشود الذي أُختِيرَت فيه فرقتهم للذهاب إلى مكناس.

في مكناس اعترتهم نشوة اكتشاف خبايا المدينة العتيقة، جوزيف كعادته يحب التجول بالأزقة والأسواق، صار يحب التواجد بساحة الهديم قرب باب المنصور أعظم أبواب القصبة، ولطالما دلف إلى حي الملاح حيث يسكن اليهود، ابتعد عن المنطقة التجارية حمرية والتي تكتظ بالفرنسيين، بساطة المدينة وأزياء أهلها التقليدية أثارا شغفه، أما «إسماعيل» كان كل همه منصبًا على الأكلات والتوابل والتعرف على كيفية صنع الطجين بأنواعه، ولم يشاركهم «عبد الله الصربي» تلك الاهتمامات ظلّ قابعًا في المعسكر لا يخرج إلا نادرًا، وقد ساعدتهم لغتهم العربية الركيكة في التعامل مع السكان ولو قليلًا، وكان للغة الفضل في تيسيير أمور حياتهم إذ أن هناك الكثير ممن يتحدثون الأمازيغية، مع قدوم الشتاء صار على كليمس أن يخرج لدوريات مراقبة كل ليلة حول الأسوار، أسابيع مرت حتى اعتاد الأمر، التجول ليلًا في الشوارع الخاوية



حتى مطلع الفجر أمرٌ يُشعره بسكون الكون، إنه يحب نفسه الآن أكثر بحبه للأرض، أصبح إحساسه مختلفًا، تذوقه مختلف، نظرته مختلفة يرى الحياة الآن من منظور مختلف ويعي قدرها؛ إنه رجل كان يبدي مقاومة لزمانه كله لكنه الآن هو متصالح مع الزمن مستسلم للأقدار، برغم أنه ما زال لا يعرف إلى أين ستبحر به الأيام، المستقبل بالنسبة له كان رحلة جديدة لأرضٍ بعيدة يتوق لاكتشاف تفاصيل أهلها وعادات المجتمعات التي صار شغوفًا بها لا شك من أنه لم يتوقع أن تكون الغربة هي منقذه وهو الذي عانى طويلًا من الاغتراب آنئذ فقط أصبح قويًا وقادرًا لأنه أصبح مستعدًا لكل المفاجآت والأهم للخسارة، حتى حدث ما حدث في تلك الساعة من ليل يوم الخميس، كان يقوم بدوريته المعتادة قرب المعسكر، ليلة لم يُولَد هلالها والظلام كان يفترش كل شيء، فقط عدة مشاعل بعيدة تؤنس وحشة الليل البهيم، كان جالسًا يطالع السماء المزينة بآلاف من مصابيح النجوم حين سمع حثيث خطوات قريبة، نهض مرهفًا السمع وأخذ يسير بحذرٍ ويتوقف، يكمل المشي على أطراف أصابعه، ومن عطفة أحد الدروب رأى وهجًا، استتر بالجدار وتلصص على المكان فوجد شخصًا يسير بهدوء حاملًا قنديلًا، يرفل في جلابة بيضاء ذات صُفرة



بفعل الضوء بأكمام واسعه وغطاء رأس يخفي ملامحه، وقع قدميه رتيب بطيء أثار بداخله القلق، نادى بالفرنسية:

- أنت.. توقف.

لم يتلق سوى الصمت إجابة لطلبه، وكأن ذلك الشخص مصاب بالصمم، مرة أخرى قال بنبرة حازمة:

- توقف يا هذا.

بالفعل توقف الرجل، ريح تعبث بالأتربة في أركان المكان، والسكون جثم فوق الجدران ليشاهد ما يحدث، لحظات مرت وكلاهما جامدٌ في مكانه بتلك الزنقة الضيقة، تحرك جوزيف بحذرٍ مقتربًا منه قائلًا بالفرنسية:

- استدر.. وعرف عن نفسك.

مرة أخرى تلقى الصمت جوابًا، ولم يلتفت الرجل الغامض، كرَّر جوزيف حديثه بالعربية وعندها استدار الرجل، كان طويل القامة ذا لحية بيضاء قصيرة منحَتْهُ هيبة ووقار، يعتمر عمامة بيضاء تحت سلهام جلابته وعيناه تفيضان بشيء عجيب يبعث الرهبة في النفس، وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة رطيبة تسربت إلى صوته الهادئ وهو يقول:

- أنا عبدٌ من عباد الله يا ألِمان.



سرت رجفة بجسد جوزيف، وشعر بأن قبضة باردة تعتصر فؤاده، الهواء صار باردًا فجأة وعقله تملكت منه قشعريرة غريبة، ووجد لسانه يحدث الرجل:

- كَيف عرفت لقبي هذا؟؟ مَن أنت بحق الرب؟!
- كل شيء مكتوب في اللوح، وما كُتب ستراه.

رفع جوزيف بندقيته أمام الرجل بيدٍ مرتجفة:

- لا أفهمك، تحدث بالفرنسية.

أجاب الغريب بالعربية:

- سيأتي وقت وتفهم فيه كل شيء يا ألِمان، كل ما قُدّر سيكون، فقط عليك أن تؤمن بذاتك وأن تختار أن يكون لك أثر على هذه الأرض أو تُنسى كما هو حال مَن عاشوا تائهين لا يعرفون مبتغاهم من الحياة.

مع آخر حروفه سقط القنديل من يده، ارتطم بالأرض متهشمًا مُصدِرًا موجة من وهج أبيض أغشى عينيّ جوزيف ودفعه ليسقط أرضًا.. تساقطت الأمطار لتغسل وجهه وروحه، أفاق فزعًا شاهقًا بأنفاسٍ متسارعة، دار في المكان بعينيه بحثًا عن الرجل فتيبس من هول ما رأى، تبدل المكان تمامًا لم يكن هو ذاته.. كيف أتى إلى هنا؟ إنه كان جالسًا على الأرض المبللة في ذلك الزقاق الذي تبدلت فيه مجريات حياته،



إلى جانبه كان الغاصب الصريع ملقى أرضًا وما زال جُرح رأسه ينزف، فرك مقلتيه ونهض متحسسًا جسده، شيءٌ عجيب يحدث.. ما زال يرتدي ملابس الفيلق الأجنبي، الشعار وعلم فرنسا يزينان صدره، لا أثر لـ «سارة» ووميض البرق يضيء السماء.. كان يرتعش وتلك البرودة تنخر أوصاله، وعلى مدخل الشارع الضيق كان يقف المغربي الغريب، أضاء البرق المكان مرة أخرى والرجل يقول بالعربية:

- كل ما حدث لسببٍ.. وما صَنعت يا ألِمان إلا لغاية.

تزامن الصوت مع هزيم الرعد، وظهرت أمه عن يمينه، تحيطها هالة من نور أبيض تبتسم له في حنان تحدِّثه بصوتها الهادئ الذي افتقده:

- جوزيف..

انتحب وهو يحدق بوجهها:

- اشتقت إليك يا أمي.

- سيكون كل شيء بخير يا بُني.

أنهت جملتها ومدت يدها لتضعها على كتفه بلطفٍ.. أصابه زلزالٌ بغتة، تحولت طبطبتها إلى وكزات وصوت أجش يحدثه:

- ألِمان.. هل أنت بخير؟ استيقظ يا رجل.



فتح عينيه بتثاقل، كل شيء مشوّش، تدريجيًا بدأت الأمور تتضح ووجه «إسماعيل» يتجلى أمامه، كان جزعًا يتفحصه بقلق مستطرد:

- أيمان.. حمد لله على سلامتك، ما الذي حدثَ يا رجل؟

ساعده على الجلوس وجوزيف يدير رأسه في أرجاء المكان دون أن يجيبه، كان هناك عددٌ من رفاقه بالفيلق ينتشرون في المكان و «إسماعيل» يردف:

- هل هاجمك أحد؟؟

تطلع إلى وجه صاحبه وهو ينهض:

- لا أعرف ما حدث، ولكن يبدو أني متوعك.
- نعم حرارتك مرتفعة، هيّا لنذهب إلى الثكنة ليفحصك الطبيب.

داخل عيادة الطبيب استلقى جوزيف على الفراش محملقًا بالسقف، وما حدثَ يُعاد مرارًا برأسه، ترك الطبيب يقوم بعمله وفي نهاية الكَشف أخبره أنه مجرد إجهاد وبوادر حمى بسبب تبدل الفصول، عاد إلى غرفته بالمعسكر وظلّ صامتًا، بينما «إسماعيل» يحاول التفريج عنه بتلك النكات التي لم تضحكه أبدًا، اختار الصمت ولم يقصّ عليه أمرَ ذلك الغريب لربما يضحك



عليه أو يوسمه بالجنون، كان الأمر أكثر من مجرد حُلم أو وعكة أصابته، كان الأمر حقيقيًا تمامًا.

******

كذب من قال إن الأيام كفيلة بأن تُنسي، لا شيءَ يُنسَى. فقط نحاول أن نتناسى ونشغل بالحياة ولكن في لحظات وحدتنا تداهمنا الذكرى. تبدل حاله منذ تلك الواقعة الغريبة، أصبح يطارد سراب الرجل، يطوف بأرجاء المدينة ليلًا لعله يعثر عليه، شهر مضى وعاد الألم مرة أخرى ليفتك بعقله، لم يعد يهنأ له طعام ولا رقاد ولم يكن عنده تعزية سوى شوارع المدينة يحدثها بمكنونات سره، كل تلك الذكريات المتراكمة في دهاليز وجدانه تطفو الآن على سطح واقعه، ذات شروق كان عائدًا من جولته الليلية حين قابل «عبد الله الصربي»، تبادلا التحيات بينما يربط الصربي خيط حذائه وما إن انتهى استقام واقفًا وحدَّثه:

- ما الذي يحدث معك يا ألِمان؟
- ماذا؟
- أرى أنك مهموم طوال الوقت، وفقدت كثيرًا من الوزن.
- فقط أفكر كثيرًا.



- عليك ألا تفعل يا صاح، الفِكرُ داءٌ مُزمِنٌ فتَّاك بأصحاب العقول، عليك أن تفرغ رأسك بالحديث وأنت لا تفعل، تخرج كل ليلة في دوريتك وتعود مع ميلاد الشمس لتخلد للنوم، هذا إن وجدت للنوم طريقًا، هل هناك شيءٌ تخفيه؟ أو تود الحديث عنه؟

- لا تقلق.. أنا بخير شكرًا لك.

قالها بنبرة تشوبها سعادة مصطنعة وحرك رأسه بإيماءة بينما كان يحدثه عبد الله وهو على عتبة الباب:

- هناك خطابات لك، وضعتها على الطاولة.

ما إن خرج «عبد الله» من الغرفة حدث نفسه: «أوهم نفسي وجميع مَن حولي أنني على ما يرام، ولكن لا شيء من هذا صحيح، الوحدة تفتك بروحي، فأنا أتألم، أنا جرح على هيئة إنسان وعقلي يسير بخطى ثابتة نحو الجنون، إنني أريد أن أنأى بنفسي عن الماضي ولكن مشاهد من الماضي تتأجج بداخلي كجذوات مشتعلة لا تعرف سبيلًا إلى الخمود، الحزن سمتي والكآبة قرينتي التي غابت لسنواتٍ ثم عادت لتجول بخاطري.. وذلك الشبح اللعينُ لا أعرف سببًا لظهوره، لعلَّها الحمى كما قال الطبيب، ربما توجب عليّ أن أكتب إلى «رينيه» رسالة طويلة، قصة رحلتي إلى



هذه المدينة الساحرة، لعلها تنال إعجابه برغم أنني متأكدٌ من أنها ستكون رتيبة مليئة باليأس والبؤس، مضى وقت طويل منذ التقينا آخر مرة ولكن عليّ أن أخبره بأمر ذلك الكهل الغامض والذي تسبب في عودة تلك الأفكار والذكريات لرأسي...».

وقف أمام المنضدة المكدسة بالأطباق والأكواب الفارغة، التقط من على حافته المظروف الأصفر الكبير، توقيع رينيه «أوليفيه» وطابع بريد وعدة أختام، ابتسم وهو يجلس على حافة الفراش فاتحًا المظروف، لطالما كانت رسائل رينيه تمنحه قبس من الحياة، الوحيد الذي يتذكره في هذا العالم، أمسك الورقتين وتطلع إليهما قليلًا قبل الشروع في قراءتهما:

عزيزي كليمس ..

أعلم أني مقصر معك في الرسائل ولكن اعذرني فأنا لم أستلم رسالتك التي تحوي عنوانك الجديد بمكناس إلا مؤخرًا، أرى أنك حصلت على متعتك الخاصة في الترحال بين ثنايا تلك البلاد الخلابة فهل سحرك الشمال الأفريقي؟ أنا أيضًا حصلت على مبتغاي وأخوض مغامرة رائعة، أكتب إليك بينما أرتحل على ظهر بغلة قوية لا يعيق تقدمها التضاريس الوعرة، صارت تألفني وتؤنسها حكاياتي مع رفيق سفري «حدو



لكحل البقيوي"، في هذه اللحظات نقطع الطريق نحو تطوان بعد أسابيع قضيتها بين أجدير والحسيمة، حيث تعرفت على زعيم القبائل هنا في الريف، القاضي سي عبد الكريم الخطابي، رجل وقور يهابه الناس وهو من أسرة عريقة لها العديد من الارتباطات مع رؤوس القبائل، وله علاقات قوية مع مديري شركات التعدين الأوروبية، أخبرني الرجل أن وجود تلك الشركات ساهمت بشكل كبير في ازدهار الريف، وبالطبع هذا سببٌ كافٍ لتصبح هذه العائلة ثرية، أجريت حوار مع الرجل وأوضح لي كيف أن العلاقة مع الإسبان جيدة، الجنرالات يحاولون إرضاءه ودعمه، وخلال حديثي مع حدو لكحل فيما بعد فهمت أن الرجل لم يكن يتقرب إلا لغاية في نفسه، ومع انهزام الإسبان في عدة معارك وتزايد الهجمات عليهم، برز اسم الرجل كقائد يجمع جيشًا من قبائل الريف، في البدء ظن الجميع أن الزج باسم الرجل محض افتراء، لكنه كان ثعلب عجوز.. يعرف كيف يراوغ ومتى يهادن حتى يضرب ضربته التالية، كانت أيامي في الريف عامرة باللقاءات وحصلت على العديد من القصص والصور الرائعة، تجولت في القرى والمداشر الأمازيغية المتحصنة بالجبال والسهول مما يجعلها عصية على قوات الحماية الإسبانية، نفوذ القبائل يمتد إلى مناطق



شاسعة، يزرعون ويحصدون ولا يكلون من مقاومة أي تقدم إسباني، إنهم مقاتلون ذوو بأسٍ وبسالة يستطيعون أن يبقوا لأيامٍ في الجبال بقليل من الزاد، التمر والخبز يضعونهم في غطاء الرأس الملتصق بجلابيبهم، يكرون ويفرون كالأشباح ولا أحد يستطيع رصدهم، الحياة القاسية هناك وكأن هؤلاء الناس خُلِقُوا خصيصًا لتلك الظروف الصعبة، صار لدي وفرة من القصص حول أهل تلك الأنحاء، عاداتهم وتقاليدهم وإيمانهم بدينهم وقضيتهم.. والتي جوهرها حرية بلادهم ودحر ما يسمونه احتلالًا..

أتعرف يا كليمس أن الناس هنا في الشمال يؤمنون بأن حربهم ممتدة عبر التاريخ مع إسبانيا، حكاية أكثر من ثمانية قرون فتح وفتح مضاد... تحركنا من الحسيمة في يوم غائم، استبدلنا البغال بخيول قوية، وانضم لنا عددٌ من المسافرين ممن يعرفون الطرق البعيدة عن عيون الإسبان، وفي مرحلة ما اتخذنا درب الساحل، يمر على حافة بحر هائج زاخر بحكايات الذاهبين إلى الأندلس والمهجرين منها، قصص رواها حدو وأضاف عدد من رفاق الطريق حكايا أخرى، في الطريق إلي تطوان كانت الغيوم والسحب المنخفضة تمسح على رؤوس جبال شاهقة بروية ولطف، ويكتسي ما يظهر منها برداء الخضرة



وأشجار نبتت بين ثنايا الصخر، وديان خصبة شاسعة وسحب تنسل مبتعدة في الأفق.. ونسوة يرتدين الحايك ويعتمرن الشاشية؛ ملابس تقليدية ورثنها عن أجدادهن الذين عمروا تلك المناطق الوعرة، يبعن على جانبي الطريق الزعترَ والتين المجفف وما جادت به تلك الجنة البديعة.. حقول خضراء ومنازل بيضاء تنتشر على سفوح الجبال والهضاب.

اليوم وصلنا لتطوان، تبدو من بعيد كحمامة بيضاء اتخذت من سفح الجبل عُشًا لها، تنعم بدفء شمس شهدت قصة ميلاد تلك الجميلة، تطوان كل ما فيها عتيق ويحمل أثر الأندلسيين المُهجرين من بلادهم، زخارف أندلسية تزين البوابات والأسوار تدل على حرفية وإتقان صانعيها.. المسجد الأعظم وجامع القصبة وحي الملاح وسقاية باب العقلة كلها أماكن تستطيع أن تستنشق فيها عبير غرناطة، هكذا قال رفيقي حدو لكحل، تطوان روح أندلسية تجلت على أرض المغرب، تستطيع أن تستشعر ذلك في الأجواء والملامح، عيون زرقاء وخضراء وشعر ذهبي ووجوه بيضاء بحمرة جذابة.. وما تطوان إلا أميرة أندلسية إسبانية ولدت في جبال الشمال وتربت بعيدة عن وطنها ولا زالت تتذكر أصولها وإن طال الزمن، الجميع هنا يخبرونك بأنهم أندلسيون الجميع يذكر أن لهم



أجدادًا، وبيوتًا هناك على الطرف الآخر من المضيق ما زالوا يحتفظون بمفاتيحها.

*****

- يبدو أني اعتدت الكتابة لك وقص الحكايات وما رأيت عليك، بالطبع أكتب ما لا أستطيع نشره في الصحف ولكني سأحصل على مقابلة ستكون فارقة في حياتي المهنية، اليوم لدي لقاء مع الجنرال مانويل فيرنانديز سيلفيستري.. القائد العام لقوات الحماية الإسبانية.

قمت بشراء بدلة رمادية من خياط إسباني وربطة عنق سوداء كانت ملكًا للرجل، تنازل عنها مقابل صورتين له، كان مبهورًا بالكاميرا وثرثر كثيرًا عن ذلك الاختراع الذي غير مجرى العالم، في اليوم التالي كان اللقاء مع الجنرال بمركز قيادته، تفاجأت أن هناك صحفيين غيري ينتظرونه، لم أتوقع ذلك وبينما كنت أبحر بقارب مثقوب في بحر من خيبة الأمل، رأيتها يا صاحبي.. كانت تجلس ممسكة بورقة وقلم ومنهمكة في الكتابة بزاوية الغرفة البعيدة، لم أستطع أن أبعد نظري عنها، هناك شيء غريب يجذبني لها.. الجميع يتعارفون فيما بينهم وتدور أحاديث جانبية وهي



وحيدة تحاصرها نظرات المتملقين والفضوليين، إنها رقيقة ذات ملامح دقيقة وعيون سوداء جذابة تحيط بها أهداب مقوسة كهلال مكتحلة، خداها نضجت حمرتهما فألقت ظلالاً وردية على شفتيها، مربعة الجبهة، لدنة اليدين كغصنين أخضرين وجدت نفسي منجذبًا أتحرك نحوها وحالما اقتربت منها اقتنصت الفرصة وحدثتها، خرجت كلماتي بصوت مبحوح خافت ويبدو أنها لم تسمعني ولكنها لاحظت تواجدي أمامها، رفعت عينيها ورمقتني وكأن مقلتيها تسألانني: ماذا تريد؟

- مساء الخير، سيدتي.. أنا رينيه أوليفييه صحفي حر و...

بترتْ كلماتي حين تحدَّث مساعد القائد العام معلنًا وصول الجنرال إلى المكان، بدأ الجميع في الدخول إلى قاعة الاجتماع واحدًا تلو آخر في رتل منتظم عدت ببصري إليها وجدت أنها تنهض منحتني ابتسامة جعلت خفقات قلبي تتباطأ رويدًا حتى تجمد كل شيء إلا هي، تجاوزتني ونسيم عطرها الجبلي يتخلل صدري ليعيد النبض مرة أخرى لفؤادي، تبعتها إلى حيث سيقام الاجتماع كالمجذوب، أتفحص تمايُل خطواتها وتناسق جسدها المدهش وخصرها المكتنز قليلًا..



داخل الغرفة الكبيرة نصبت الكاميرات وصوبت العدسات على مكتب فخم الطراز يقبع خلفه كرسي خشبي نُقش عليه شعار المملكة الإسبانية، وعلى الجدار عُلقت صورة بالحجم الطبيعي للملك ألفونسو الثالث عشر، وهي اتخذت مقعدًا قريبًا مجلس الجنرال، جمعت شَعرها الأسود الثقيل وألقت به خلف ظهرها، رتبت أوراقها وأخذت تضع ملاحظات بقلمها الفضي حتى دَخل الرجل إلى المكان.. انتصب الجميع وقوفًا بينما سار هو بمشية تحمل الكثير من الكِبر والصرامة العسكرية، استقر خلف مكتبه وأشار لنا بالجلوس، رجل طويل القامة مهيب ببدلته العسكرية ذات الأوسمة الكثيرة، ذو وجه عريض وشارب كثيف على شكل مقود دراجة، بدأ حواره معنا بتعريف نفسه وتاريخه العسكري في كوبا ولم يفته أن يذكر انتصاراته وبسالته كضابط في سلاح الفرسان بالجيش الإسباني، ومن خلال أجوبته على أسئلتنا العديدة بدا أنه يتمتع بقدر كبير من الثقة بالنفس، لا يجيد المراوغة ولا صبر لديه فيما يتعلق بالتفكير والتريث في الإجابات، متشبث الرأي ولديه من العند ما يكفي ليكون واجهة للجيش الإسباني في شمال المغرب.. حديثه عن الإنجازات التي حققها في المعارك يفيض بالفخر وتجلى ذلك في قوله:



- الحرب والقوة وحدهما يبسطان نفوذنا وتحقق رسالة إسبانيا ها هنا.. علينا أن نضرب بيد من حديد ولا نتهاون في حق جنودنا الذين جاءوا لهنا لحفظ الأمن في تلك البلاد.. فالمغرب جزءٌ أصيلٌ ولا يتجزأ من هوية إسبانيا.. وواجبنا نحو تلك البلاد أن ننقلهم للحضارة والرقي بعد أن عاشوا قرونًا في ظلام الجهل.

وحين سألته الجميلة -التي لا أعرف اسمها- عن سياسته في التقارب مع زعماء القبائل، تطلع إليها لبرهة كان للصمت فيها اليد العليا حتى تحدث بغلظة:

- من تقصدين بزعماء القبائل؟!

أجابت بثقة وهي ترفع حاجبيها وقد أسدلت قليلًا سهامَ رموشها:

- على سبيل المثال القاضي عبد الكريم الخطابي من الريف.. والشريف الريسوني، يحكمان فعليًا تلك المناطق الواقعة تحت الحماية الإسبانية أليس كذلك؟؟

- إنهما نقيضان رغم كونهما عدوين لإسبانيا.. إلا أن الأول له طموحات خاصة بالاستفادة من هبات حكومتنا وعلاقته جيدة معنا، يعرف



كيف يتعامل مع الأمور وابنه الأصغر محمد درس الهندسة في مدريد، قد يكون هناك الكثير من الإشاعات والأكاذيب تسري في منطقة الريف أنه يحشد الرجال لمواجهتنا ولكنها عارية من الصحة، ما يتقاضيه هذا الرجل من أموالٍ يجعله خاضعًا لنا وليس لديه الجرأة الكافية لمواجهة جيشنا العظيم.. أما الآخر فهو شخصٌ لا أثق به أبدًا، يصدر نفسه كمدافع عن الإسلام وينادي بشعارات الحرب ضدنا ويروج لفكرة أننا نحن المسيحيون جئنا للفتكِ بهم، إنه غير مستعدً للوفاء بأي اتفاقٍ معنا، يفرض الإتاوات ويهاجم الدبلوماسيين والأجانب من جميع الجنسيات، وتعيث قواته فسادًا في مناطق نفوذنا، يضم الأراضي والبلدات إليه بطرُقٍ غير مشروعة، حتى تعهداته معنا بمثابة عباءة يخفي تحتها وجهًا آخر يعرقل سير عملنا، بل ويهاجم قواتنا بين الحين والآخر رغم أن بنادقه مصوَّبة دومًا نحو الفرنسيين وأخبرناه في العديد من المقابلات أننا لسنا أعداءه بل فرنسا هي العدو ولكنه لا يفرق بيننا.. هناك العديد من رجال القبائل المحليين الذين يرفضون ما يفعله

الريسوني.. ولكن لا أحد يستطيع إيقاف ذلك الرجل إنه كالبحر الهادئ لا تعرف كيف ومتى يهيج وينقلب.. منذ سنوات هاجمت معقله في أصيلة وحررت السجناء وبسطنا سيطرتنا على المدينة الساحلية ولكن هذا لم يُعجب القيادة السياسية في إسبانيا.. وها هو يتحصن بجبال الشاون مطلِقًا على نفسه أسد الجبال محاطًا بجيش من القبائل الداعمة له، ومن هناك يدعو للجهاد ضدنا ويحشد الرجال من كل مكان، ورغم كل ذلك نحاول جاهدين لاستمالته وبسط السلام.. لدينا هنا مهمة سامية وهي نشر الحضارة والتقدم الأوروبي بين هؤلاء الجهلة، انظروا حولكم وستجدون كيف أن حياتهم البدائية تثير الاشمئزاز في النفس، وسيكون علينا تبديل الحال هنا بأي ثمن.

اجتماعنا مع الرجل انتهى وحصل كلٌّ منا على سَبقٍ صحفي، وحين خرجنا جميعًا بقيت هي في الداخل، بدأ الجميع في الانصراف ولكني انتظرتها حتى تَخرج، حين فُتحَ الباب وظهرت على عتبته كانت تضحك، أسنانها الصغيرة غير المنتظمة منحتها جمالًا خاصًا وهي ترفع يدها بورقة محدثة إياي:



- حصلت على إذنٍ بالذهاب للشاون.. لمقابلة الريسوني.

******

اسمها «آن ريتشارد» صحفية إنجليزية تعمل ضمن الوفد الصحفي المُلحَق بالمندوبية البريطانية في طنجة، إنها رقيقة للغاية رغم مظهرها الصارم إلا أن روحها تحمل براءة ونقاء، أقحمت نفسي معها في تلك الرحلة إلى الشاون معقل الشريف أحمد الريسوني، الأمر أثار الغيرة بداخلي لأحصل على حوار من الرجل الأقوى في تلك الأنحاء، وافقت على مرافقتي إياها بتلك الرحلة ورافقنا حدو لكحل الذي رفض أن يتركني، ذلك الشخص صار بمثابة أخ لي يخشى عليّ من المخاطر وربما يكون دافعه لمصاحبتي حبه للمغامرة، الطريق من تطوان إلى الشاون ليس بطويل ولكنه غير ممهَّد وصعب التضاريس، اضطررنا في بعض الأحيان للسير على حواف السفوح الجبلية، خضنا غابات كثيفة الأشجار وسهول تعج ثناياها بجداول المياه القادمة من الجبال المرتفعة، وكانت رفقة آن رائعة تحدثنا كثيرًا وتعارفنا بشكل أكبر، إنها ابنة أحد المعلمين الإنجليز قضت معظم حياتها بمستعمرة جبل طارق، تحب الأدب والكتابة وتنظم الشعر، حالمة تطمح في الحصول على



حوارات مع شخصيات تتوقع لها الخلود، ترى أننا مجرد أرواح في مجرى الزمن وعلينا أن نُسجل التاريخ وما يحدث حولنا، ليس لطموحها حدود وتأمل أن يكون لديها صحيفة خاصة ذات يوم.. استرحنا ليوم كامل في منطقة تدعى بني حسان، رحب أهلها بنا رغم توجسهم منا في البداية، ولكن وجود حدو لكحل يسّر الكثير من الأمور علينا، قدموا لنا الكسكس باللحم والخضروات، وارتدت آن ملابسهم وكانت بهية الطلة باسمة الثغر والشاشية الكبيرة فوق رأسها.. ساعدنا بعضهم في عبور الطريق دون أن يعترضنا أحدّ حتى رأينا مقصدنا ... قصبة الشاون تتجلى كتاجِ مُلكٍ فوق جبهة جبل عال.

درة من السماء هبطت، منازلها قبس من بياض سُحب خريفية بيضاء، ولأسوار القصبة والمدينة حُمرة كحمراء غرناطة كما ذكرت «آن»، استقبلنا المسلحون بعيون تفيض بالحذر والترقب، يتناهى إلى مسامعك خرير الماء ليرافقك عبر دروبها الضيقة، أغصان أشجارها استبدلت أوراقها بأسراب من الحساسين المغردة.. جميلة الطَلة كجنان عدن، واجوائها تبعث في النفس حماسة وشبق لمعرفة كل تفاصيلها وحكاياتها.. بنيت لتكون ملاذًا لمن هاجروا وهجروا عن ديارهم. أخبرتني «آن»:



- الأزقة الضيقة حفيدة حي البيازين.. لقد زرت إقليم الأندلس حين كنت أعيش مع والدي بجبل طارق.

مررنا برأس الماء، هبة من جبل كريم للمدينة المنيعة، ينبض شلال صغير بمياه تنسل متدفقة بعروق الجداول مانحة السفح خضرة دائمة، صبية يافعة ذات عينين زرقاوين فضوليتين كانتا تلاحقانا وتتوارى بالثنايا والعطفات، تجولنا بالمدينة ومنعنا من التقاط الصور، رجال الشريف الريسوني كانوا قساة المظهر ومتعنتين في التعامل معنا حتى وصلنا إلى داره، حيث يقيم.

أدخلنا الخادم إلى البيت الأندلسي العتيق، صحن الدار تحيط به أعمدة تحمل عقود الطابق العلوي، منزل رحب يليق بمكانة الشريف صاحبه، والذي كان بانتظارنا.. يَجلس متربعًا على سجادة حمراء متقلنسًا بغطاء رأس جلبابه، يتفحصهم بعيني صقر عابثًا بلحيته الكثيفة بأطراف أصابعه، ضخم ويكاد يصل إلى طولهم رغم جلوسه، وجهه منتفخ بفعل داء الاستسقاء، كان مهيبًا ينقل بصره بين ثلاثتنا قبل أن يتوقف عند حدو محدثا إياه بالعربية:



- سمعت عنك الكثير من الحكايا، يقولون إنك تطير ولا أرى أن لديك أي أجنحة.
- سيدي، شمعتي صارت تسبقني إلى الشاون، هذا صاحبي رينيه صحفي فرنسي وهذه زميلته صحافية إنجليزية.

قاطعه الشريف بغلظة وفظاظة:

- أعلم من هما، ألقت بهم الريح الهوجاء إليَ، لم أكن أعلم أن ذلك الجنرال سيلفيستري بهذه الحماقة.
- سيدي، إنهم فقط يريدون إجراء حوار معك.

أشار لنا الشريف بالجلوس وهو يحدثنا بالفرنسية:

- تفضلا بالجلوس.

وأعادها بالإنجليزية، فجلسنا وهو يطالع وجه «آن» محدثًا حدو بالعربية:

- يظن سيلفيستري أني سأحتجزهم كرهائن وأطلب فدية وما إلى ذلك!! هل صرت تابعًا للإسبان يا بقيوي وتحمي رعاياهم.
- سيدي، أتبَع الله وسلطاننا ولا أحمي إلا أرضنا.
- كيف أخبار الريف وأهله؟
- بخير، الحمد لله.. كل شيء هادئ والإسبان محصورون في مناطق بعيدة عن الريف.



- لن يبقوا كذلك، سيأتي يوم وتتحرك جحافلهم نحو الشرق.. وحينها لن ينفع لين الخطابي معهم.. ولن يحميه أحدٌ من فوهات مدافعهم وقذائف طائراتهم.

لم يجبه حدو واكتفى بالصمت، التفت الشريف إلى حيث أجلس وسألني بالفرنسية:

- هل تجيد العربية؟!
- نعم.
- إذًا كنت تفهم ما نقول طوال الوقت.. ماذا عنها؟؟
- تتحدث الإنجليزية والفرنسية فقط.

انضمت آن إلى حديثهما قائلة بالفرنسية:

- سعيت كثيرًا لمقابلتك سيدي، ولا أصدق في الحقيقة أني أجلس هنا في ضيافتكم، سَمعت عنك الكثير ولكني أردت أن أسمع منك تفاصيل الحكاية من وجهة نظرك.

«آن» لبقة تختار الجُمل بعناية فائقة، وتنتقي كلمات مفخمة، منحت الرجل مكانة جعلته ينتفخ زهوًا وبدأ في الحكي.. يزدري سيلفيستري ونعته بالكاذب والفاشل وقال عنه:

- عدو غبي أخطر عليك من عدو ذكي.

أتدري يا جوزيف ذلك الرجل عجيب حقًا، يرى أن الفرنسيين والإسبان وجهان لعملة واحدة، ومحاربتهم واجب مقدس حتى يرحلوا عن أرض المغرب، وحين سألناه عن تلك الاتهامات التي يكيلها له القائد الإسباني العام ضحك الشريف كثيرًا، وقال:

- الإسبان يقتلون ويعذبون أعداءهم، ويسلبون أراضيهم ويهتكون عرضهم، ويطالبوننا أن نعامل أسراهم ورجالهم بمعاملة إنسانية، إن كانت إنسانيتهم ورفقهم يعني الموت لماذا ينكرون علينا أن نعاملهم بالمثل؟! دعهم ينشرون الأكاذيب ويشوهون سيرتنا كما يريدون فنحن بالنسبة لهم لا شيء. نحن لصوص وعصابات متمردة وجب القضاء عليها من أجل أن يؤمّنوا على أنفسهم في بلادنا.. لقد سلبوا مني أصيلة ذات يوم وعدت وأخذتها بالقوة والسلاح.. حررتها مرة أخرى منهم وانتقمت لما فعلوه برجالي.. هل كانوا يظنون أننا سنهجم على مدينتنا المسلوبة بالورود؟! تلك أرضنا ومن يضع فيها قدمه عنوة عليه أن يعود إلى بلاده محمول على الأكتاف.. سنقاوم الإسبان والفرنسيين وجيوشهم الممتلئة عن آخرها بالمرتزقة



والعبيد، وهذا المدعو سيلفيستري ليس سوى خاسر، هزمه ثوار كوبا ودحروه، هل تلك هي إسبانيا التي حكمت ما وراء البحار يومًا؟؟ لا إنها بلد ضعيف يعاني أهله من الفقر وتسلط النبلاء وتحكم جنرالات الجيش في مقاليده، يوهمون الشباب الإسباني بحلم إمبراطورية تبددت وذهب ريحها، يجبرونهم على القتال في حرب خاسرة.. أما نحن فقضيتنا مختلفة وهي الحرية.. لا نريد سوى حرية بلادنا فقط.

تحدث معنا الرجل كثيرًا وجاوب على الكثير من الأسئلة برحابة صدر ولهجة يشوبها مرح وقور يليق بهيبته، دوّنت كل شيء كما فعلت آن، سلبت تفاصيلها الصغيرة عقلي، حين فرغنا من الحوار دعانا الرجل لجولة بالشاون، رأينا أول فرن وأول منزل والمسجد الكبير.. ولدت الشاون من رحم الخوف، وربما اختار مؤسسها تلك البقعة المنيعة لأنه كان يعرف أن الإسبان سيأتون يومًا خلف من تركوا ديارهم بالأندلس، كنا نسير معًا في الطرقات وتعثرت أن ووجدت نفسي أتلقفها بين يدي والتقت عيناي بمقلتيها.. يبدو أنني سأغرم بها يا جوزيف، ولعل كل ذلك مجرد أوهام.

*****



الرسائل بوحٌ وفَيضٌ من ألمٍ مُخزن بداخلنا، ووجد جوزيف في الكتابة خلاص، شجعته وفرة الرسائل من رينيه وصار يدون هو الآخر كل شيء، كتب كل ما يُحزنه ويفكر به، مواقف سعيدة وأيام وجد فيها الراحة بأزقة مكناس، طباع الناس وبساطة العيش.. كتب رسالة.. اثنتين.. ثلاث وفي الرابعة تمنى ألا تكون نهايته الجنون أو التيه في تلك البلاد الحارة، قص عليه رؤياه لذلك الشبح والقلق الذي منع عنه النوم، جمع رسائله ونهض ليُسلمها لساعي البريد قبل أن يرحل، بحث في الأدراج عن مظروف ووضعها بداخله، وبطرف لسانه مسح طرف الشريط اللاصق قبل أن يكتب العنوان: يُسلم إلى حدو بن حمو الأكحل مقهى القراصنة – زنقة الأمير - بورساي – الجزائر.

رفع المظروف أمام عينيه متأملًا إياه ثم نهض متثاقلًا وخرج إلى الساحة، ضياء الشمس شديد ونورها يفترش الأرجاء، المكان ممتلئ بالجند، بعضهم يتدرب على الاشتباك بالبنادق ذات الرماح، وفي الزاوية البعيدة مجموعة أخرى من الجنود يغسلون وينشرون ملابسهم المبللة، قطع الممر باتجاه مكتب البريد، فُتح الباب بمجرد وقوفه أمامه، تطلع إليه ساعي البريد مبتسمًا:

- هل هناك شيء؟

- نعم جئت لأسلمك تلك الرسالة.
- جيد كنت على وشك الرحيل، إلى أين سترسلها؟
- بورساي، الجزائر.

مدّ الساعي يده وأخذها، دسها بحقيبته ومضى، بينما ظلّ جوزيف يتابعه ببصره حتى صعد إلى الشاحنة التي فور تحركها سَمع صوت «إسماعيل» من خلفه:

- ألِمان هل هناك خطب ما؟

التفت إلى صاحبه:

- أرسلت رسالة إلى «رينيه».
- أها ذلك الصحفي الفرنسي الثرثار.. أنا ذاهب إلى قاعة الطعام.. هل تأتي معي؟!
- لا أشعر بالجوع الآن، سأعود إلى غرفتي، أود النوم.
- سنأكل سريعًا ونعود سويًا، ويمكنك أن تمنحني وجبتك كما اعتدت.

المكان خاوٍ إلا من القائمين على إعداد الطعام، ما زال الوقت مبكرًا على الغداء، ولكن هناك استثناء لمن يخدمون ليلا، جلس جوزيف إلى إحدى الطاولات بينما راح «إسماعيل» يتسامر مع أحد الجنود بينما يغرف



طبقين من حساء العدس والبصل، ما إن انتهى توجه إلى حيث يجلس صاحبه محدثًا إياه:

- أعرف أنك لا تحب هذه الوجبة ولكن عليك الأكل، انظر إلى حالك تبدلت كثيرًا يا أَلِمان.

- كيف؟

وضع الطبقين على الطاولة:

- شاحب وزائغ البصر دومًا، منذ ذلك اليوم الذي وجدناك فيه فاقدًا للوعي بتلك الزنقة وأنت لست أَلِمان الذي نعرفه.

أمسك جوزيف مغرفته وأخذ يقلب طبق الحساء، دام صمته لبرهة قبل أن يقطعه صوت «إسماعيل» وهو يتجرع الحساء، رفع بصره إليه محدثًا إياه:

- لقد رأيت في ذلك اليوم شيئًا غريبًا، ربما كان شَبحًا.

توقف التركي عن ابتلاع حسائه وأخذ يُحملق في وجه صاحبه وما لبث أن انفجر ضاحكًا، وتناثر رذاذ الحساء على الطاولة، كان يضحك بجنون مما جعل عمال القاعة يلتفتون إليه، بضع لحظات وحاول أن يقول شيئًا ولكنه ضحك مرة أخرى، نهض جوزيف غاضبًا، ولكن «إسماعيل» أمسك برسغه، وتوقف عن الضحك، وقال لاهثًا:



- أسف يا ألِمان، اجلس.. أعتذر يا رجل.
- لم يكن عليّ أن أقول لك شيئًا.
- اجلس يا رجل، أقسم لك إني لم أقصد، ولكن اليوم أيضًا حدثني أحد الجند عن الأشباح، فالأمر أثار ضحكي ليس أكثر.

جلسا صامتين لبعض الوقت أنهى فيه «إسماعيل» طبقيهما، تجشأ ومسح فمه وشاربه بظهر يده دون أن يبالي بنظرات جوزيف الجامدة، رفع كوب ماء ليدلقه بفمه جرعة واحدة ثم تحدث بنبرة جدية لا تلائمه:

- ألن تقص عليّ أمرَ ذلك الشبح؟
- انسَ الأمر يا «إسماعيل».
- حسنًا سأقص أنا عليك ما قاله الجندي السنغالي، ذلك النحيل الذي يُشرف على إطعام الخيل تعرفه أليس كذلك؟! اسمه «حاجي كمارا» وهو قديمٌ هنا في مكناس، قال لي إنه انضم إلى الفيلق منذ ست سنوات أي قبلنا بما يقارب ثلاثة أعوام.. على كلٍّ حضر ذلك السنغالي معركة لهري.

تلفت التركي حوله ليتأكد من خلو المكان وأضاف هامسًا:



- أكبر هزيمة عسكرية مُنيَ بها الجيش الفرنسي على الإطلاق في شمال أفريقيا.

مط جوزيف شفتيه وأشاح بوجهه:

- وما علاقة هذا بقصتي؟

- الصبر يا ألِمان، كل ما تحتاجه في حياتك هو الصبر وسينجلي كل شيء، اتركني أكمل حديثي، إنها قصة تستحق الإنصات، ولربما لو كان «رينيه» هنا لسجّل حوارًا مع «حاجي كمارا» هذا.. على كل حال حدثت تلك المعركة قبل عامين في مكان ليس ببعيد عن هنا يُسمى خنيفرة أو أخنيفرة، لا أعرف كيف تنطق ولكنها على هذا الوزن..

دام الصمت لوهلة وبدأ إسماعيل في قص الحكاية بلسان كمارا السنغالي:

- كنا قد وصلنا كتعزيزات للقوات المتواجدة في خنيفرة قادمين من مكناس، الجميع كان يتحدث عن معركة وشيكة ضدّ المتمردين لتطهير الجبال والوديان السحيقة من تجمعاتهم، والمدينة ذات القصبة والأسوار والأبراج القوية كانت نقطة تمركز لقواتنا، نقطة منيعة ضد أي هجوم استولى عليها



الجيش الفرنسي وطرد منها صاحبها ومؤسّسها «أوحموا الزياني» وصارت تحت سيطرة قواتنا المتمركزة هناك، كنا جيشًا كامل العتاد، كتيبة مدفعية وكتيبة السنغاليين التابعة للفيلق الأجنبي، قناصون وسرية خيالة وعدد كبير من القوم –وهم مغاربة انضموا إلى الجيش الفرنسي– وبين هؤلاء المغاربة كان هناك شخص يَعرف مكان قائد المتمردين البربر، ولعله كان يريد أن يحصل على امتيازاتٍ وأموالٍ أو أن هناك ثأرًا شخصيًا بين قبيلته وبين الزيانيين، أوشى ذلك الرجل إلى القائد لافيردير بمكان المخيم حيث يجتمع المخربون، الفارون بعد أن استحوذ الجيش الفرنسي على خنيفرة وشتتهم إلى الجبال، تحمس ذلك الأخير لفكرة القضاء على زعيم العصابة التي تفتك برفاقنا في الجبال والمناطق الواقعة بين مكناس وخنيفرة، لم يقاوم لافيردير رغبته في الحصول على نصر ساحق ووسام جديد يضاف إلى جُملة الأوسمة المستقرة على صدره، اشتهى قتل الرجل الذي يؤرق مضجعه ولا يكف عن مهاجمة قواته، أصدرت التعليمات بتجميع



أكبر قوة عسكرية شهدتها المنطقة وبدء الزحف نحو معقل «موحا الزياني» أو كما يسمونه «أوحمو الزياني».

خرجنا من خنيفرة صباحًا، وعند المغيب كنا قد تمركزنا على الهضاب المحيطة بمخيم «أوحمو الزياني»، واحة بجوف الجبل تحوي كثيرًا من الخيام، كان المكان مكتظًا بالنساء والأطفال، والحراسة خفيفة ولم تلحظ وجودنا كانوا آمنين، ما زلت أذكر صوت الأذان والرجال يجتمعون عند مكانٍ خاوٍ تحيط به الأجام والشجيرات يؤدون الصلاة.. وأثناء ذلك أمر الجنرال لافيردير بالهجوم، المدفعية الخفيفة بدأت القصف وتناثرت الأشلاء ونسفت الخيام وتمزقت تمزيقًا، صراخ وعويل ودخان كثيف.. وبدأت خيَّالاتنا في الهجوم الكاسح ومن خلفهم المشاة، الدماء والحرائق وجثث النساء والأطفال والعجائز متناثرة في كل مكان، أما «أوحمو» ورجاله فقاوموا بقدرٍ ما استطاعوا ولكن مَن ذا الذي يقف أمام إعصارٍ مدمر يطيح بكل شيء، لم تدم المعركة طويلًا، وما تعجبت منه أن النسوة يقاومن، يطلقن النيران من بنادقهن دون رحمة، حين توقف دوي الرصاص كنت أول الواصلين إلى خيمة الزعيم الأمازيغي، الدخان يُعبق المكان، تناهى إلى مسامعي نحيب وبكاء قريب، كنت خائفًا ولا



أريد أن أطلق النيران على الأبرياء كما يفعل بقية الجند.. أنا لي أهل في السنغال بسطاء للغاية ولا أتمنى أن يحدث معهم ما حدث لهؤلاء القوم، دلفت إلى الخيمة المظلمة حذِرًا فوجدت بها عددًا من النساء، وكهلاً أسمر داكن البشرة ذا لحية بيضاء محني الظهر، لم يكن يحمل سلاحًا، إلى جواره كانت تقف سيدة مغطاة الوجه، وفي عينيها نظرة غاضبة أرجفتني، أنزلت بندقيتي ومنحتهم الأمان وخرجت لأخبر قائدي أن الخيمة لا تحوي سوى النساء وعبد أفريقي، وحين عدت للداخل برفقة رفاقي لم يكن لذلك الأفريقي أثرٌ ولم يتبقَّ سوى النساء.

عرفت فيما بعد أنه كان «أوحمو الزياني» وأنه صبغ وجهه بالفحم ومع ظلام الخيمة لم أتبينه، كان على مسافة مني وظننته أحد الخدم، عُنفت تلك الليلة من قائدي الذي انشغل بعد ذلك بالأسرى والغنائم، قضينا على المخيم وحملنا الأسرى عائدين باتجاه خنيفرة، وأثناء عودتنا عرفت أن من بين الأسرى زوجات زعيم المتمردين، ورأيت تلك التي كانت تقف إلى جواره بالخيمة ذات النظرة المتحدية، رغم أنها أسيرة لم تكن تسير إلا شامخة بعزة المنتصر.. ويبدو أنها كانت تعرف بأن زوجها لن يتركها هي ونساء قبيلته بالأسر.



في فجر اليوم الثاني ونحن في طريق عودتنا إلى خنيفرة بدأ الهجوم المضاد، كنا نظن أنها محاولة يائسة لاستعادة الأسرى، ولكن ما حدث كان عكس تخيلنا جميعًا لم نسمع سوى وقع أقدام الخيل وزخات الرصاص، كانوا يحاصروننا داخل تلك القرية من ثلاث جهات، لم يعبروا نهر الربيع واكتفوا بالوقوف على الضفة الأخرى دون الاقتراب من المياه، تمركزنا بوضعية دفاعية فوق الأسوار وخلف المتاريس، استخدام المدفعية كان أمرًا صعبًا لقرب مسافة الزيانين الذين استطاعوا قتل ثلاثة وثلاثين من ضباطنا في ذلك الهجوم العنيف، وكان «أوحمو الزياني» في مقدمة الفرسان، عرفته وميزته من بين الجموع، يمتطي فرسًا أبيض، ويطلق الرصاص من بندقيته والحصان يركض وسط سحابة من غبار، عجوز متمرس بالقتال ولن يثنيه شيءٌ عن الثأر لكرامته، رغم ذلك صددناهم وتراجعوا إلى التلال المحيطة ولم يتركوا أثرًا لهم، تبخروا وكأنهم لم يكونوا، أشباح برزت من رحم الفجر ومحتهم الشمس بضياء شروقها، وحين انقشع غبار المعركة وساد الصمت نادى منادٍ «لقد قُتل الجنرال لافيردير». وجدناه مطعونًا عدة طعنات قرب باب مكتبة، لا أحد يعرف كيف حدث هذا حتى اليوم، ولكن خسارته جعلت القلوب وجلة، عشرات الجرحى



والقتلى وفوق ذلك قائد الجيش، كل هذا في الهجوم الأول، ماذا لو كان هناك هجوم ثانٍ وثالث؟!

في الليل وبعد الانتهاء من تطبيب الجرحى وإحصاء الموتى، عادوا مرة أخرى ولكن هذه المرة بقصف مدفعي زلزَلَ الأرض وارتجت الجبال من حولنا، ورغم الظلام كانوا يقنصون كل من تسوِّل له نفسه بأن يطل من فوق الأسوار، ليلة مرعبة لم أعِش مثلها منذ اختطفت من دكار، ليلتان متشابهتان والخوفُ واحد، أصبحنا نحصي عددًا جديدًا من الموتى وكان بينهم كثير من الجند السنغالي، أناس أعرفهم اصطدنا سويًا وتسامرنا لسنواتٍ، اختارهم الموت وتركَنا محاصرين بعيدًا عن خنيفرة، الغربان تحلّق في السماء وأرض الحصن بِركة دماء، العيون زائغة والأجساد ترتعد بانتظار مدد أو موت قريب.

الهجوم الأخير كان مع مغيب الشمس، السماء عكست حُمرة الأرض الدامية، وبرزوا من فوق التلال البعيدة في تحدٍّ، فرسان وراجلون وأمامهم كان قائدهم الزياني، يصول ويجول بفرسه الأبيض الرشيق، بدا أنه يُلقى فيهم خطبة ما مثيرًا حماستهم، وما إن فرغ انهمروا كسيل جارف من فوق التلال يتسابقون إلى قتلنا، عزموا على إبادتنا واسترداد ما لهم، وبينما كنا نراقب هجوم الخيل وجدنا من كانوا يستترون بالمنازل

والسوق يخرجون من مكامنهم ويعبرون القنطرة دون أن يأبهوا برصاصنا الذي أمطر صدورهم، كنا نتفانى في الدفاع حتى رأيتهن، مجموعة من النسوة تقودهن شابة تفتك بكل من يصادفها، عرفت فيما بعد بأنها تدعى إيطو وهي ابنة أوحمو الزياني، لا أدري كيف تسللوا إلى الحصن ولكن ما رأيته أرعبني، إنهن مقاتلات عزمن على تطهير خنيفرة من الجيش الفرنسي، لم يكن هناك سبيل للنجاة سوى الهرب. تشتتنا في الوديان والجبال، الجيش الفرنسي مُني بهزيمة نكراء وكل تلك الكتائب المرتكزة في خنيفرة لم ينجُ منها سوى عشرة ضباط وأكثر من ثلاثمائة جندي، استترنا بالأحجار والشجيرات حاولنا أن نخفي آثارنا ولكنهم كانوا يتعقبوننا.. وقع العديد من رفاقي أسرى قبل أن أصبح وحيدًا أسيرُ على غير هدى، حتى وجدني ذلك الشبح..

قبيل الفَجر آويت إلى خور بين جبلين، استطعت أن أشعل جذوات من حطب، كنت وحيدًا أفكر فيما حدث، البرد كان قارسًا أحسست بعظامي تتجمد، كل تفاصيلي حياتي البائسة وكل الشخوص كانوا يحومون حولي، حالما سرى بجسدي دفء النيران غفوت، وحين فتحت عينيّ وجدته يقف على مقربة مني، رجل مغربي وقور ذو لحية شيباء، لم أشعر بقدومه ولا أعلم



من أين أتى، هادئ الوجه طويل القامة مهاب، ذو نظرات ثاقبة، ظلَّ صامتًا، لو أراد قتلي لفعل، ولكن هيئته بثت في نفسي شعورًا غريبًا، وقشعريرة سرت بمجرى الدم في عروقي، ابتسم وتحرك بهدوء حول راكية النار التي بدأت في الخمود، حدثني دون أن تتحرك شفتاه، نعم فعل ذلك وأحسست بكلماته بوجداني، أخبرني ألا أخاف منه، وأن الله يحبني لهذا أنجاني، وأنني سأكون سببًا لإنقاذ الأرواح يومًا ما، لهذا مُنحت فرصة للنجاة، حين سألته عن طريق العودة وطلبت منه المساعدة، أشار إلى السماء فرفعت بصري نحوها وحين عدت إلى حيث يقف كان قد اختفى، ولم يعد له وجود.

*****

الدهشة والخوف والقلق لم يفارقا مضجع جوزيف، وتلك الأوصاف التي سردها عليه «إسماعيل» على لسان السنغالي، جعلت شيئًا ما بداخله يخبره أن من رآه ذلك الجندي هو ذات الشخص الذي ظهرَ له بالزقاق القريب من ساحة الهديم، أيام مرت حتى تشجّع وذهب إلى الحديث مع السنغالي، لم يجده بحظيرة الخيل حيث يَعمل، المكان خاوٍ من الخيول إلا حظيرتين، ووضعت على جانبي الممر أجولة العلف



والعشب الجاف، وفي الزاوية البعيدة أحاطت مجموعة من الدجاجات بكومة من الروث، استدار ليخرج عائدًا من حيث أتى حين تناهى إلى سمعه صهيل خافت، التفت إلى يساره حيث الباب المُغلق، فارتفع الصهيل مرة أخرى، بروية أزاح المزلاج جانبًا لينفرج الباب ويرى ما بداخله، جواد أحمر متين البُنيان، حرك أذنيه ونفض رأسه ذات اليمين والشمال، بدا وكأنه استأنس بوجوده، لاحظ جوزيف أن قوائمه الأربع مكبلة، تمنعه من الحركة، فتح الباب وتطلع لعيني الجواد المكتحلتين، بهما كثير من الشجن والحزن، بلطف حذر لامس ناصيته فجفل الحصان وصهل، حين كان صغيرًا تمنى أن يكون له حصان حلم لم يتحقق أبدًا، داعب شعره مبتسمًا:

- يبدو أنك تشتاق إلى الركض، ما خُلقت لتكون مكبلًا في تلك الحظيرة الضيقة.
- أنت ماذا تفعل هنا؟

أفزعهما الصوت، ضرب الجواد الأرض بقوائمه فيما التفت جوزيف إلى مصدر الصوت، كان جنديًا شابًا، أسمر البشرة نحيل، أصلع الرأس، اقترب منه مردفًا بصرامة:

- ألم تسمع ما قلته لك؟؟ ماذا تفعل عندك؟



- لا شيء فقط كنت أبحث عن «حاجي كمارا».
- وهل يبدو لك هذا الحصان وكأنه من تبحث عنه؟؟
- بالطبع لا، ولكنه فريد من نوعه وأثار فضولي ليس أكثر.
- نعم هو فريد، ولكنه غاضب دومًا كصاحبه الجنرال، الذي قد يحاكمنا عسكريًا إذا ما عرف أنك عبثت مع حصانه.

تفحصه الشاب ودار حوله ليغلق باب الحظيرة الخاصة بالجواد ثم أردف:

- لماذا تبحث عني إذًا؟
- أنت حاجي كمارا!

أحكم الشاب إغلاق المزلاج وتوجّه إلى أحد الأجولة وقال وهو يجذبه:

- نعم بشحمه ولحمه وسواد بشرته. هات ما عندك.

تعجب جوزيف من عدائية الرجل معه، فاتجه ليساعده على حمل جوال العَلف قائلًا:

- أخبرني صديقي «إسماعيل»، ذلك التركي عن تلك المعركة مع الزيانين، وأردت سؤالك عن شيء ما.



- عن ماذا؟

- ذلك الشبح الذي ظهرَ لك في الجبل.

أسقط كمارا الجوال أرضًا وانتصب أمامه يحملق في وجهه:

- هل جئت لتسخر مني؟

- بل لأسمع منك؟ لقد رأيت ذلك الغريب أيضًا.

تلفت الشاب حوله قبل أن يضحك ملوحًا بيده:

- هل سألك عني؟ اذهب يا رَجُل مِنْ هُنَا، لم يكن هذا سوى حُلم راودني على حين خوفٍ وأنا مكوّمٌ ببطن الجبل.

- ولكن «إسماعيل» أخبرني بما قلته له.

- لم أكن أعلم أنه ثرثار إلى هذا الحد، نعم أخبرته بما رأيت وهذه الأرض بها كثير من العفاريت والجن، وعليك الحذر من أن يمسسك الجنون أو السحر، لقد رأيت من الأهوال ما يكفي، لقد جاءوا بنا إلى هنا لنخدم فرنسا وانتهى بي الحال بحظيرة الدواب لظنهم أني مجنون بعدما حكيت على مسامعهم القصة، لقد كنت أفضفض مع صاحبك السمين ولم يكن عليه إخبارك بشيء، واحذر إن أخبرت أحدًا بما رأيت هذا إن رأيت

شيئًا حقًا، سيوصمونك بالجنون وينتهي بك المطاف في حظيرة مماثلة إن كنت ذا حظٍّ جيدٍ.

أنهى حديثه ومضى ليكمل عمله تاركًا جوزيف واقفًا بوسط الحظيرة، انتهى الحديث قبل أن يبدأ، ربما لم يستلطفه ذلك الشاب أو أنه محق فيما يقول، رحل عائدًا إلى غرفته يجر وراءه خيبة لم يتوقعها، عليه أن يتناسى الأمر ويعود إلى حياته الطبيعية، ولكن أي حياة هذه التي كانت طبيعية، أخذ يتذكر مسار حياته يبتسم ويتجهم وبكى حتى غفا وغط في نوم عميق.

*****

شتاء قاسٍ رحل وأعقبه ربيعٌ بديعٌ، اكتست التلال والجبال بالخضرة، ومكناس البهية تجملت بالزهور وقوافل الحصاد، اكتظت الأسواق بأهل المداشر القريبة، يبيعون ويشترون ويتبادلون الأخبار فيما بينهم، معظمهم من قبائل الأمازيغ المقاتلة ولكنهم جاءوا إلى المدينة في هذه الأيام للتجارة بعد موسم حصاد وفير، كان على قوات الحماية الفرنسية أن تنشر رجالها في الأرجاء، التحفز والترقب كانت السمة البارزة ، فمنذ فترة توقفت الأخبار عن أي هجماتٍ يقودها الزيانون، فقط بعض الإشارات على أن ابنته «إيطو»

تقوم بالهجوم بين الحين والآخر على تمركزات الجيش القريبة من سفوح الأطلس المتوسط، قبيل مغيب شمس الجمعة تجولت دورية الأمن الخاصة بالفيلق الأجنبي بشوارع مكناس، عشرة جنود اتخذوا سبيلهم إلى القصبة ومنها إلى ساحة الهديم حيث سينتشرون في الأرجاء، أمرهم القائد بأن يفترقوا متفقدين الدروب وبسط الأمن فيها إن تحتم الأمر، على أن يجتمعوا بعد ساعة بالساحة، حلقت طيور اللقلق في سماء المدينة، وفوق مأذنة المسجد الأعظم وقف أحدها فاتحًا جناحيه بزهوٍ، هو ملك تلك المدينة بنى عرشه فوق أعلى المآذن وأقدمها، كان العريف «رولو» قائد الفِرقة أول الواصلين إلى الساحة أخذ يتطلع إلى السماء المتشحة بُحمرة المغيب، أشعل لفافة تبغ وهو يرمق الطيور المحلقة، انتظر حتى يجتمع رجاله جميعًا، أتوا تباعًا ولكن العشرة لم يكتملوا، أربعة رجال اختفوا ولم يعد لهم بمكناس أثر.

- أصدر العريف رولو أوامره بتوقف البحث عن «عبد الله الصربي» ورفاقه من الدورية، والله تلك أيام تقال.

نطق بها «إسماعيل» بنبرة تفيض بالحزن والقلق، كان مهمومًا بغياب صاحبهما، وللمرة الأولى لا يعرف جوزيف ماذا يقول ومصابهما واحد، ما حدث للصربي



وزملائه ممكن أن يحدث لهما، لم تعد دروب مكناس آمنة، أسبوعان من البحث لم يثمرا عن أي شيء، فَتشت المنازل وقُبض على العديد من الأهالي للتحقيق، بعضهم عُذِّبَ بوحشية ليعترفوا بجُرمٍ لم يرتكبوه، والخوف يَعم أرجاء المعسكر يومًا بعد يومٍ، انتشرت الحكايات عن دخول عدد من رجال «أوحمو الزياني» إلى المدينة متخفيين كتجار، وإشاعات عن هجوم وشيك على المداشر القريبة من مكناس، كل ذلك زاد الأمور تعقيدًا، بناء نقاط تحصين جديدة على طول الطريق والتلال المحيطة بمكناس كان أولوية، وذات صباح أعطيت الأوامر لجوزيف و «إسماعيل» بالتجهز للخروج إلى ثكنتهم الجديدة، نقطة مراقبة المدفعية تبعد عن مكناس بضعة أميال، حزموا أغراضهم ونقلتهم الشاحنة برفقة عددٍ من الجنود إلى مأواهم الجديد.

تلة تحيط بها الأشجار من كل جانب، وعلى قمتها المسطحة نبتت شجيرات كثيفة أخفت المدافع، كان عليهم النَوم في كوخٍ خشبيٍّ بسيطٍ، يتبادلون المراقبة والحراسة والنوم، تأتيهم كل ثلاثة أيام صناديقُ المؤن من طعام وماء قليل، حاول جوزيف التأقلم، لكن «إسماعيل» لم يتوقف عن ذِكر مناقب صاحبه المفقود، الأيام متشابهة والغيوم ليست كذلك، ولا شيء أجمل



من أن تبوح لغيمة عابرة بأسرارك ومكنون صدرك، مرت الأيام وصارت أسابيع وأضحت شهورًا و «إسماعيل» ما زال يذكر عبد الله، عبروا أوروبا سويًا وتحمّلوا مشقات الحياة معًا، كان صاحبه وقت الضيق والفرح، لم يتغير عليه يومًا وشاركه النوم على الرصيف بباريس، دافع عنه حين ترصده مجموعة من الحمقى الفرنسيين، الآن لم يعد موجودًا أصبح أثر بعد عين، حالة الفقد التي يعيشها «إسماعيل» يعرفها جوزيف جيدًا، أن تفقد شخص شخصًا عزيزًا يعنى أن ينسلخ جزءٌ من روحك، أن تسهر الليل متذكرًا تلك الأمسيات الرائعة برفقته، أن تبحث عن أثره في كل ما تفعله، يا ليت من يرحلون يعلمون كم نحبهم، وكم نتعذب بفراقهم، إن كانوا أحياء فربما يكون لنا لقاء يومًا ما، وإن كانوا أمواتًا فلعلهم يروننا من حيث لا نراهم.

في ظهيرة يومٍ صيفيٍ خانق، استلقى جوزيف تحت السقيفة الخشبية وأخذ رسالة وصلته اليوم من رينيه كانت مفعمةً بالبهجة والأمل وبدا ذلك من كلمات صاحبه، رغم أنه قرأها قبل ذلك إلا أنه أخذ يتمتم بما تحويه:

عزيزي كليمس..



أهداني القدير هبة عظيمة وصارت حياتي ربيعًا دائمًا، إنها «آن ريتشارد»؛ تلك الصحافية التي ذهبت معها لمقابلة الريسوني.. تذكرها أليس كذلك! كتبت لك عنها في خطابات سابقة.. آاه يا جوزيف لو رأيت خطاباتها المكتوبة بدمع الشوق إلى اللقاء، إنها تبكي من فرط حبها لي يا رجل، أستشعر ذلك من خلال كلماتها، تنوي افتتاح صحيفة تجمعني أنا وهي، تُحبني رغم بعد المسافات.. ولأجلها سأفعل أي شيء، أتدري كُلّي شوق لزيارتها في طنجة، أرسلت لي منذ أيام رسالة تخبرني أنها تنتظرني بشغفٍ، حتمًا سأذهب إليها ولكن بعد أن أجمع قدرًا من المال يكفي لإتمام زواجي بها، كنت أحسب أني لن أحظى يومًا بحبيبة.. ها أنا أغرم، رغم أننا التقينا مرتين ومنذ ذلك اليوم نتبادل الخطابات فقط، ولكن هذا هو الحب أن نتغلب على العواقب وبُعد المسافات بيننا، سألت نفسي مرارًا ما الذي يدفعها إلى حب شخص مثلي متهور طامح للبحث عن قصص الناس من أجل كسب قوت يومه؟! ما الذي دفعها حقًا للوقوع في حب صحفي غريب الأطوار يجوب البلاد البعيدة عن مقامها.. تبقى الإجابة مؤجلة حتى ألتقي بها ذات يوم في طنجة.

ابتسم جوزيف وطوى الرسالة جانبًا وأغمض عينيه، بعد فترة صباحية قضاها في صيانة المدفع



الكبير، منحته الرسالة شعورًا جميلًا وأبعدت عن رأسه التفكير في تلك الآلات الفتاكة، أسلحة قابضة للأرواح تحتاج إلى رعاية دائمة، تزييت التروس وتنظيف الفوهات وتشحيم القواعد، والتأكد من ضبط الضواغط وتثبيت العجلات، أصبح متمرسًا في هذا العمل، وخبيرًا بأصناف القذائف والإحداثيات، لم يتسنَّ له المشاركة في معركة حقيقية حتى الآن ولا يتمنى هذا، ولكنه تدرب جيدًا وصارع أبرع رجال الفريق المكوَّن من خمسة أفراد من ضمنهم «إسماعيل»، وجد هذا الأخير ضالته في طهو الطعام لرفاقه يشغل وقته في البحث عن الجذور والبذور أسفل الربوة، بل ويتجول لمسافات بعيدة لصيد الدجاج الحبشي، منحتهم هذه الثكنة راحةً وصفاءً، فقط كل جمعة تأتي لهم فرقة أخرى تستلم منهم الموقع ريثما يذهبون لقضاء السبت والأحد بالمدينة، ولكن في النهاية صاروا لا يحبون الزحام والاختلاط واستقروا في تلك البقعة التي أسموها عُشّ النسر، صارت منزلهم ومستقرهم أضاف كل واحد منهم لمسته على المكان، الأربعة الآخرون، ثلاثة منهم بلجيكيون وسنغالي، وذلك الأخير اعتاد أن يجلس صامتًا ولا يحدث أحدًا، يَشعر أنه أدنى منهم مرتبة وهكذا عامله الآخرون إلا «إسماعيل» وألمان، جُلهم غرباء ألقى بهم القدر إلى بقعة بعيدة عن ديارهم



وأهليهم، ولكل منهم سبب للانضمام إلى الفيلق إلا «سيدو» أجبر على التجنيد بالجيش الفرنسي الذي يحشد عنوة كل من يستطيع القتال، مستعمرات فرنسا المترامية الأطراف تضخ إلى صفوف الجيش جندًا متواليًا، لا قيمة لهم ولا أحد يأبه بموتهم أو حياتهم، هكذا هي الحياة في نظر ذلك السنغالي.

ذات فَجر استيقظ جوزيف على صوت «إسماعيل» يتمتم، كان يُصلي ويبتهل كلمات من العربية والتركية صعب تركيبهما وفهمها، خَرج من الكوخ إلى حيث تنتصب المدافع والبدر لملم ضياءه استعدادًا للرحيل، ظلّ واقفًا يحدق في الجبال البعيدة وظلال الأشجار الداكنة على السفوح، أغمض عينيه ونسيم بارد عابر يمسح عن وجهه أثر النعاس، شَعر بأن أحدًا يقف خلفه فلم يلتفت، بقي على حاله يستمتع بتلك اللحظات من السكون حتى تكلم الذي يقف وراءه:

- ليس بعد الظلمة إلا الضياء، وحتمًا سيأتي الشروق مهما طال الليل البهيم.

لم يكن صوت «إسماعيل» ولا حتى أحد رفاقه، فتح عينيه واستدار بسرعة ليجده، كما رآه أول مرة؛ مبتسمًا مهيبًا يومئ له برأسه ببطءٍ، حملقَ في وجه



الرجل وتراجع خطوتين إلى الخلف وتلجم لسانه، عجزَ عن قول ما يريد والرجل يُردف بنبرته الهادئة:

- لا تخف، ما كُتب ستراه وليس عليك سوى السعي لمصيرك يا ألِمان، إنهم ينتظرونك.

دوي رصاصات أفزعته جعلته يتلفت حوله بسرعة والطيور تغادر الأشجار خائفة، وحين عاد ببصره لم يكن الرجل حيث كان، أخذته المفاجأة، لم تمضِ لحظة حتى شَعر بسيخٍ من حديدٍ يحتك بذراعه، وزخات الرصاص تنهمر على الثكنة، سقط أرضًا ممسكًا بعضده متألمًا، الدماء تنبثق من ذراعه والألم يتضاعف، وعلى باب الكوخ ظهر «إسماعيل» ممسكًا ببندقيته، ركض نحوه وألقى بجسده إلى جواره:

- صاحبي.. ألِمان أأنت بخير.

نقل جوزيف بصره بين وجه التركي والبلجيكيين الذين خرجوا تباعًا مستترين بالمتاريس، والطلقات تضرب واجهة الكوخ والسواتر الترابية، سيدو أيضًا خرج ممسكًا بندقيته وراح يطلق النيران على السفح، حالة من الهَرج وطيف الشيخ العجوز يَمر من خلفهم ملوحًا له مبتسمًا، تذكر أين رآه أول مرة، في تلك الزنزانة بالسجن العسكري، كان معلقًا بمشنقة صنعها بنفسه، هو مَلاك الرب إذًا ولم يَكن مَلك الموت أبدًا.



****

حين استعاد وعيه لم يدرِ كم لبث، السقف الخشبي من فوقه وأشعة الشمس تتسرب من بين الشقوق، الكوخ خاوٍ وذراعه ملفوفة بضمادة ببدائية، الألم لا يُطاق، يغزو ذراعه حتى كتفه، والعرق يتصبب عن جبينه حاول النهوض متغلبًا على الإعياء الشديد، استند على الجدار الخشبي وتوجَّه إلى الباب يجر قدميه، جرحه ينزف من جديد والسكون يحيط بالمكان، مد يده وفتح الباب ليدوي صوت الرصاص من جديد، و «إسماعيل» يصيح به من مكان بالخارج:

- انبطح يا ألِمان، هناك قناص.

استتر بالجدار وجلس مسندًا ظهره إليه، شد الضمادة وأحكم ربطها وهو ينادي صاحبه:

- «إسماعيل» هل جميعكم بخير؟

- لا سيدو مصاب بفخذه و «ويسلي» الأشقر قُتل.

قال أحد البلجيكيين بحدة:

- إننا محاصرون هنا، القناصة على التلال القريبة لا أستطيع رؤيتهم.

وأضاف الآخر:



- سينتظرون حتى الليل ويهجمون علينا لينهوا المعركة، إن لم نستطع إرسال أي إشارة لطلب النجدة.

ساد الصمت لوقت طويل، زحف «إسماعيل» باتجاه «سيدو» بصعوبة وصل إليه، تفحص جرحه وأخبره أنه بسيطٌ وعليه أن يصبر حتى تأتي النجدة أو يخرجوا من تلك الورطة، الشمس تبحر في السماء ببطءٍ والخوف والحرارة يفتكان بهم.. غاب جوزيف عن الوعي وحين أفاق مرة أخرى كان ذراعه متورمًا، النزيف توقف ولكنه يَشعر بأن الدماء الباقية في عروقه تغلي، مال بجذعه جانبًا ليرى زملاءه بالخارج، «إسماعيل» و «سيدو» يستتران بأجولة الرمل، وعلى مسافة قريبة منهم جسد ويسلى الخاوي من الحياة، والبلجيكيون أحدهم يُشعل سيجارة بينما الآخران مستلقيان خلف المتاريس يراقبان الأنحاء، انعكس ضوء منظار القناص بين الشجيرات البعيدة، فعاد إلى مخبَئه ونادى بصوت متهدج:

- «إسماعيل»..
- ألِمان!!
- القناص متمركز خلفك بين الشجيرات الجدباء، هناك صخرة بارزة يتخذها قاعدة له،

رأيت انعكاس الشمس في عدسة بندقيته.

- ماذا سنفعل معه؟

- يشغله أحدنا ويتسلل اثنان في اتجاهين مختلفين ونحاصره.

- ألمان.. أتدري ما تقول؟؟ ربما يكون معه آخرون ألم ترَ زخات الرصاص!

- اسمعني يا «إسماعيل»، إن بقينا هنا حتى الليل سنموت جميعًا، علينا المحاولة والسعي للنجاة.

ساد الصمت لبرهة وكأن «إسماعيل» يُفكر فيما يقوله صاحبه الذي أردف:

- محاولة أخيرة، قد تُفلح.

غمغم التركي:

- وقد تكون نهاية مبكرة.

- حينها لن نموت سُدى على الأقل حاولنا، «سيدو» بحاجة للإسعاف وكذلك أنا، قد تفتك بنا الحمى ويتلوث الجرح سنموت على كل حال هنا أو في مكان آخر.. «ديبروين».. أتسمعني يا صاح؟!

أجاب الشاب البلجيكي المدخن:



- نعم يا كليمس.. أوافقك فيما تقول ولكن نريد طُعمًا نستدرج به ذلك الوغد المتربص بنا.

نهض كليمس مستندًا بظهره إلى الجدار وقال بصوت يُغالبه الألم:

- أنا جاهز لتشتيته، لتذهب أنت و «إسماعيل» بأسرع ما يمكنكم، تفرقا إلى اليمين واليسار، اتخذوا ساترًا كلما تحركتما، ولا يكن القناص هو كل همكما ربما يكون رفاقه في الأسفل.

قال «ديبروين» متهكمًا:

- سنبلغهم تحياتك يا كولنيل كليمس بينما نرسلهم إلى الجحيم.
- توخيا الحذر وحين تصبحان أسفل التلة المستقر هو فوقها، لا تفترقا، كونا على مسافة قريبة من بعضكما.. «سيدو» وفينسبين عليكما تأمين «إسماعيل» و «ديبروين» بإطلاق الرصاص على التل المقابل؟ فور أن أعطيكم الإشارة ليتحرك الجميع.
- أِلمان.. أنت مجنون!
- ألا تستحق الحياة أن نقاتل من أجلها؟

كلمات جوزيف كانت كافية ليفكر كلُّ واحدٍ من رفاقه بأشياء عدة، لحظات مرت والصمت باسط نفوذه



على الشكنة، كان يُراقب من شق بالكوخ مكان القناص، إنه هناك ينتظر أي حركة، رسول الموت الذي يترصد أنفاسهم التي قد تكون الأخيرة، لا يستطيع تمييزه بين الأشجار ولكنه كامن هناك، يَشعر به بل يستطيع أن يُخمن أنّ عينه تحدق في العدسة متفحصًا الأرجاء، أخذ نفسًا عميقًا متغلبًا على ألم ذراعه ثم قال محدثًا رفاقه بصوت خفيض:

- سأفتح باب الكوخ ثلاث مرات وفي الرابعة اركضوا، بينما سيقوم بقيتنا بفتح وابل من النيران للتغطية «إسماعيل».. «ديبروين» حظًّا موفقًا.

تسلل إلى خلف الباب الخشبي للكوخ وراح ينفّذ إشارته، فُتح الباب ثلاث مرات وفي الرابعة صاح:

- الآن.

ركض «ديبروين» يسارًا واتخذ «إسماعيل» سبيله يمينًا، أما «سيدو» وبقية الرجال راحوا يطلقون الرصاص من مكمنهم بشكل عشوائي على التلال المقابلة، كانت الطلقات تلاحق ديبرون وتعود لتضرب الأشجار خلف التركي الراكض، في تلك اللحظة خرج جوزيف راكضًا نحو الساتر الترابي وألقى بجسده أرضًا، تدحرج حتى وصل إلى بندقية ويسلى، التقطها وهو



يحدق بوجه رفيقه الميت، عيناه جاحظتان تحملقان في الخواء، وبين حاجبيه استقر ثقبٌ صغيرٌ جفت الدماء حوله، لبرهة ظل على هذه الحالة حتى ناداه «سيدو»:

- ألِمان.. أطلق الرصاص إن كنت تستطيع ذلك، نفذت الرصاصات مني.

قال «فينيس»:

- أنا أيضًا لم يتبقَ لي سوى خمس رصاصات.

اعتدل جوزيف متخذًا وضعية التصويب وأخذ يبحث عن هدفه، لم يكن هناك أي شخص في مجال رؤيته، رجال القبائل بارعون في إخفاء أنفسهم عن الأعين، يطوِّعون أجسادهم مع الصخور والجذوع، جلابيبهم المخططة تتماهى مع الجبال والأحجار، أطلق «فينيس» آخر رصاصاته وبعدها جثم السكون على الأنحاء، زحف «سيدو» بصعوبة يجر ساقه المصابة محدِّثًا إياه:

- هل ترى شيئًا؟

ردَّ «فينيس» وهو ينظر عبر الثقوب:

- أظن أن «ديبروين» وصل إلى قاع الوادي.

كان جوزيف ينصت لحديثهما وعيناه تراقب تلك الحركة بين الآجام في الأسفل، يبدو وكأن الريح تعبث



بالشجيرات، إنه «إسماعيل» يسير منحني الظهر، تابع تحركه حتى صار أسفل الربوة وأخذ يُلوح لـ «ديبروين»، إنهما على مقربة من الهدف.. أخذا في الصعود وارتقاء الصخور بحذرٍ كُلٌّ من جانبه، وبينما يشاهدانهم جاءهما صوت أنثوي من خلفهم يحدثهما بالفرنسية:

- ألقيا أسلحتكا، وإياكما الإقدام على فعل شيء ستكون كلفته غالية.

أفلت «سيدو» و «ديبروين» سلاحيهما ورفع كل واحد منهما يديه على رأسه وهما مستلقيان على وجهيهما، أما جوزيف لم يفعل، فقالت محدثتهما بغلظة:

- ألم تَسمع ما قلته.

وأطلقت رصاصة استقرت بجوار رأس جوزيف وتناثر الغبار، لوهلة ظن «سيدو» أن ألِمان قد مات ولكنه فوجئ به يلقي بالبندقية قائلًا:

- حسنًا.. ها قد فعلت.

وقعِ أقدام اقتربت منهم وأيادٍ غليظة جذبتهم وأجلستهم عنوة، صَرخ «سيدو» من شدة الألم بينما ظل «فينيس» صامتًا، تحدث آسريهم بالأمازيغية مع



السيدة بجمل قصيرة، ثم عَم السكون مرة أخرى حتى قطعه صوتها الناعم وهي تقول بالفرنسية:

- أنتم الآن أسرى لدى المقاومة، لكم منَّا الأمان والطعام والشراب ومعالجة جراحكم. فقط لا يرتكب أحدكم أي حماقة وخاصة أنت أيها المغرور.

كانت في تلك اللحظة تقف أمام جوزيف، تعلق بندقيتها المُطعم خشبها وماسورتها بالفضة، ملثمة بوشاح بلون اليشب لا يظهر منها سوى عينين بلون البندق وأهداب مكتحلة وبين حاجبيها وشم أخضر صغير كخطين متوازيين، حدقت بوجهه متفحصة إياه ثم مالت بجزعها إلى الأمام قليلًا وأردفت:

- أنت قائدهم أليس كذلك؟

لم يُجب، هزت رأسها ثم أولته ظهرها لتراقب ما يحدث على الربوة المقابلة، لم تمضِ لحظات حتى أطلقت صفيرًا طويلًا، رددته الوديان قبل أن يأتيها صفيرٌ آخر من الجهة الأخرى، استدارت على عقبيها بمرونة وحدثت رجالها مرة أخرى بالأمازيغية، وعلى الفور بدأت فرقتها بتمشيط الثكنة، وحمل الصناديق والمعدات إلى خارجها، تابعت ما يحدث لبرهة ثم عادت ببصرها إلى جوزيف قائلة بالفرنسية:



- تمت مصادرة كل تلك الأسلحة والمعدات، أنا ممتنة حقًا لكم على الهدية الثمينة.

قال «سيدو» محدثًا إياها:

- سيدتي، أرجوكِ لا تقتلينا.

رمته بنظرة ثاقبة:

- ما اسمك أيها الجندي؟
- «سيدو هراري».
- من أيِّ البلاد أنت؟؟
- سنغالي.
- وأتيت إلى هنا لتقتل أبناء المغرب؟
- أقسم لك إني لم أفعل..

اقتربت منه وقالت بحدة تجلت في نبرتها:

- لو واتتك الفرصة كنت ستفعل، رفاقك أيضًا يفعلون هذا في كل أنحاء البلاد التي تحتلها فرنسا بدعوى الحماية، أنت نَفسُك جئت من بلدٍ يُستعبَد أهلها والعجيب أنك تقاتل في صفوف جلادك.

ردَّ بصوت مرتجف:

- ليس لي من الأمر شيءٌ.
- بل لك، لديك عقل تحدد به الصواب من الخطأ.



ألقت جملتها والتفتت إلى رجالها تحثهم على إنجاز ما يفعلونه، لم تبالِ بهم بل دلفت إلى الكوخ وبقيت بداخله لبعض الوقت ثم عادت في نفس الوقت الذي ظهر فيه مجموعة من الفرسان، ذوي البنادق والخيول القوية يتقدمهم سيرًا على الأقدام «إسماعيل» و «ديبروين» ومن خلفهما برز وجه يعرفه رجال الفيلق الأجنبي جيدًا..الأموات لا يعودون إلى الحياة، ولكن مَن الذي قال إنه مات، كان قد اختفى منذ أشهر مع زمرة من رفاقه، والآن يعود مرتديًا جلابة وعمامة، بوجهٍ مفعَمٍ بالحياة، «عبد الله الصربي» كان شفيعهم لدى «إيطو»، اختلى بها بجوار الكوخ ودار بينهما حديثٌ طويلٌ، بينما أجلس «إسماعيل» و «ديبروين» إلى جوار رفاقهما، قال التركي محدثًا جوزيف بسعادة:

- سيقنعها «عبد الله» أن تطلق سراحنا، هكذا أخبرني ونحن في الطريق، كادوا أن يفتكوا بنا على التلة الأخرى لولا أن ظهر وصاح بهم أن يتوقفوا، لم أصدق عينيّ حين رأيته، ظننت أني أهذي أو أن الموت يدنو مني في هيئة صاحبي القديم.

قاطعه فينيس بعصبية:



- إنه خائنٌ.

كلمته جعلت رفاقه يحولون رقابهم نحوه، صار محاطًا بالأعين اللائمة فأردف:

- نعم هو كذلك، ومهما فعل لن يُغير ذلك من الأمر شيئًا، لقد قتَلوا ويسلي وكان من الممكن أن يقتل أحدكم، ألم يصيبوك يا كليمس؟! ألم يتلذذ ذلك القناص بصيد سيدو.. منذ الفجر ونحن محاصرون هنا والآن أنت سعيد أيها التركي لمجرد رؤية وجه خائن، دون أن تحترم صاحبك الميت على بُعد أمتارٍ منك.

اصطكت أسنان «إسماعيل» وقال محاولًا كظم غيظه:

- اصمت.

- لا، لن أصمت وليقتلوني، ليسوا سوى قتلة سفاكين للدماء وسيدفعون الثمن باهظًا جراء ما فعلوه.

كاد إسماعيل أن يتفوه بشيءٍ ما، لولا تدخل جوزيف الذي قال بحدة:

- نحن من سندفع الثمن إن لم تغلق فمك الآن، علينا الخروج من هذا المأزق وليس لدينا



خيار آخر، لا يهمني إن كان الصربي خائنًا أم صديقًا، ما يُهمني ألا يموت أحد منا.

توقف عن الحديث حين رآها قادمة نحوهم و»عبد الله» من خلفها، اقتربت حتى استقرت أمامهم وبدأت تنظر إلى وجوههم واحدًا تلو الآخر حتى توقفت عيناها على وجه «فينيس».. تطلعت إليه وهي تقول بالفرنسية:

- هل تود قول شيء؟

أشاح بوجهه بعيدًا عنها، فاستطردت مكملة حديثها:

- تلك المرة الأولى التي يضعني أحد رجالي في مأزق حقيقي، في العادة نأخذ الأسرى ليتم استبدالهم فيما بعد برجالنا المسجونين في معسكراتكم، ولكن «عبد الله» أراد أن ترحلوا ونكتفي بالغنائم، أنا في حيرة من أمري، عليّ اتخاذ القرار الآن قبل أن نرحل.. فقدت اليوم رجلين.

قاطعها جوزيف:

- ونحن أيضًا فقدنا رفيقًا، وإن لم يتم إسعافنا في الوقت المناسب ستكون الحصيلة ثلاثة لاثنين.



رمقته بنظرة خاوية قبل أن تفاجئهم وتسحب طبنجتها وتصوبها نحوهم، اهتز «عبد الله» ولكنه لم يقوَ على قول أي شيء، كان «إسماعيل» ينظر إليه في هلع، وبقيتهم يتطلعون إليها بأعين تفيض بالهواجس، مررت فوهة سلاحها على رؤوسهم وتوقفت أمام وجه جوزيف قائلة:

- ما اسمك؟
- جوزيف أوتو كليمس.
- من أي البلاد أنت؟؟
- ألمانيا.
- ألماني يحارب في صفوف العدو! أنتم ثلة تثير الاشمئزاز بداخلي.
- لم يكن لدينا رفاهية الاختيار حين انضممنا إلى هذا الفيلق.
- لا تتحدث إلا حين أسألك، معادلة بسيطة.

جذبت إبرة طبنجتها إلى الخلف، شهق إسماعيل وتيبست الأعين ولم يبدُ أي أثر للفزع على وجه جوزيف، حدثته بنبرة ساخرة:

- ما الذي يَمنعني مِن قتلك الآن؟
- لا أعرف.



- إجابة خاطئة.. ما يمنعني أني منحت الصربي وعدًا بإطلاق سراحكم جميعًا، ولكن في المرة القادمة التي سنجدكم فيها ستكون نهايتكم، عليكم الرحيل مِن بلادنا.. تلك أرضنا نحن وليست مِلكًا لفرنسا أو إسبانيا.. عُد إلى بلادك وحارب في صفوفها يا هذا، وكفاك عارًا أن تصبح بَغل حَرب بيد من يقتلون قومك.

مع آخر حروفها أعادت موضع إبرة سلاحها إلى مكانها، وقامت بوضعه في الجراب المتدلي على خصرها، التفت وحدثت «عبد الله» قائلة:

- إعصب عين رفاقك وضعهم على الطريق إلى مكناس.. امنحهم القليل من الماء فالطريق طويل.

ابتعدت وأخذت تدلي بأوامرها إلى رجالها الذين أفرغوا الثكنة من كل شيء، فككت المدافع وحُملت بعيدًا كقبيلة نمل تكومت على صرصور ميت، أتى لها بجواد أسود فاحم ذي شعر كثيف وسرج أحمر فخم، امتطته بقفزة رشيقة وصاحت في الرجال بالأمازيغية، وقبل أن ترحل ألقت نظرة خاطفة على جوزيف ورفاقه الجالسين أرضًا. ووكزت جوادها ليطرق الأرض بهيبة وعزة وينطلق.



٥

موطن الأسود

مكناس - ديسمبر ١٩٢١

صباح باردٌ ملبّد بغيوم حجبت شَمس الصبيحة، أشجار الزيتون الممتدة إلى أسوار المدينة زاهية بخضرتها بعد أن غسل الندى أوراقها الصغيرة، وعلى الطريق المؤدي إلى بوابة مكناس العتيقة خاضت حوافر الخيل ببرك الطين، تمشي على مهلٍ وعلى ظهورها سعاة بريد قادمون من أنحاء متفرقة، اجتمعوا منذ يومين بنقطة تفتيش قريبة من الخميسات للراحة والاحتماء من المطر، كان كل واحد منهم يَحمل في جعبته عددًا كبيرًا من الرسائل، بعضها جاء من فرنسا وبلجيكا ومناطق الحماية الفرنسية، رسائل كتبت بشهاد الحب وأخرى تحمل بين طياتها بغض البُعاد وأخبار الموت، وبعضها مجرد برقيات بين القادة يطمئنون فيه على سير أعمال الجيش.. عبرت الجياد البوابة بخطوات رتيبة متهادية باتجاه القصبة، الأرض الممهدة بالحجر واللحج مبللة، ووقع خطى الخيل عليها كإيقاع يطرب أذان راكبيها، لم يمضِ كثيرٌ من الوقت حتى صاروا على أبواب الثكنة، استقبلهم الجند



الموكل إليهم بالحراسة بالتحيات وفتحوا لهم المتاريس، دلفوا ليستقبلهم «كمارا» السنغالي، ترقى وصار عريفَ الحظيرة، صار تحت إمرته الآن مجموعة جديدة من الأفارقة، أمرهم بتولي أمر الخيل، بينما تبادل عبارات الترحيب مع سعاة البريد، سألهم عن رسالة له رغم يقينه أن لا أحد في هذا العالم سيراسله، مَن الذي يعرفه ليُرسل له خطابًا ما، تابع بعينيه الحزينتين سيرَ العمل والخيل يُقاد إلى الحظيرة بينما توجه السعاة إلى قاعة الطعام للإفطار.

طرقات بباب جوزيف أيقظته من سباته العميق، أصبح ينام كثيرًا في الآونة الأخيرة، منذ أن ترقى وصار عريفًا يُشرف على تدريب المتطوعين الجدد، يطلقون عليه «رجل المدفعية» أو «العريف ألِمان»، اسم لصق به رغم أن مُطلِقه رحلَ هو الآخر، عامان منذ رحيل إسماعيل التركي الذي لحق بصاحبهما الصربي في صفوف المتمردين؛ عاد وحيدًا مرة أخرى، يُشغل يومه بمتابعة التدريبات داخل الثكنة والخروج إلى المدينة يوم الأحد فقط، الأيام كالأسابيع كالشهور، كل شيء متشابه لا مذاق للطعام ولا الشراب ولا فائدة من الحزن ولا حتى الفرح، يحيا بالعدم حتى يأتي يوم يرحل فيه عن المكان أو العالم، مضى عام على إبرامه عقدًا جديدًا مع قيادة الفيلق، سيقضي بموجبه خمس



سنوات إضافية بالخدمة العسكرية، وفي المقابل هناك ترقيات وهبات سيحصل عليها، لا بُدّ أن أمه سعيدة الآن بترقّيه ومكانته بين الجند في الفيلق الأجنبي، الرسائل مع رينيه تهوّن عليه مجرى حياته الكئيبة.

تبادلا الرسائل، وأيام الوحدة طويلة، حياة صارت رتيبة، رحل إسماعيل ذاتَ يومٍ ولم يعود إلى الثكنة مرة أخرى، سيتدبر أمره ولكن الرحيل المفاجئ لصاحبه جعله ينطفئ ويحمل على ظهره جبلاً من عتاب سيكيله للتركي إن رآه مجددًا، ولكن لا يلومه اختار الرجل حريته كما رآها، ولم يبقَ له في هذا العالم سوى رينيه. تعاقبت ثلاثة أعوام من تبادُل الرسائل، كانت بمثابة ثمرة أمل بأن هناك من يأبه بشأنه، أخذ رينيه يحدِّثه فيها عن استقراره بالريف، وشغفه بقصص وحكايات أهل تلك البلاد، وشوقه لملاقاة «آن» أميرة قلبه المتوجة على عرش طنجة كما أسماها، الأحلام تتحقق يا جوزيف.. تلك كانت كلماته وهو يسرد له أمرَ حدو الأكحل الذي حقّق ما كان يبغي، صار يُحلِّق الآن فوق الساحل المغربي ويتنقل بطائرة اشتراها من ماله الخاص، مَن أراد شيئًا سعى له وعمل بجد من أجله، ولم تمنع المصاعب ذلك المغربي من أن يكون طيارًا كما أراد. ما زال يحتفظ بكل تلك الرسائل في خزانة



ملابسه ويطالعها كلما أحس بالملل، إلى جانب رسالة هو كاتبها ولم تُرسل أبدًا.

فتح جوزيف الباب بعين نصف مغمضة متطلعًا إلى وجه الرجل ذي الشارب الدقيق والأنف الطويل، وشعار البريد الفرنسي على صدره ومن فوقه العَلَم الفرنسي، حيَّاه الجندي مبتسمًا، ومدّ يده إليه بمجموعة من الخطابات قائلًا:

- صباح الخير... رسائلك سيدي، هذه المرة لديك ثلاثة خطابات.

أخذها من يده ورفعها أمام وجهه وأخذ يقلبها، وما لبث أن ابتسم وأغلق الباب في وجه ساعي البريد دون أن ينطق بكلمة، عاد إلى حيث فراشه وجلس على طرفه، وضع ما في يده على الوسادة وتثاءب فاتحًا ذراعيه قبل أن ينهض مجددًا، غسل وجهه بدلو الماء وفرك شعره الكثيف قبل أن يتطلع إلى صورته على صفحة الماء المتذبذب، السنوات كفيلة بتغيير كل شيء، الحياة ربما قاسية ولكن اختياره منحه البقاء في ذلك المكان دونَ هدفٍ، توقف الشبح عن الظهور له ومضى إسماعيل إلى درب اختاره ومن قبله عبد الله، رينيه شغفته قصص القبائل في الشمال وما زال ينتظر لحظة ذهابه إلى عروسه بطنجة، ديبروين انتقل إلى



الرباط مع فينيس، بينما انتحر سيدو، أطلق على رأسه الرصاص ليتحرر من عبوديته الأبدية.. كان شجاعًا في فعلته هذه ولكن إلى أين ذهب؟ إلى أين يذهب الأفارقة المسلمون والمسيحيون بعد موتهم؟! وأولئك الوثنيون أين ينتهي بهم المطاف! هل هناك نعيم خاص بهم هل حقًا هم أحرار هنالك؟

استلقى على فراشه ممسكًا بالرسائل، اثنان من رينيه والثالثة كُتِبَ عليها «تُسلَّم إلى العريف جوزيف أوتو كليمس» فقط هذا كل ما كُتب عليها.. لا اسم للمرسِل ولا طابع بريد يدل على المكان كبقية الخطابات، تردد قبل أن يفتحها ولكن سرعان ما بدأ في فتح المظروف، وحالما بدأ يقرأ كلماتها الفرنسية اعتدل جالسًا:

- ألِمان.. كيف حالك؟!

اشتقت لك يا صاحبي، وكل تلك الأيام التي قضيناها معا منذ تعرفت عليك بقاعة الطعام على ظهر البارجة الفرنسية، ليالي السهر في الجزائر وأيام البرد على تلك الربوة خارج مكناس، كل تلك الذكريات لن أنساها ما دمت حيًا، ولكني أشعر الآن أني عثرت على روحي ها هنا، بين الوديان والسهول وجبال الأطلس العظيمة، الحياة أكبر وأكثر اتساعًا من تلك الثكنة ذات



الأسوار الحجرية، تزوجت وصار عندي ولد وبنت، كذلك فعلَ عبد الله تزوج ولكنه انتقل إلى الريف، القتال محتدم هناك، والحرب في أوروبا انتهت منذ زمنٍ ولم يبقَ من دولتنا العلية سوى ذكرى وأرض مقسمة بين الفرنسيين والإنجليز، تكالب الجميع على أراضيها كما هو الحال مع ألمانيا، ربما تكون الحرب الكبرى انتهت، ولكن المعركة مستعرة هنا، أعيش وسط أهلي الذين يريدون تحرير تراب وطنهم، تلك هي الغاية يا ألِمان، أن يكون لك هدف في الحياة تعيش من أجله، أن تناضل من أجل الحياة وليس الموت، لمستقبل أفضل لأجيال وأجيال تنعم بالحرية والعدل من أجل شمس يوم جديد تشرق على عالم الأحرار، سيأتي يوم وتسقط فرنسا وتنهزم كما حدث في الريف، الإسبان دُحروا في أنوال وقتل منهم جيش عظيم، وكذلك كان يسعى «أوحمو الزياني» ورجاله قبل أن يُقتل في أعظم معركة رأيتها في حياتي، ذلك العجوز المهيب كان ذا بأسٍ شديدٍ لا يكل ولا يمل وقاتل حتى آخر رمق، الناس يقاتلون بإيمان النصر وتحرير الأرض والذود عن أعراضهم ولو بَعد حينٍ، الجميع سيفعل كما فعل ابن عبد الكريم الخطابي أوحمو الزياني، المجد سيطال من انضموا إلى جانب



الحق، وسيخلِّد التاريخ ذكراهم فهذه أرض تسكنها الأسود فلا تكن مع الخاسرين.

صاحبك إسماعيل التركي.

«اللعنة».. نطق بها بعد ما اختتم قراءة الرسالة، كيف استطاع إسماعيل أن يفعل هذا؟ من أين أتى بكل هذه الجرأة ليقوم بإرسال خطاب كهذا عبر بريد الجيش الفرنسي، ضحك وأعاد قراءة الرسالة مرة أخرى وهو يقطع الغرفة جيئة وذهابًا، وسؤال قديم يعاد إلى رأسه: ما الجدوى من تلك الحياة إن بقي أبد الدهر قابعًا هنا، هل إسماعيل مُحقٌّ فيما يقول؟؟ نعم الإسبان هزموا في أنوال على يد قبائل الريف ولكن لا أحد يعرف التفاصيل، كان في المعسكر عشية وصول خبر مقتل زعيم المخربين في جبال الأطلس، جاء الجند بأجولة مليئة برؤوس من أسموهم قطاع الطرق القتلة، رصت أمام القائد العام الذي أخذ يتفحصها دون اشمئزاز وما لبث أن أمرَ بالاحتفال، وأقيمت حفلة سمر على روح «أوحمو الزياني» ورجاله مقطوعي الرأس، عدو فرنسا الأول، لسنوات ظل الرجل على رأس قائمة المطلوبين.. والآن مات، في تلك الليلة أوى إلى غرفته ولم يشارك في الاحتفال، فحتى لو كان عدو فرنسا الأول لا يَفرح أحد بمقتل رجل شجاع نبيل كهذا، يبدو



أن إسماعيل حصل على مبتغاه من الحياة، الحرية كما كان يتمنى سيدو المسكين ولكن لكل طريقته الخاصة.

كان بحاجة إلى الخروج من تلك الحالة التي خلّفتها رسالة التركي، ربما كانت رسائل رينيه هي الحل الأمثل، تفحصهم وقبل أن يَفتح أولهم وجد أن الطوابع مختلفة، اثنان، أحدهما منتفخة بالأوراق لُصق عليه طابع مدينة «مليلية»، والآخر من «باريس»، تاريخا الإرسال يظهران أن القادم من العاصمة الفرنسية هو الأحدث، غمغم وهو يَفتح أول رسائل رينيه «يبدو أنك وجدت ضالتك في الشمال»:

عزيزي كليمس..

أتمنى أن تكون بخير..

أكتب لك هذه المرة من مليلية، تلك المدينة الرائعة على حافة البحر، عتيقة لها حصن قديم، مزيج عجيب بين حضارتين وثقافتين يحملان كثيرًا من التناقض، ورغم ذلك يتشابهان في أوجه عديدة، الجميع هنا غرباء بشكلٍ أو بآخر، لا أخفيك سرًا أن الأمور متوترة وأني غامرت بالدخول إليها وقت حصارها، جئت أبحث عن سفينة تحملني إلى سبتة، ولم أجد سوى الخواء والخوف، الإسبان يرتعدون وكذلك أنا، خلال اثنين وسبعين يومًا تمكن ثوار الريف



من استرجاع ما احتله الإسبان منذ إحدى عشرة سنة، تكبدت إسبانيا خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، المقاومة الآن صارت تحتل جبل كروكو وقامت بنصب مدافعها فوقه، القصف يستهدف المدينة دون رحمة، وأنا مضطربٌ ولا أعرف ما عليّ فعله! وأفضل ما يُمكن فعله في تلك الليالي الكئيبة هو الكتابة والتأمل في السماء لعليّ أرى في النجوم وجه حبيبتي «آن» ليُنسيني ما حدث في الريف.

الكآبة والحزن يجتاحان ربوع الريف، رحل القاضي سي عبد الكريم الخطابي، سُمم ومرضَ بينما كان يخطط لشيءٍ انكشف حين عاجله الموت، كان يبني معسكرًا للمقاومة، مات لتنوح النساء لأيام عليه، انتشر خبر أن القاضي الميت، هو المدبر لكل المعارك التي تخوضها المقاومة ضد الإسبان، الشكوك صارت واقعًا حقيقيًا ولم تَسِر الأمور كما ينبغي، الجفاف والمرض ضربا الريف، عدوّان إضافيان إلى جانب تلك الثلة المتعاونة مع الإسبان، تفككت المقاومة ومعسكر القيادة في تفرسيت اجتيح، استطاع الإسبان الوصول إلى هناك ليُدمر كل شيء، استولى على المزيد من الأراضي، المتعاونون مع إسبانيا قاموا بأعمال دنيئة لإشعال فتيل المواجهات الداخلية وزرع الأحقاد واليأس وسط القبائل حتى برز أسد الريف كما يسمونه.



محمد بن القاضي عبد الكريم الخطابي؛ استطاع ذلك الرجل أن يوحد القبائل ويفرض سطوته عليهم، عمل جاهدًا ليجمع كلمة القبائل، ورغم تلك العراقيل نجح في ذلك، كان رد الإسبان قاسيًا على تلك الأخبار التي وردتهم عن دعم زعماء القبائل للرجل الجديد، نصبت المدافع على جزيرة النكور -صخرة الحسيمة- وقامت بقصف أحد الأسواق بقبيلة ايت ورياغل، كان القصف بمثابة تهديد للقبيلة ومعاقبتها على عدم حضور أعيانها إلى الجزيرة لاستقبال المقيم العام برينكر، لكن الورياغليين ردوا على هذا القصف ببنادقهم، أمرٌ مثيرٌ للسخرية.. لكن ذلك ما كان في استطاعتهم.. ومع توارُد الأخبار عن العقاب الذي حاق بالقبائل التي تعادي إسبانيا، تردد أعيان قبيلة تمسامان في التصدي للغزاة، بل وانصياع العديد منهم لرغبات الإسبان، وكانت تلك البداية.. الجميع يتسابق لتمسامان الثوار بقيادة ابن الخطابي، والإسبان بقيادة الجنرال سلفيستري الذي يسعى للانتقام من عائلة الخطابي وأهل الريف على خيانتهم له.

أتعرف يا صاحبي ذاتَ يومٍ كنتُ أبحث عن قصص الناس، أدوّن آلامهم وخوفهم.. طموحاتهم وآمالهم، حتى رأيت الحرب الحقيقية، حاصرني الموت وأجبرني على رؤية الحياة كما لم أرَها من قبل، الحياة ثمينة



للغاية.. هي واحدةٌ وإما أن تظفر بها وتقاتل لأجلها أو تقبع تحت طيات من تراب النسيان، تبدَّل كل شيء في حياتي بذلك اليوم، يوم أنوال..

القذائف وهدير الطائرات ونساء يدفعن رجالهن للمقاومة.. دوي المدافع وصرخات الألم وحشرجات الموت وأمل بنصر محتوم، صار كل شيء ملطخًا باللون الأحمر القاني، دماء خضبت جثث وأشلاء القتلى من الجانبين، أيام من الكر والفر تحت صهد شمس الصيف المميتة.. كان عليَّ أن أصور كل ذلك بناءً على رغبة زعيم الريف الجديد محمد بن عبد الكريم الخطابي، الرجل عازمٌ على القتال والمقاومة بكل السُبل، استطاع محاصرة عدة بلدات وقرى يتحصن بها قوات الإسبان، بعد توقف زحفها بفعل المقاومة الشديدة.

وفي المقابل كان سلفيستري استقر في قرية أنوال بينما رجاله محاصرون في إغريبا، منح طائراته ومدفعيته أمرًا بحرق الأرض وتدمير كل شيء؛ لفك الحصار عن جنوده، ولكنه فشل.. طوق رجال الخطابي محيط إغريبا، وصار الإسبان محاصرين، أيام مرت ومناوشات لا تتوقف، الذخيرة تكاد تنفد ولم يعد هناك ماء للشرب، اقتضت خطة الخطابي بجعلهم يعطشون، معارك يومية على عدة جبهات، وشُرب البول صار ضرورة للحياة، كنا نتخفى بين الصخور والأشجار



نراقبهم، ولا يستطيعون رؤيتنا، إن حاولوا الخروج تحصدهم بنادق المقاومة، كنت شغوفًا بتلك اللحظات ولكنَّ سرعانَ ما تبدد ذلك الشغف، لم أتحمل رؤية كل هذا القتل وتساءلت بداخلي، لما يتقاتل البشر فيما بينهم؟ ولأجل ماذا؟ ربما أتعاطف مع أولئك المساكين المدافعين عن أرضهم وعرضهم، ولكن على الجانب الآخر هؤلاء الجنود الإسبان لديهم عائلات وأبناء وقصص في انتظار الاكتمال، كلاهما لديه أحلام وطموحات ومن ينتصر اليوم يُهزم غدًا، والموت لا يفرِّق بينهما.

استعمل رجال الخطابي المدفع الذي غنموه من أبران لقصف إغريبا انطلاقًا من إحدى المرتفعات بمنطقة قريبة تسمى ثيزي عزة، وعلى أثر القصف قرر الإسبان الهجوم للخروج من ذلك المأزق وفك الحصار، فكانوا كالفأر الذي دلف إلى المصيدة بمحض إرادته، قُتِلَ منهم عدد كثيف، ومنهم قائدهم وفرَّ البقية إلى أنوال، كان يومًا مشهودًا صورت وسجلت لقطات مثيرة لهجوم الثوار، كان عليك رؤية وجوههم وذلك البريق في أعينهم، اجتياح إغريبا لم يأخذ الكثير من الوقت، انتصار ساحق وغنائم وفيرة، مدافع وخيل وبغال ورشاشات وبنادق حديثة والأهم من ذلك قطع خط الإمداد عن أنوال.. حيث يقبع سليفيستري.



بعد عصر يوم الجمعة الثالث والعشرين من يوليو أصبح معسكر أنوال مطوقًا من كل جانب، حشد لم يرَ الريف مثله كما قالوا، اجتمعوا لهزيمة إسبانيا، جُرت المدافع بالخيل والبغال ونُصبت فوق التلال القريبة وحفرت الخنادق، ومحمد بن عبد الكريم الخطابي صار يتجول بين رجاله، يربت على ظهورهم ويثني على همتهم، الوجوه باسمة مستبشرة والحماسة تصل إلي ذروتها، بينما الحصار يشتد على الإسبان وتتهاوى عقولهم بالرغم من أعدادهم الغفيرة، كانوا خائفين وهرب منهم عددٌ من الجند وقعوا أسرى في أيدي الريفيين، وتريث الأسد في الهجوم وانتظر ما سيقدم عليه سيلفيستري، وبالفعل لم ينتظر الأخير كثيرًا، بعد يومين قصفت الطائرات الإسبانية محيط المعسكر، وتهاوت القذائف كالمطر فوق رؤوسنا، أطلقت المدفعية نيرانها على التلال والجبال التي نتحصن بها، ولم يزِد الأمر من عليها إلا ثباتًا، وفي المساء هجمت القوات الإسبانية برفقة عددٍ من المرتزقة المغاربة على خنادق الثوار لكن الهجوم فشل تمامًا وقُتِلوا جميعًا، وبعد هذه الهجمة الفاشلة أصدر الخطابي أوامره بإحكام الخناق على أنوال، قطع طريق الانسحاب على سيلفيستري، كنت إلى جواره حين جاءته أنباء أسعدته، سيطر رجاله



على كل سُبل والمسالك المؤدية إلى بنطيب وغيرها من المراكز التي يسيطر عليها الإسبان.

وقف على ربوة تطل على قاعدة الإسبان المحاصرة قائلًا:

- مَن دخل إلى أنوال بمحض إرادته لن يخرج منها إلا بإذن من الخطابي.

أيام مضت وتأكد سيلفيستري أن الدعم العسكري الذي طلبه لن يصل، خذله قادته الأكبر منه، ولم يعد الملك قادرًا على مساعدته في ذلك المأزق الذي وضع فيه نفسه، أخذته العزة والكبر ورفض التفاوض مع الخطابي، كانت الأخبار تأتي من داخل معسكر الإسبان بطريقة ما، وفي صباح الخامس والعشرين فوجئنا بتحرك الجيش الإسباني كانوا ينسحبون بشكل فوضوي، ربما حدث شيء بداخل المعسكر دفعهم إلى الخروج بهذه الطريقة.

ومرت من فوق الرؤوس طائرة صاحبي حدو الأكحل، يحلق على ارتفاع منخفض، كان قريبًا من الأرض مثيرًا الغبار وهدير المحرك يدوي في الأذان، أحسست في إحدى حركاته البهلوانية أن مراوح الأجنحة ستطيح بأعناق الخيل المندفعة لحصد أرواح الإسبان، سيل جارف اندفع نحو مركز أنوال، والتقى



الجَمْعَان، اشتباكات بالسيوف والخناجر والجياد تطيح بمن في طريقها، كانوا ينتقمون من إسبانيا.. ويفتكون بفلذات أكبادها دون شفقة، فرسان يطلقون النار من فوق الأحصنة العفية، قنابل يدوية الصنع تلقى بين الجنود الإسبان، القتلى بالمئات وسنابك الخيل تدهس الجثث، الدخان يتصاعد من داخل معسكر أنوال، وحدو الأكحل ارتفع إلى سقف السماء يحلق كنسر عملاق يراقب المقتلة العظيمة، ثلاث ساعات وانقشع الغبار ليكشف عن أكثر من ألفي قتيل من الجيش الإسباني، والغنائم كانت بمثابة كنوز علي بابا، مدافع وطائرات وشاحنات وصناديق أسلحة وذخيرة لم يرَ أهل الريف مثلها من قبل، انتصر الخطابي وأحسب أن اسمه سيسجل في التاريخ، ورأيت جثة سيلفيستري ولم أتوقع له تلك النهاية قط، أذكر كيف كان متكبرًا مغرورًا، ولكنه كما قال عنه الريسوني، غبي ألقى بنفسه وجيش بلاده في مَهْلكة عظيمة انتهت بموته هو وجنوده، أما أنا فقد علمتُ في هذا اليوم أني لم أعد رينيه الذي أعرفه.

أنهى جوزيف قراءة الرسالة المكونة من أربع ورقات، بقي جالسًا في مكانه يفكر بما حدث لصاحبه، يبدو أن رينيه رأى الكثير من الأهوال، ولكن رسالته الثانية المعنونة باسم باريس يبدو أنها تحمل بعضًا من



الأمل، تاريخ إرسالها قريبٌ، تحسس المظروف برفقٍ وتردَّد في فتحه ثم وضعه جانبًا، ارتدى ملابسه وعدل هندامه أمام مرآة بالكاد يرى فيها وجهه، وخرج.. قضى يومه في المعسكر مبتعدًا عن الأحاديث الجانبية عن تلك العصابة المخربة التي قُتلت وقطعت رؤوسها ليكونوا عبرة لمن يحاول العبث مع الفيلق ورجاله، يتباهى الجند بفعلتهم ويشرحون كيف قاموا بالأمر، لوهلة رآهم وحوشًا ذات مخالب وأنياب تقطر دمًا قبل أن ينهض ويعود إلى غرفته، كثير من الأفكار مرت برأسه قبل أن يمسك برسالة رينيه الثانية ويفتحها.كانت قصيرة مقتضبة تفوح برائحة الموت، مات والد رينيه وعاد الأخير إلى باريس لإنهاء مراسم العزاء، أخبره أنه سيعود مرة أخرى إلى مليلية، والتي ربما تسقط في يد الريفين قبل عودته، كلمات ذات شجن ترثي حاله وحال محبوبته «آن» التي تنتظره بمدينة طنجة، لن يستطيع الذهاب لها في الوقت الحالي، أرسل لها خطابًا طويلًا كما قال، أخبرها فيه أنه سيأتي حتمًا وإن تأخر لقاؤهما.. كان الأمل يظهر من بين السطور واشتياقه لـ «آن» بدا جليًا بين الأحرف ولكن الأسى وحزنه على والده كان أكبر خسارة له، سيجعل من زيارته إلى باريس هدنة واستراحة لعقله وقلبه مما رآه من أهوال في حرب الريف.. وختم



الخطاب بجملة صغيرة: «الحياة قصيرة يا كليمس فاغتنم لحظات السعادة منها».

****

كثافة كلمات رينيه وإسماعيل أرقت مضجعه لليالٍ عدة، ذكريات جمة هاجمت عقله فراح يبحث عن مخرج من تلك الشراك التي وقع بها، التفكر في المستقبل الذي هو الحاضر غدًا، والحاضر الذي هو مستقبل أمس، أما الماضي فكان بؤرة سوداء بالذاكرة، كل يوم هو ماضٍ وحاضر ومستقبل، وهو عالقٌ بين كل هذا.. لا يدري ما عليه فعله فكل أصحابه اختاروا طريقهم وسار كل منهم إلى درب حاضره ومستقبله، تركوا الماضي بمكانه وكل تلك الذكريات السيئة أخفوها جيدًا تحت ثرى الذاكرة، ما الذي يفعله هنا في مكناس؟ يدرب الجند الجديد بسلاح المدفعية! يعيش أيامًا رتيبة متشابهة ولا يملك صورة لذلك المستقبل القادم.. لكن ما هو القادم؟ وماذا عليه أن يفعل في هذه الحياة؟! انضم إلى الفيلق، وبحث عن الموت ولكن ذلك الأخير لم يصادفه، ظل عقله يحدثه سائلًا هل عليه أن يتخذ دربًا جديدًا باحثًا عن جدوى هذه الحياة.. أم يظل قابعًا هنا في تلك الثكنة حتى يقضي أجله.



استيقظ على حركة بغرفته، الظلام يحيط بكل شيء بعد أن أكلت النيران ما تبقى من الشمعة الوحيدة، لا يدري كم الوقت، ولكن شيئًا ما يعبث في الركن، ربما كان جرذ ضلَّ الطريق، حاول أن يخلد مجددًا إلى النوم ولكن العبث بأغراضه استمر، نهض يبحث عن الثقاب بجوار الطبق النحاسي الذي يحوي ما تبقى من رفات الشمعة، أشعل عود ثقاب لتتبدد العتمة من حوله، راح يجول ببصره في الأرجاء، لا شيء.. عود الثقاب احتضر رويدًا حتى خمدت روحه، عاد الظلام مجددًا وتملك من المكان، حاول إشعال عود آخر.. حاول مرة ولم يفلح، والثانية ولم يجنِ سوى شرارة، وفي الثالثة اشتعل رأس العود ليضيء وجه برز من الظلام فجأة.. تراجع خطوتين إلى الخلف فزعًا، وانطفأ عود الثقاب واحتل الظلام المكان مرة أخرى.. كان خائفًا يستند إلى الحائط يحاول كتم أنفاسه المتلاحقة، تَعرق وارتجف جسده، وبيد مرتعشة أشعل آخر عود ثقاب، المكان خاوٍ.. لا أحد هنا سواه وما كان ذلك الشخص إلا خيالاً صوَّره عقله.. عود الثقاب مشتعل ووهجه يضيء المكان على استحياء، العود لا يتآكل والنيران ثابتة.. شيء غريب يحدث.. المكان يتبدل رويدًا.. جبال شاهقة تحيط بصحراء شاسعة، هواء عاصف ونيران الثقاب لا ترجف، السماء ذات



الزرقة الداكنة تعج بآلاف النجوم المشعة، هي أيضًا بدأت تتبدل على مهلٍ وضياء الفجر يكسو سقف السماء من فوقه.. الألوان تتمازج وعلى مقربة منه ظهر الرجل.. لم ينسَ ملامحه رغم مرور فترةٍ على عدم رؤيته، ملاك الرب عاد من جديد، ولكن هذه المرة مبتسمًا، وقورًا كما عهده يغدق عليه بنظرات طمأنت قلبه، كل هذا وعود الثقاب ما زال مشتعلًا ولم يتآكل، الجنون عاد إليك مرة أخرى يا جوزيف هكذا حدَّث نفسه، ولكن المهيب تحدّث دون أن تتحرك شفتاه:

- لست بمجنون يا أِلمان. ولكن وقتك قد حان.

سرت قشعريرة بأوصاله وكأن كلمات الرجل تسير بمجرى الدم، شعر بها وحاول أن يقول شيئًا ولكن الملاك أكمل قائلًا:

- امضِ في سبيلك ولا تلتفت إلى الماضي، اذهب إلى حيث يريد قلبك فالحياة لا تنتظر أحدًا، كل من حولك رحلوا وأنت قابع هنا لا تتحرك كشجرة ميتة تنتظر ريحًا صرصرًا ليجتثها من فوق الأرض.
- مَن أنت، ولماذا تلاحقني؟
- أخبرتك من قبل، ولكنك نسيت..
- لا أنسى.



- بل نسيت، كما نسي آدم فنسيت ذريته.. في زمنٍ ما كان اسمي رشيد سكنت هذه الأرض، والآن أنا مجرد روح هائمة، وقد أكون وهمًا بخيالك ربما..

- وهم؟؟ ألم يرَك ذلك السنغالي كمارا ذات يوم.

- رأيته ورآني.. ومنحته السبيل للنجاة ولكنه لم يقوَ على الرحيل، لم يُرد أن يبدل حياته التي اعتادها، وحين يتعلق الأمر بالاختيار يختار البشر أسهل الطرق للحياة أو الموت.

- رأيتك في ذلك اليوم بسجن دسلدروف العسكري.. ورأيتك مرارًا هنا، هل أنت شبح؟

- أنا عبد الله، أوكلت بأمرك وبرشدك والأمر راجع إليك، ما زال لك في العمر بقية، وهناك أناس ينتظرونك لنجدتهم.

- أين؟

- ابحث عنهم بين الوديان والسهول، تسلق الجبال وارتقِ هضاب المجد يا ألِمان، منحك الله شيئًا وجاء بك إلى هنا لسبب يعلمه فكن في الموعد.

- الله؟



- نعم، الله وحده يعلم مصائرنا، توكل عليه وسيزيل لك كل صعب. واعلم أن هناك دومًا رجاء مهما أغلقت الأبواب وضاقت بك سبل الحياة، لا تنطفئ من خيبة أو عثرة أوجدها الله في طريقك، ففي كل حزن وضيق يصيبك هناك حكمة من الله، الفجر يسطع كل يوم قاهرًا الظلام والعتمة، لا تيأس ولا تركن لحياة دون معنى أو هدفٍ، فما خلقت لتحزن وتنغلق على ذاتك وتضيع أيامك في هذه الدنيا هباء.
- لا أفهم شيئًا.
- سيأتي يوم وتفهم كل شيء يا أَلِمان، فقط اتبع قلبك وسيرشدك إلى الصواب والإيمان.
- اتبعته ذات يوم وفقدث مَن أحب، وفقدت معهم كل معنى للحياة.
- يكفيك أنك حاولت، فعلت الصواب حينها.. ولكن هل كانت تستحق فعلك النبيل لأجلها؟! الحياة ماضية والإبحار عكس اتجاه الريح يرهق البحارة ويهتك الأشرعة بل ويفتك ببدن أقوى السفن.. أترك الأمور تمضي إلى نصابها وستجد ما يسرك.. اِتبع قلبك يا أَلِمان.

اختتم كلماته وضياء الشمس يَغمر الصحراء، كغبار يعبث به الريح، تبدّد وتلاشى رشيد، وبقي جوزيف وحيدًا يحدق في الخواء حتى انطفأ عود الثقاب.. استيقظ ليجد نفسه على فراشه، تثاءب وظلّ يحملق في السقف وضوء النهار يتسلل رويدًا إلى الغرفة المظلمة، اللعنة! عادت تلك الأحلام المبهمة لتزيد حياته تعقيدًا، أخرج يده من أسفل الوسادة استعدادًا للنهوض.. ولكنه تجمد في مكانه وهو يحدق ليديه وما زال ممسكًا بعود الثقاب.

******

أشرقت شمس اليوم الأول من العام الجديد، وارتفع دوي البوق ليوقظ المعسكر من سباته وسكونه، لم يمضِ كثيرٌ من الوقت حتى اجتمع الجند من كل حدب وصوب، تراصت الطوابير وتوازت السرايا، تقدم الحرس الشرفي للقائد بخطوات واسعة ثابتة الإيقاع، وعند صاري العلم توقفوا ودمدمة الطبل تتسارع بينما يُلضم أحدهما العلم الجديد بحبل الصاري الحديدي، بدأت الجوقة بعزف النشيد الفرنسي، كان مشهدًا مهيبًا ولكنه مُضحك، فقط صوت القائد العام وزمرة من ضباطه من يرددون الكلمات، وكل الصفوف صامتة كصمت القبور.. انتهى العزف وتوقفت الثلة عن الغناء،



وخيم الصمت لحظات قبل أن يرتقي الجنرال مصطبة حجرية ويبدأ في إلقاء كلمته:

- رجال الجيش الفرنسي البواسل.. عام جديد أتى علينا ونحن هنا بعيدون عن ديارنا وأهلنا، ولكننا فخورون بما نقوم به من أجلهم، نحن الصخرة التي تكسرت عليها الهجمية والبربرية، نحن هنا لننشر الحرية والعدل والمساواة، إنكم تقومون بأنبل عمل على هذه الأرض من أجل فرنسا ومن أجل الإنسانية..

شَرد جوزيف كبقية زملائه بينما يلقي الرجل كلماته المغموسة بإناء الكذب، هل يُصدق ذلك الجنرال ما يقول؟ أم أنه اعتاد الكذب والتفاخر بخيالات لم تحدث ولن تحدث.. أليس ذلك الرجل هو ذاته الذي أمر بالاحتفال لمقتل أوحموا الزياني.. أو ليس هذا الرجل من أمرَ فرقة المغاوير بحصد رؤوس المقاومين وذبحهم؟! أيّ ازدواجية هذه التي يعيشها.. أتبع حديث الرجل عرض عسكريٌّ مهيب ثم تكريم لبعض الجند والضباط.. وحصل جوزيف على ترقية جديدة وميدالية فضية، كان الأمر يثير البهجة بداخل أي شخص إلا أن ذلك الألماني لا يبتسم، هكذا قال بعض الفرنسيين.. رغم سنوات عمره التي قضاها معهم



يعتبرونه عدوًا وخائنًا لبلاده فكيف يثقون به وقد ترقى.

لم نخلق عبثًا، كل صُنع لغاية ما.. هكذا هو الأمر، حتى وإن تعددت السبل نسير إلى هدفنا بطرق مختلفة، عقبات هذه الحياة مجرد اختبارات لنحدد بها مصائرنا، نحن البشر نخطئ ونصيب، لسنا مثاليين وليس لدينا أجنحة ولا نستطيع فعل المعجزات، نحن بشرٌ ولنا في الحياة مقام، وسواء قَصر أم طال الأمد بنا؛ فعلينا المضي قدمًا، من يلتفت يتأخر ويَسقط على وجهه، وفي كلِّ يَومٍ جديدٍ علينا الاختيار أن ننهض مجددا أم نبقى منبطحين نولول ونرثي حظنا السيء، نلوم الدنيا والناس والعيب فينا نحن، نجزل العتاب على أفعال الآخرين وننسى أنفسنا، وكأننا لم نفعل شيئًا لنستحق ما نحن عليه.. كل هذا كان يدور بعقل جوزيف لأيام وأيام حتى اتخذ قرارًا لا رجعة فيه، وما كانت رؤية رشيد وخطابات صاحبيه إلا شرارة أشعلت حماسة لخوض تجربة جديدة، أن يكون ذا قضيةٍ وهدفٍ.. سئم العيش وسط كل هذا العبث، اكتفى من كونه جزءًا من مُحتل يذيق أهل البلاد صنوف الويلات، رؤوس مقطعة وأُناس معلقة على المشانق، وآخرون يُرمون بالرصاص، موت وموت مضاد والحرب لا تتوقف.. إنه بالجانب الخاطئ وفرنسا كبعوضة عملاقة



تمتص خيرات البلاد، صار لإسماعيل زوجة وعيال.. وكذلك عبد الله، أما رينيه فقاب قوسين أو أدنى من تحقيق حلمه والزواج من محبوبته التي تقطن طنجة، ماذا تفعل هنا يا جوزيف؟ ليست هذه حياة بالمطلق، يسمع كل يوم عن فرار جنود من شتى فروع الجيش، يدخلون إلى الجبال والوديان ولا يخرجون، يتداول القادة والجند أنهم قتلوا ولكن بعد فترة يظهرون كمغاربة محاربون.. يقاتلون فرنسا بغية طردها من تلك الأراضي.. سبقهم الصربي ولحق به التركي، وجميعهم يتحدث عن حرب الريف والأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، إسبانيا الجريحة تحاول لملمة ما تبقى من كرامتها واستعادة مدينة الناظور.. بينما يقوم الخطابي ورجاله بتحرير مدينة أخرى. الأمر يثير فيه الحماسة، صار هناك نِدٌّ قويٌّ يصارع إمبراطوريتين، يقاوم الاحتلال ويقوم بالذود عن الضعفاء. ولكن ماذا بعد؟!

أحضر قلمًا وورقة وعلى ضوء مصباح زيت صغير بدأ الكتابة:

صديقي رينيه

لقد اكتفيت من كل هذا.. لم يعد لي مقام هنا بين صفوف الفيلق الأجنبي، يظن بعضهم أنني خائن لأنني ألماني، ما زالت الشكوك تحوم حولي بأني من ساعدت



المقاومة لتسلب المدافع، إنهم يذكرون هروب إسماعيل وبقية الرجال.. نظرات البغض تحيق بي هنا، وذلك الجنرال قائد المعسكر كاذب.. لا يكف عن الكذب ولا يتورع عن القتل والتنكيل بالضعفاء.. لقد سئمت هذا الوضع وسأرحل الليلة عن مكناس.. لا أعلم أين أذهب ولكن إن وصلتك رسالتي هذه فكن على يقين أننا سنلتقي يومًا إن لم يصادف الموت طريقي..

جوزيف أوتو كليمس

صديقك ألِمان.

****

نثر بدر التمام غباره الفضي فوق مكناس، اكتست أسطح المنازل والمآذن بضوئه الخافت، السكون يجثم على المدينة وطيور اللقلق تغط في نوم عميق بأعشاشها، المشاعل القليلة التي تحيط بمعسكر الفيلق الأجنبي بددت الظلال من حول الأسوار، والحراس أخذتهم سِنَة من نومٍ، لم يتبقَ على الفجر إلا القليل حين دلف إلى الحظيرة مستترًا بالظلال، بخفة أخذ يتجول هنا وهناك قبل أن يصل إلى هدفه، ثبت السرج على ظهر الجواد المتين قبل أن يخرج تاركًا الحصان في حيرة، ما لبث أن عاد حاملًا حقيبة من قماش راح يربطها بالسرج إلى جانب بندقيتين، انتهى وربت على



ناصية الفحل القلق محدثًا إياه: سنذهب يا صاح ربما يكون لك خليلة هنا لن تراها مجددًا.. اخترتك لأنك الأقوى هنا وأتمنى أن تتحمل تلك الرحلة القاسية إلى المجهول.

زفر الحصان وأطلق صهيلًا، فهز جوزيف رأسه مردفًا:

- حسنًا، يبدو أنك موافق.

سحبه من اللجام حتى باب الحظيرة وتلصص على الساحة، المكان خاوٍ إلا من حارسي البوابة الموصدة، زفير طويل عدل بعده هندامه وعدل وضع قبعته ثم سار جاذبًا جواده، بخطوات هادئة قطع الساحة إلى حيث يقف الحارسان اللذان كانا يتفحصانه، لم يتبين أحدهما هويته حتى صار على مسافة قريبة منهما صاح أحدهم:

- إلى أين أنت ذاهب في تلك الساعة أيها الجندي؟

- خارج لمدشر بوفكران لإيصال رسالة هامة.

- لم يخبرنا أحد بالأمر، هل لديك تصريح؟

- أنا العريف جوزيف كليمس، الأمر سري للغاية.

تفحصه الآخر وأومأ برأسه:



- نعرفك سيدي، ولكن يجب أن يكون لديك تصريح للخروج في تلك الساعة، تلك الأوامر كما تعلم.
- حسنًا فليأت أحدكما معي إلى القائد العام لنخبره بالأمر، أمسك زمام هذا الجواد حتى نعود.

وضع الحزام الجلدي للجام بيد الجندي واستدار للآخر مستطردًا:

- هيّا لنذهب، ولكن عليك تحمل عواقب ايقاظه في تلك الساعة.

تبادل الجنديان النظرات قبل أن يتحرك أحدهما معه، سار لبضع خطوات بجوار جوزيف قبل أن يتوقف ويعدل عن رأيه قائلًا:

- حسنًا، لا داع لأن نقلق القائد، أنا أصدقك.

قال جوزيف بحزم:

- عليك أن تؤدي واجبك يا رجل، لنذهب ونتأكد من القائد.
- سيدي، أنا أصدقك يمكنك الذهاب وسأسجل اسمك في دفتر الخروج.
- حسنًا، كما تريد.



عادا أدراجهما وامتطى جوزيف حصانه، فتحت له البوابة ليتدفق منها هواء بارد ملأ به صدره والجواد يزفر، ثم انطلق يضرب الأرض بقوائمه بقوة، ومن خلفه كان الرجلان يلوحان له متمنيين له السداد والسلامة في مهمته.

****

أيام من المسير بدروب وعرة، في الليلة الأولى بدل ملابسه العسكرية بأخرى مغاربية، جلابة بيضاء وعمامة تقيه الشمس، جلس أمام راكية نار موقدة تأكل بنهم شعار الفيلق الأجنبي وعلم فرنسا الصغير المثبت على الكتف، واليوم الثاني اتخذ سبيله إلى إفران، تحاشى الطرق الرئيسة وآثر التخييم ليلًا تحت الجروف الوعرة، كان يسير على غير هدى تلفحه الشمس بصهدها، يأكل قليلًا من التمر والخليع(1)، الذي أوشك على الانتهاء، رحلة صعبة والأرض تزداد وعورة، ولا رفيق له يؤنس وحدته إلا حصانه، من الجيد أنه وجد جدول ماء فشرب حتى ارتوى وملأ قربته، أقام في كهف صغير ليومين حتى يرتاح هو وصاحبه الهادئ، وبعد ذلك أكمل المسير ليومين، ينام على صهوته ويأكل كذلك، ينزل عنه لساعتين ليريح ظهره، ويمنحه بعض الحرية ليركض هنا وهناك ويتمرغ



بالأرض الترابية، ذات يوم وهو صغير تمنى أن يكون لديه حصان، ولكن المشهد الذي كان دومًا بخياله هو الركض في حقول شاسعة لا نهاية لها، ولكن الواقع كان أصعب.. تملك الحصان ولكن بأرض قاحلة جدباء لا ماء يرويها، وذات نهار تعثر الجواد.. لم يعد يقوى على المسير فوق الأرض الصخرية الوعرة، ولا أي أثر لقبائل الأطلس الأمازيغية التي يبحث عنها، لا وجود لبشر في هذه الأرض المقفرة، ضل طريقه وسط الجبال وحصانه مجهد وحوافره دامية، قطع ملابسه وأخذ يضمدها له، ونظرات الحيوان حزينة لما آلت إليه الأمور، كانا وحيدين وسقفهما سماء تُبدل ألوانها وأطلت عليهما عيون النجوم، نفد الطعام والماء لا يكفي شربة للجواد المريض، وتلك الأرض القاحلة لا يرعى فيها سوى العقارب والثعابين، كانا عليهما إكمال المسير بخطوات مرهقة فوق الأرض الصلدة، يتصببان عرقًا والشمس تستلذ بعذابهما، وفي السماء يُحلق نسر ينتظر موتهما، رمقه جوزيف بتكبر وصاح وقد تملَّك الهذيان منه:

- لن تنعم بقضمة منا أيها القمام الدنيء.. ما تركت كل هذا ورائي لأكون طعام نسر بائس هزيل.

كان يشعر بالإعياء والعطش، وصوت معدته تقرقر من الجوع، يسيران تحت سفح جبل شديد الانحدار،



والشمس تمضي لمستقرها ببطءٍ ولا يعود قادرًا على إجبار جفنيه مفتوحين، سقط عن صهوة الجواد على حين غفله، لا يعرف أي جزء في جسده يتألم أكثر والمكان الشاسع صار يضيق عليه أكثر فأكثر حتى غفا..

استيقظ على صهيل الجواد، الليل قائم والظلام يحيط بكل شيء، مرة أخرى أخذته سِنَة من نومٍ وحين فتح عينيه.. وجد السماء أرجوانية بلون فجرٍ جديدٍ ورشيد يقف بالقرب من الجواد، يركض ذلك الأخير يمينًا ويسارًا فرحًا ويقف على قائمتيه الخلفيتين، الرجل ذو الثوب الأبيض الناصع يرفع يديه ويلوح، فيزداد هياجُ الحصان المحصور بين الجبل والجرف، كان يحدق بهما غير مصدق لما يراه، بالتأكيد كل هذا مجرد وهمٍ صنعه خياله المحتضر، ولكن مهلًا. الصهيل لم يكن كصهيل فرح ولهو، كان مختلفًا ويزداد ارتفاعًا وحدة.. الجواد يحاول الهرب وليس اللعب.. إنه خائف وطيف رشيد يسير ببطء نحوه يمينًا ويسارًا ويقترب أكثر ليحاصره، ثم صاح صوت هادر رددته الجبال: استيقظ يا أَلِمان.

اعتدل جالسًا والعرق يتصبب من جبينه أنهارًا، هاله ما رأى وحاول جاهدًا إدراك ما يحدث، كان الجواد يَركض فزعًا مثيرًا سحابة من الغبار في المكان، ومن



بين الغبرة وبذات البقعة التي كان يقف بها رشيد برز فجأة.. ذلك الشيء، يزأر مكشرًا عن أنيابه مطاردًا الحصان الخائف، إنه ما زال يَحلم.. ولكن رجفة عجيبة سرت بجسده ومخالب الوحش تضرب الحصى فيثير التراب، كان عازمًا على صيد الجواد الذي أخذ يركل بخلفيتيه الهواء، ويصهل طالبًا العون.. لم يَكن حُلمًا. فالموت هنا تجسّد في أسد بربري عملاق، ذي لُبدة كثيفة سوداء عليها غبرة، يطارد روحًا تصارع وتسعى إلى النجاة، محاولة فاشلة لعرقلة الحصان القوي، حاول الميل بحركة حادة ليفلت من براثن الوحش الذي قَفز بدوره مطوعًا عضلات جسده وملتويًا على نفسه، المشهد صار يتباطأ حتى كاد أن يتوقف الزمن لبرهة، عينا الجواد ترتجيان الحياة.. تفيض بالخوف وعلى سطح مائها انعكست صورة الأسد وأنيابه بارزة خارج فيه مبتسمًا.. لحظة مرت تسارع بعدها الزمن ليقبض على رقبة الجواد الفزع.. كان يمتطيه محتضنًا إياه، غرس مخالبه بلحم صدر الحصان الذي حاول التملص فسقطا، تعثرا بسرعة مذهلة تشقلبا رأس على عقب، الجواد يحاول الفرار والنهوض والأسد يصرعه أرضًا مرة أخرى، سحابة من غبار أثاراها راحت تبتلعهما سريعًا، وغَمر السكون المكان وجوزيف يقف خائفًا لا يرى ما حوله، غلفته العاصفة الناتجة عن تلك المعركة

المميتة، وبعد برهة سمع صهيل احتضار، كان الأخير ومن بعده طرقعة أتبعها حشرجة مرعبة، الغبار ينقشع رويدًا والجواد يرفس بساقيه الهواء، والليث الأطلسي جاثمٌ عليه قابضٌ على حلقه يعتصره، الدماء تسيل وتندفع بغزارة، حارة ساخنة لزجة لم تعتَدْها الأرض، عين الجواد الخاوية من الحياة ترمقه، هذا حلم يا جوزيف!! هكذا حدثته نفسه والأسد يرفع بصره نحوه، رمقه بتحدٍّ وظفر قبل أن يترك عنق الجواد الصريع، وبعد أن تأكد من موته، رفع وجهه المُشبع بالدماء وفغر فاه مزمجرًا.. تراجع جوزيف خطوتين إلى الخلف بينما ازدادت زمجرة الأسد شراسة، النهاية وشيكة يا جوزيف، من بين كل مواقف الموت التي تخيلها لنهايته، لم يتخيل يومًا أن يموت على يد أسد أطلسي بحجم بقرة ألمانية من دوسلدروف.

الموت يأتي على حين غرة، هكذا تعلم. وحين سعى له بمحاولته لشنق نفسه لم يره، ولكن شعر بقسوته الشديدة، يذكر كيف كان ألم انسلاخ الروح من الجسد، هذه المرة يراه بوضوح والدماء تقطر من أنياب كالخناجر، لا مفر ولا جدوى من المقاومة، البندقيتين مثبتتين على سرج الجواد القتيل، هل يُصارع أسدً بربريٍّ بالحجارة والحصى؟! لن يُغمض عينيه ولن يَركض إن كانت هذه النهاية: هَلم.. هيّا تمتم بها والأسد



يقطع المسافة الفاصلة بينهما وثبًا.. وقبل أن يصل إليه انطلق دوي رصاصات أصابت أماكن متفرقة من الأرض، تراجع الأسد مذعورًا، لكنه لم يَهرب، ظلَّ يزمجر والطلقات تضرب الأرض من حوله، عاد إلى جثة فريسته وأسند قدميه الأماميتين فوق بطن الحصان وأطلق زئيرًا قويًا توقفت بفعله زخات الرصاص.

لحظات من الصمت والترقب مرت وجوزيف يتلفت حوله، لا أثر لأحد والليث ما زال يرمقه بمقت والزبد الدامي يسيل من شدقيه، لم يكن ما عليه فعله حتى سمع صوتًا أجش يقول بالعربية:

ماذا تنتظر؟! تحرك على مهل، لا تولِّه ظهرك ولا تنظر في عينيه.مصدر الصوت كان الربوة المرتفعة خلفه، فَعل ما أملاه الرجل عليه وحينها رأى الأسد يجذب فريسته ويجرجرها مبتعدًا هو الآخر، كان يجر جثة الحصان الكبير بسهولة ويُسر، ومن بين الصخور برز الرجال الملثمون مسددين فوهات بنادقهم نحو الليث المبتعد بتحفز، ارتقى جوزيف الجرف الوعر وأخذ يصعد بصعوبة، يختار موضع قدمه بحذرٍ وتردُّد حتى امتدت يدٌ لتساعده، رفع بصره ليجد رجلًا ضخم البنيان كث اللحية يرميه بنظرات متفحصة، أمسك يده وجذبه إلى الأعلى وجوزيف يقول بالعربية بصعوبة:



- شكرًا لكم.. حسبت أن نهايتي قد حانت.

لم يجبه الرجل بل استدار وسار إلى حيث يقف بقية الرجال، أعينهم تحيط به وبنادقهم أيضًا، ظلَّ جوزيف واقفًا يحملق فيهم حتى سَمع صوتًا أنثويًا يحدثه بالفرنسية:

- العريف جوزيف أوتو كليمس أليس كذلك؟ أم تحب أن أناديك بألِمان!

سَمع هذا الصوت من قبل، بدا له مألوفًا وهي تستطرد بارزة من بين الرجال:

- مرَّ زمن منذ التقينا آخر مرة.

ابتسم لرؤيتها وخفض رأسه قليلًا باحترام:

- آنسة إيطو، لم أتوقع مقابلتك مرة أخرى.

- للقدر تصاريف عجيبة سيد ألِمان، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- أنتِ قلتِها.. القدر.

وقفت أمامه وتلاقت عيونهما لوهلة قبل أن تشيح بوجهها قائلة:

- تبحث عن رفيقيك؟ أم أنك هنا لسبب آخر؟

- جئت للالتحاق بكم، والانضمام إلى المقاومة.

عادت إليه مرة أخرى بنظرات متفحصة تفيض بالدهشة:



- لماذا تريد ذلك؟!
- لنفس السبب الذي جعلك تنقذينني من براثن الموت ذلك اليوم.
- وما هو؟
- مساعدة المستضعفين والذود عن الثكالى، تحقيق العدل والحرية لأهل تلك البلاد.

ضحكت متهمكة قبل أن تقول بنبرة حادة تجلت في كلماتها:

- إننا نقاوم، لأن المقاومة هي كرامتنا، نُغني ولو لم تكن هناك أذن تسمعنا، ونعيش كل يوم ونحن على ثقة أن النصر سيأتي يومًا، حتى لو لم نكن موجودين بهذه الدنيا، نسير ونحن على دراية بأن أمد المعركة طويل، وكل ما علينا هو أن نقاوم فقط.

دارت حوله بخطوات بطيئة وهي تردف:

- أتدرى لولا أن إسماعيل وعبد الله كانا دائمي الحديث عنك وعن نبل أخلاقك وشجاعتك لما كان هذا الحديث بيننا الآن، لا أستطيع الجزم بصدق كلامك ولكن وعلى كل حال ستسير معنا إلى حيث نعسكر وبعدها ننظر في أمرك.



أنهت كلماتها وأشارت لأحد الرجال فجاء من خلفه ووضع عصابة من قماش على عينيه، تفاجأ جوزيف من الأمر فقال والرجل يحكم ربط الشريط القماشي:

- لماذا كل هذا؟ إلى أين نحن ذاهبون!

ردت عليه ببرودٍ:

- لا تسأل، على كل سيكون ذلك أفضل من تركك هنا لتكون وجبة للأسود.
- على ذِكر الأسد، ملابسي وأغراضي وبندقيتي هناك هل نستطيع أن نأتي بهم؟
- سنرى ذلك فيما بعد، مرحبًا بك في أرض الأسود سيد أِلمان.



٦

الصباح دونها

طنجة - ١٩٣٩

تقلّب بفراشه الدافئ متثائبًا، وضوء نهار خافت يمر عبر شقوق النافذة الخشبية متسللًا، ما زال الوقت مبكرًا على الاستيقاظ، ولكن لذكراها رأي آخر، سأل نفسه مرارًا لسنوات، هل ما حل به سِحرٌ سيرافقه للقبر؟! أم أنه كما يهمس المتطفلون الناعتون إياه بالمجدوب، المغاربة يعاملونه بلطف شديد وود محبب إلى نفسه، أما بني جلدته الرجال البيض من أوروبا يلقبونه بمجنون طنجة والفرنسي الغريب وأسماء كثيرة.. كلها تَخلص إلى أن لديه قدرة عجيبة على سرد الأحداث، ينصتون له فترى أعينهم كل شيء عيان.. يسحر أعينهم ببراعة تفوق سحرة فرعون، شخص عنده ما يمكنه من أن يكون عظيمًا ذا شأن كبير، ولكنه يكتفى بكونه راويًا لحكايات المنسيين، كبحّار وحيد لا يملك من العالم إلا قاربًا صغيرًا ببحر الخيال، عابر سبيل في تلك الحياة لديه من زاد الذكرى ما يكفي ليغرق به الوديان، زاهد مجنون يحاور البحر ويهيم لساعات بالدروبِ، يغزل من قصص الناس ما يسلُب به



الأذهان، وكل أسبوع يفيض عليهم بجود لسانه بقصص وحكايات كانت آخرها قصة «جوزيف كليمس ألِمان»..

اليوم هو السبت وعليه الذهاب إلى المقهى في المساءِ، ولكن الليل يأتي دونها على مهلٍ وببطءٍ كما هو حال النهار، وعقارب الساعة واهنة لا تقوى على السير، وإن أراد أن يمضي الوقت سريعًا فليس عليه سوى بعث ذكراها في الوجدان، وكيف يذكرها وهي لا تغيب عن باله، اعتدل جالسًا متطلعًا إلى جدار الذكرى كما أسماه، صور التقطها لها في كل لحظاتهما سويًا، هنا تضحك سعيدة وفي هذه شاردة وخصلات شعرها تتطاير بفعل نسمة هواء كانت محظوظة بلمسها، تصبح عيناه على وجهها البراق البسام، وإن بهتت الصور قليلًا لمرور الأعوام، إلا أنها أفضل ما يمكن أن يراه كل صباح، نظر إلى عينيها حيث كانت نبع الأمل يومًا، اغرورقت عيناه متمتمًا:

- كل الصباحات دونك كئيبة، يا قمر الصباح.

شَرد في ضحكتها وثغرها الرقيق المنفرج بعفوية، أسنانها الصغيرة التي زادتها حسنًا وجمالًا، ووجنتها المتوردة خجلًا اقتبست من زهر تشرين احمراره، تذكر شيئًا فنهض إلى الخزانة، أخذ يقلب فيه حتى أخرج صندوقًا خشبيًا، حمله محتضنًا إياه قليلًا قبل أن يضعه



فوق الفراش، تحسس ملمس غطائه وقام بفتحه بروية، لمعت عيناه حين رأى محتواه، مفكرة ورقية قديمة وعدة صور والكثير من الأوراق، أخذ يبحث بينها وبين الحين والآخر يمسك إحداها ويتطلع إليها، وما لبث أن فض ما بالصندوق على السرير، عشرات الخطابات والصفحاتِ، شذى عطرها يفوح من بين الأوراق الصفراء، كان يبحث بتوتر يعبث هنا ويقلب هناك، يقرأ عناوين المظاريف ويتحسس طوابع البريد والأختامِ، وجده أخيرًا.. مظروف أبيض صغير يحمل توقيعها وتاريخ يذكره جيدًا، في ذلك اليوم قرأ رسالتها، كانت الثانية في ترتيب خطاباتها، قرأها وكأنه يسمعها بصوتها العميق العذب الفياض:

- «مضى شهر على معرفتي.. بلَ كأنه دهر من الزمن، شهر كان كفيلًا أن يغير أشياء كثيرة في حياتي، شهر هو في حساب الواقع لكنه أكثر من سنوات بحسابي.. ملكتني كما لم يفعل أحد من قبلك.. لا أدري كيف.. ولا أين عثرت على مفتاح قلبي.. ما أعرفه أني سعيدة معك جدًا.. وأسأل الرب أن نلتقي مجددًا قريبًا.. أحبك».

تمتم اسمها بخفوت وضيق وأجهش بالبكاءِ، مقلتاه أمطرتا الرسالة بالدمع، كان حزينًا وحيدًا.. لا أحد



يفهمه ولا يَسمعه كأنه بوادٍ وكل الخليقة بوادٍ آخر، يود أن يصرخ باسمها للعالم لعلها تسمعه، ستعرف قدرَ حزنه عليها وكم يشتاقُ لها، لن يعاتبها في شيءٍ ولن يخجل من أن يبكي فرحًا لعودتها، سيعذرها ولن يكشف عن ندوبٍ هو صاحبها، هي وحدها تستطيع أن تعيد الألوان إلى حياته، كل الصور الباهتة ستنبض بالحياة وتزهر روحه من أجلها كسابق الأيام، ولكنه الآن كمصباح منسي منطفئ في غرفة معتمة ذات جدران من صخر بارد، عليه أن يخوض كل يوم غمار حياة لا يريدها لولا أمله برؤياها.. هنا طنجة العالية أرض أحلامه الموعودة وموطئ قصة حياته، عليه أن يخرج من تلك الحالة قبل الذهاب إلى المقهى في المساء، سيخرج من المدينة إلى عين قطيوط وبعدها سيسلك دربه عائدًا منه إلى باب البحر، سيضيع وقته وطاقته في السير بتلك الأنحاء الخاوية من الناس، ففي المساء سيكون عليه أن يواجه كثيرًا منهم، وعلى ذهنه أن يكون صافيًا تمامًا أمام فضولهم الذي يزداد يومًا بعد يومٍ، عليه أن يفعل معهم كما يفعل كل مرة، حين يسأله أحدٌ عن قصته وكيف جاء إلى هنا وما سبب تعلقه وشغفه بطنجة؟ يهرب.. بتغيير مجرى الحديث، إلقاء نكتة وحده يضحك عليها، أو بالمضي بعيدًا.



ارتدى جلابة صوفية وطربوشًا وخرج من المنزل، في مطعم صغير في سوق الداخل تناول إفطاره، طبق بيصارة ساخنة مع لقيمات من حَرشة أتبعها بكأس من الشاي الأخضر، كان جائعًا والآن امتلأت معدته، وعليه المضي إلى حيث قرر، شَعر أن هناك أحدًا يتبعه في الأزقة، تلفت مرارًا ولم يجد أحدًا.. وأثناء سيره في المدينة وجد مجموعة من الصبية يتعاركون، بالأحرى كانت الزمرة تضرب فرخًا صغيرًا، قبضاتهم الصغيرة وخربشاتهم لم تمنعه من الدفاع عن نفسه، كان قصيرًا وكانوا أشداء عليه، وحين تدخل ليفصل بينهم تعلق الصغير برقبة أحد ضاربيه وأخذ يعضه في رأسه، أضحكه المشهد وبصعوبة فصل بينهما، وبين الوعيد والتوعد انتهى الشجار ومضت الزمرة بعيدًا تاركين إياه مع الغريب.. مرت لحظات وهما صامتان يتطلع إلى الصبي الذي يعدل هندامه ويغمغم بكلمات بينه وبين نفسه، ربت على رأسه فأزاح الصغير يده وتطلع إليه قائلًا:

- ماذا تريد؟

ضحك ولوح بيده محدثًا إياه بالعربية أيضًا:

- لا شيء.. لماذا كانوا يضربونك؟

- لم يضربني أحد.



- حسنًا، لماذا كنت تضربهم أيها الشجاع؟
- لا يريدون أن ألعب معهم، يفترون الكذب ويقولون إن والدي خائن يعمل مع الإسبان.. أنت إسباني أيها السيد؟
- لا، فرنسي.. وهل يشكل ذلك فارقًا معك؟! ما اسمك؟
- يونس.. اسمي يونس.

حسنًا يا يونس، اختر رفاقك جيدًا وبعناية، فرحلتك في الحياة ما زالت طويلة، ابحث عمن يشبهك ويدفعك إلى الأمام، من يفهمك وحين تقتضي الحاجة يكون إلى جوارك، اختر من يدفع حياته ثمنًا لتكمل حلمك. ألقى كلماته ومضى بدربه، لاحقه الصبي مهرولًا وناداه:

- أيها السيد.. أيها السيد.

توقف والتفت متطلعًا إلى الفتى الذي استطرد حديثه:

- هل تريد مرشدًا بالمدينة العتيقة، أعرف كل دروبها وزنقاتها.

ابتسم وأومأ برأسه قائلًا:

- أتعرف يا يونس، أنا أسكن طنجة قبل ميلادك بسنوات، لكن لا بأس من ذلك إذا رضيت



بشرطي.

- شرط؟!

- نعم.

- وما هو؟

- أنه وبينما تسير معي بالمدينة، تحكي لي قصتك.

٧



عاش الموت

أجدير
يناير ١٩٢٥

دار الخطابي بأجدير، انتشرت حوله فرقة حراسة شديدة الحذر والتسليح، خيالة ملثمون وقناصون، الشمس تذبل في سماء المغيب، وهواء ربيعي أتى عبر السهول محمَّلًا بعبير الحقول والبساتين، جياد مسومة بسروج ملونة ترعى في الجوار بينما أصحابها داخل البيت مجتمعون، مجلس بسيط بغرفة واسعة علق على أحد جُدرانها علم أحمر يتوسطه مربع أبيض وهلال أخضر، وعلى الجدارين المقابلين عُلقت عدة أنواع من البنادق المختلفة، المقاعد المرصوصة بتوازٍ يفصلها كرسي كبير خاوٍ على رأس المجلس، انفتح الباب على مصراعيه ليدخلوا تباعًا.. الأنيق زاهي النفس حدو الأكحل، خطواته الواسعة وملابسه المميزة جعلته يبدو كالأمير، معتد بنفسه وهيئته تناسب منصبه الحالي كسفير، ومرافق للرجل الذي تبعه في الدخول، محمد أزرقان طويل القامة وقور، قضى سنوات عمره الأخيرة بين الريف وجولاته الديبلوماسية بأوروبا، مفاوض جيد

بدرجة وزير خارجية، صال وجال بقصور باريس ومدريد وبرلين وعدة دول أخرى، من بعده دلف السيد امحمد الخطابي الشقيق الأكبر للأمير، رجل هادئ الطباع كما هو بادٍ على قسمات وجهه الباردة، سند لأخيه الصغير ومستشار لكل خطوة يخطوها، توالى دخول زعماء القبائل والشيوخ من أهل الشورى الثقات، وكان هو آخر من دلف إلى ذلك المكان.. اتخذ مقعده إلى جوار أرزقان، وما إن جلس حتى قدم إليه صحن الحلوى الذي كان يمر بين الجلوس حتى وصل إليه، أخذ قطعة وقام بوضع الطبق النصف خاويًا على الطاولة وحدو الأكحل يقول:

- كلما أتيت إلى هنا تذكرت كلمات ذلك المتغطرس «سيلفيستري» كيف أنه كان يتعهد لملكه ويقول بكل ثقة وغرور.. سأدخل بيت الخطابي في أجدير وأشرب الشاي على طاولته، ولكن الشيء الوحيد الذي شربه هو ورجاله كان البول.

ضحك بعض الحضور وتجهم آخرون، بينما أكمل هو:

- قُبر الجنرال منذ سنوات وبقي بيت الخطابي.



أضاف رجل آخر مازحًا وهو يرفع قطعة الحلوى أمامهم:

- وما زال بيت الخطابي يفيض بالكرم والشاي.

رد حدو الأكحل:

- أذكر يوم أنوال جيدًا، حين حلقت على ارتفاع منخفض للغاية، رأيت الهلع في وجوه الإسبان، رجفات أجسادهم كانت تهز الأرض، وخيولنا تسوقهم بينما هم يحاولون الفرار، لم يكن هدفنا الانتصار بقدر زعزعة الثقة في قلوب أعدائنا، إن الخوف قادر على صرع أقوى المحاربين وهزيمة جيش دون طلقة مدفع واحدة، الغبار يرتقي إلى السماء وصوت الرصاص كان كوميض البرق، استدرجناهم إلى حيث طريق اللاعودة وبعدها.. محوناهم كأن لم يغنوا فيها، واستردنا المدن تباعًا وها نحن نتفاوض من أجل ما تبقى في أيديهم.

- كانوا يتحدثون فيما بينهم بينما هو شارد في الوجوه، من يُصدق أنه الآن يجلس في بيت محمد بن عبد الكريم الخطابي؛ زعيم الثورة وقائد حرب الريف، الداهية الذي استطاع أن يَجرح جبهة إسبانيا تاركًا ندبًا لن يمحوها



التاريخ، مقاوم متواضع يحبه الناس ويهابه المرجفون، ثلاث سنوات هو عمره بالريف، ولد هنا شخصًا جديدًا. قضم قطعة الحلوى وأخذ يلوكها ببطء وفي عينيه تلألأت ذكرى ذلك اليوم..

وصل إلى معسكر المقاومة بالأطلس ظهرًا، هكذا خمن حين حُلت العصابة عن عينيه، المنازل البسيطة تتوهج بفعل شمس التي سلطت عليها كحبات ثريا، مدشر بمنطقة جبلية وعرة صعب الولوج إليها، أهله بسطاء ولكن وجوههم قاسية، يستغربون وجوده ويتفحصونه بفضول، في البدء ظنوا أنه أسير حتى ظهر إسماعيل التركي، ركض نحوه مهرولًا واحتضنه، التقاء الرفيقين طَيّب القلوب وبدد الوجل، غمرتهم البهجة وها هو إسماعيل يصيح به:

- كنت أعرف أنك ستأتي.. كنت موقنًا من ذلك.

مرت الأيام وصارت أسابيع تحصى، وجوزيف صار ألِمان، الجميع ينادونه بهذا الاسم، مكث ولم يغادر المكان إلا قليلًا، يساعد في البناء ويحرث الأرض ويملأ الدلاء، يرعى الغنم ويحفر الخنادق، حياة بسيطة رغم مشقتها، يَشعر أن روحه وجدت ضالتها هنا، بالجبل بين الصخور الحادة والوديان السحيقة. في بعض الأحيان



يخرج للصيد والتخييم مع إسماعيل وزمرة من الرجال، تجلى الصفاء بوجدانه وأمست النجوم تأنس حكاياته مع التركي، أهل المدشر يعاملونه بود، ولكنه غضب حين رفض كبير القبيلة أن يأخذوه معهم بإحدى الغارات على الجيش الفرنسي، ولما ذهب عنه الحنق وسمع لصاحبه إسماعيل، فَهِم أن إيطو أرادت منحه ثقة أكبر بتركه وسط النساء والأطفال، هذا كان اقتراحها، اعتاده الصغار وصاروا لا ينفكون من اللعب معه، أصبح محبًا لدى الجميع رؤيته، يضحك دون مواربة أو مجاملة ويتحدث العربية بطلاقة، كما تحسنت كثيرًا أمازيغيته، يجلس بالقُرب من الكُتاب حيث يحفظ الأطفال القرآن ويرتلونه بصوت جماعي يتردد صداه في أروقة المسجد، كان خالي البال حتى سأله أحد الصبية:

- أَلِمان لماذا لا تدخل معنا إلى المسجد، ولا تصلي معنا؟

ابتسامته تبددت ووجم، ظلَّ شاردًا حتى وكزه الصبي مكررًا سؤاله، أجاب بعد أن تطلع إلى وجه الصغير: ستصدقني لو قلت الحقيقة؟

أومأ الصبي برأسه بحركات متتالية، فحدثه أَلِمان:

- لا أعرف.



- هل كل قومك كذلك؟!
- لا.. من حيث جئت كانوا يصلون دومًا وأمي كانت تفعل كذلك.
- أمي أيضًا ونساء المدشر يصلون.. ولكن..

أنقذه والد الصبي من أسئلة ابنه الطائشة، ناداه فركض الولد إلى حيث أبيه، وما إن وصل إليه واستدار ملوحًا لألمان، بقي طوال ذلك اليوم في حيرة من أمره، يفكر في أسئلة الصبي، آخر مرة صلى فيها كانت في كنيسة السيدة الإفريقية بالجزائر، سنوات مرت.. لم يخطر بباله يومًا أن يُصلي رغم وجود كنيس صغير بمعسكره في مكناس، ولطالما رأى المسلمين يُصلون.. لم يكن يومًا متدينًا وكل علاقته مع الإنجيل تتلخص في قصة يوسف وإخوته، وظلَّ يظن طوال عمره أنه هو يوسف وباقي العالم إخوته، ولما كان يبوح لأمه بما يشعره اتجاه البشر كانت تخبره أن هذا العالم مليء بالشر ولكن دومًا كان هناك أشخاص جيدون، مؤمنون بالحق والعدل والمساواة، ولم يفكر جوزيف يومًا أن يكون أحد هؤلاء المعتنقين لعقيدة ما، صوت صلوات أمه وصورة العذراء والمسيح المصلوب تكررت في رؤياه، تذكَّر أول مرة رأى فيها إسماعيل وعبد الله يصليان، وكيف كان يجلس في مكناس بكنف الجامع

العتيق يستمع إلى من يقرأون القرآن.. أيام قضاها مع تلك الأفكار قبل أن يخرج مع الرجال في مهمة كُلِّفوا بها وأخيرًا ولأول مرة تتحقق أمنيته في إثبات وجوده على هذه الأرض، بصمة ستخلدها الرمال باسمه، كان يومها الجو غائمًا والثلوج تغطي قمم الأشجار والأرض، ذكرته هذه الأجواء بشتاء دوسلدروف فطرب قلبه المنفطر بحنين خفي لموطنه كم جاهد في إنكاره، كانوا متجهين إلى إفران بعد أن تجنبوا الولوج إلى خنيفرة مدينة الشهيد أوحموا الزياني.. صمت خيم على الموكب حين لاحت المدينة في الأفق واضطروا إلى تغير مسارهم والحزن يتكبدهم.. خُيل إليه أنه رأى رشيد، ولكنه كذّب عينيه ووكز حصانه ليخوض في الثلج بسرعة رغم أنه أراد في الحقيقة البقاء لأطول وقت، ظلّ طوال اليوم يتفحص المكان كالمجنون حتى خيم الليل.. أوقدوا النيران وجمعوا الخيل بالقرب منهم، سكون يؤنسه طرقعة النيران المتلذذة بأكل الأخشاب الجافة، ناموا وكذلك غفا، الدفء يسري في جسده بفعل الجلابة الصوفية وصمت الكون.. شَعر به حين أتى، فتح جوزيف عينيه قائلًا:

- سي رشيد. كنت في انتظارك، رأيتك تتبع أثرنا.



رغم ملامحه الوقورة الجامدة بدا مبتسمًا، اقترب كثيرًا منه متطلعًا إلى وجهه:

- أنت الآن تَحلم.
- ربما، ولكني علمت بقدومك وانتظرتك.

قال رشيد بصوت رخيم:

- وإن قلت لك إن إجابة سؤالك ليست عندي.
- أريدك أن ترشدني، أن تأخذ بيدي إلى الصواب.
- جوزيف! أنت وحدك تعرف ما الذي يريده ألمان. كل شيء ملك لاختيارك وحيث اخترت ستجد قدرك. أخبرتك وصبر، لا أملك من الأمر شيئًا وما أعلم الغيب أنا روح من عباد الله اختصني بنصحك، وأنت وحدك من تملك حق الاختيار لكل شيءٍ، وهكذا البشر جميعًا.
- رشيد، لماذا أنا؟
- أخبرتك. كُلٌّ منّا خلق لسبب، كل ما عليك هو أن تكون قويًا، ألا تنكسر تحت وطأة الظروف مهما حدث، حتى وإن أثقلتك الحياة بالهموم والكربات وانحنيت رغمًا عنك انهض مجددًا، وأكمل ما صُنعت لأجله، كلما سقطت قف،



اجعل من كل عثرة ماضيًا حتى يقابلك الموت، ولا تظن أن بعده تنتهي رحلتنا.

- حين رأيتك أول مرة ظننتك الموت.

- وكنت أنت جوزيف الضعيف الكاره للحياة، أردت الموت ولا تعلم أن ساعتك لم تحِن بعد، ولكنك ما كدت تتعافى فابتليت بفقدان أمك وسارة وبلدك وكل من عرفتهم يومًا.. كل مرة تفقد فيها أحدًا تظن أنها نهاية الحياة، ومضيت وجئت إلى حيث قدر الله، ومن ثم كان عليك الاختيار مرة أخرى، هربت من معسكرك بمكناس ودخلت عرين أسد ظفر بحصانك الذي اخترته أنت من الحظيرة بعناية.. هكذا هي الأمور أنت تختار وتسعى وقدر الله يُنفَّذ على اختيارك.. والآن عليك الاختيار اجعل روحك تقود قلبك وعمر عقلك بيقين أن الله يريد الخير لك.

- هل سأراك مجددًا؟

- كل شيء يخضع لاختيارك يا ألمان وما تريد، وكل البشر يؤمنون بشيء ما وعليك أن تؤمن أيضًا.

- أريد أن أكون حرًا.



- أنت كذلك.

هذه كانت آخر مرة يرى فيها رشيد.. أفاق على صوت حدو الأكحل الذي يغمر قاعة منزل الخطابي بالضحك، ابتسم متظاهرًا بأنه سمع ما قاله الرجل، ولكن الضجيج لم يلبث إلا قليلًا، انقض الصمت على المكان ونهض الجميع واقفين فور رؤيته، مرَّ الأمير إلى المجلس واثق الخطى، يرفل في ملابس فضفاضة، رغم بساطتها إلا أنها تضيف عليه رهبة، قصير ذو لحية مشذبة ووجه كامل الاستدارة هادئ القسمات، رفع رأسه قليلًا حين مرَّ على «حدو لكحل» وقال له بينما يكمل سيره إلى كرسيه:

- لا تجعل الغرور يتملك منك يا نسر السماء، فكم من منتصر هُزم حين اغتر. ما زال الطريق طويلًا يا لكحل، وليس في قضية حريتنا حلولا وسط.

لم ينطق الرجل اكتفى بإيماءة موافقة لقول الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، جلس الأخير على كرسيه فجلسوا جميعًا من بعده، لم يلبث كثيرًا في صمته وتجوله بالوجوه قبل أن تستقر عيناه عليه فحدثه:

- ألِمان، كيف سارت الأمور معك في الحسيمة؟

- مدافعنا تفتك بمن يقترب من مداشرنا القريبة، طائراتهم تقوم بالتحليق يوميًا فوق المدينة بحثًا عن تمركز قواتنا وأماكن المدافع، ولكننا نجحنا في إخفائها جيدًا عن الأعين. الحسيمة منيعة على الإسبان.

هز الخطابي رأسه وعلى وجهه الهادئ تجلى الرضا:

- الإسبان منهكون ولكنهم لا يستسلمون، جنرال اللفيف الأجنبي ما زال يحشد الكثير من المرتزقة بمليلية وتطوان وسبتة، غريب أمر إسبانيا وتلك الأمم الاستعمارية لا أدري بأي منطق يستسيغون استعباد الشعوب، يطلقون كلابهم المسعورة لترعى في بلادنا بالقتل والحرق، ذلك الفيلق المسمى «التيرسيو» جمع كل المتوحشين والقتلة والمجرمين من أنحاء العالم أسوة بالفيلق الفرنسي الذي كنت تنتمي إليه يا ألِمان، ولكن التيرسيو أكثر وحشية.. إنهم لا يأخذون أسرى ولا يرحمون الجرحى، يقومون بتصفية أي ريفي سواء كان محاربًا أو مدنيًا.. امرأة أو عجوز أو طفل لا أحد يسلم منهم، كل التقارير تشير إلى نزعة غريبة لا تنم إلا على الشذوذ والطغيان المنكر



فلديهم شهوة حيوانية بالاحتفاظ بأعضاء قتلاهم، يشوهون جثث ضحاياهم ويحملونها كتذكارات للنصر.

تحدّث حدو لكحل مضيفًا:

أعضاء هذه الهيئة يسمون أنفسهم «عرسان الموت» بل ويرددون شعارًا خاصًا بهم وهو: «عاش الموت».

دار الخطابي ببصره في وجوه رجاله:

- ونحن سنقول لهم عاشت الحياة، والحرية التي لا بديلَ عنها، ويجب أن نعلمهم أن الحرية حق لكل إنسان وغاصبها مجرم.. إن كانوا يقدسون الموت فسيواجهونه كما واجهه رفاقهم في أنوال، الاستعمار وهمٌ وخيال يتلاشى أمام عزيمة الشجعان، وليس أشباه الرجال ممن يوالونهم ويرشدون عن مواقعنا وقرانا.

تدخل محمد أرزقان متحدثًا:

- هناك المزيد من الإشاعات والأخبار الكاذبة تنتشر في الأرجاء، وصحف إسبانيا وفرنسا يسعون إلى الوقيعة بين فئات الشعب.

رد الخطابي بنبرته الهادئة:



- سيفعلون أي شيء ليفرقوننا، الاستعمار ملة واحدة، دعوهم ينشرون الأكاذيب حتى نحرر كامل أرضنا، ومن ينتصر يكتب التاريخ من جديد، وعلى ذكر الإشاعات والأكاذيب.. قالوا قبل سنوات إننا عملاء لألمانيا ونساندها في الحرب، ووالله ما نقاتل إلا لتحرير أنفسنا وكامل تراب المغرب من الاستعمار، والآن يقولون أن «كليمس أِلمان» هو جاسوس ألماني يقوم بتجهيز جيش للانتقام من فرنسا، وأنه يقوم بإرسال الخطابات إلى الجنود الفرنسيين لتحريضهم وحثهم على الالتحاق بالمقاومة وجيش الثوار.

عقد أِلمان حاجبيه وابتسم، والخطابي يكمل حديثه:

- إنهم يقولون أيضًا إن لديك علاقة بشركة «ماسمان» الألمانية للتعدين، يزعجهم أن نعطي حقوق استخراج المعادن لمن نريد! يريدون الأرض وما فوقها وما تحتها وإن رفضنا يقتلوننا، اكتشفت في هذه الحياة أن الحرب ضد الاستعمار وسيلة لتقارب الشعوب، فكم من جندي هرب من الجيش الإسباني والفرنسي والتحق بنا من أجل الحق والعدل،



فلندعهم يَدعون أننا نأخذ أموالا وسلاحا من ألمانيا كما يريدون، ولكنهم لا يعرفون أن السلاح الحقيقي لا يستورد من هنا أو هناك، بل من هنا «أشار إلى عقله» وهنا «وربت على موضع قلبه».

وافقه الجميع بهمهمات وإيماءات أتبعها قول حدو لكحل:

- نحن نملك ثلاث طائرات الآن ولدينا من العتاد والرجال ما يكفي لتحرير كافة الشمال بل والسير إلى الدار البيضاء إن تحتم الأمر.
- وهل سيسمحون لنا بهذا الهجوم؟

ألقى الخطابي سؤاله ومن بعده لم يسمع إلا الصمت بالمجلس، لم يجبه أحدٌ وانتظروا حتى تحدث مرة أخرى:

- قتلنا الاستعمار في الريف وما على الناس إلا دفنه، وإذا لم يهب الناس معنا فلا عزاء لنا جميعًا، كل ما علينا هو أن نصبر نفكر بهدوءٍ ثم نضرب بقوة، هل من أخبار عن حصار تطوان؟

كان الحديث موجهًا لألِمان مرة أخرى، أجاب بثقة:



- ما زالت مدفعيتنا قائمة على أبوابها، ورجالنا هناك يقومون بدورهم كما انضم عددٌ كبيرٌ من قبائل جبالة وأنجرة إلى قواتنا، قاطعين خطوط إمداد الإسبان، إنهم محاربون أشداء، ذوو قوة وبأس.. لديهم صبر وعناد سيقودنا إلى النصر حتمًا.
- من الجيد أن يطول ذلك الحصار حتى يَصل أخي امحمد إلى باريس للتفاوض مع الفرنسيين.

قال امحمد سائلاً أخاه:

- ماذا لو رفضوا الهدنة ولم يقبلوا بشروطنا؟

ردَّ الخطابي بهدوءٍ شديدٍ:

- سيكون عليهم لقاء بواريدنا وخيولنا في فاس.
- فاس؟!

ردد الحضور اسم المدينة بتوجس واستغراب، بينما أخذ أسد الريف في شرح خطته الجديدة، وكان داهية حرب يعرف أين يضرب ومتى يتوقف، والآن لزم عليه أن يوقف فرنسا عن التدخل فيما لا يعنيها، عليها أن تدفع ثمنَ هجومها واشتباك قواتها مع رجال القبائل قرب تازة، الاستعمار ملة واحدة، والعدو وإن اختلفت



ألوان أعلامه وبيارقه لا يريد الخير لهذه البلاد، وعلى الثورة أن تستمر من أجل الحرية والعدل.

انتهى الاجتماع وانفضَّ الجَمع، ذهبَ كُلٌّ إلى مبتغاه، أما «ألِمان» فامتطى جواده عائدًا إلى المنزل.

****

ما إن فَتح باب المنزل حتى وجد الصغير محمد يركض نحوه، تلقفه وأخذ يدور به في الهواء مقبلًا إياه، ثم توقف ناظرًا في عينيه السوداوين، ومن خلفه جاء صوت زوجته ميمونة تقول بصوته العذب:

- الآن عَلمت لماذا رفض محمد النوم.

استدار إليها مبتسمًا وهو يضع الصغير على كتفه:

- هذا وقد عرفنا سبب سَهر محمد، فماذا عن أمه؟

اقتربت منه واحتضنته، أوت إليه بحنان قائلة:

- أُحبُّ ابتسامتك.

- ظلَّ يلاعب الصبي حتى سكن واستسلم للنوم، وزوجته انهمكت في تحضير العشاء، شعور بالطمأنينة غَمر المكان، أخذ يتطلع إلى وجه صغيره الذي يحمل قبسًا من قسمات جدته، لم تكن يومًا تتخيل أن ابنها سيتزوج حسناء أمازيغية تقطن في جبالٍ بعيدة آلاف

الأميال عن دوسلدروف، حياة لم يتوقعها جوزيف الذي أمسى ألِمان! تأمل مسار حياته منذ كان طفلًا ضئيلًا كل حُلمه أن يركب القطار.. ذلك الوحش الحديدي النافث للدخان، رحل أبوه ذات يوم ولم يعد أبدًا إلى ألمانيا، عاش دون أب كبقية الأطفال وسهرت أمه على تربيته والعناية به، ومرت السنين واشتد عوده وحين أصبح لديه خليلة، رحلت وكان يظن أن العالم سينهار دونها، وركبت أيضًا القطار ولم تعد، مرّ كل شيء بعقله بروية حتى استقرت به الذكرى بمحطة إفران..

كان يومًا فاصلًا في حياته، حين كانوا عائدين من إفران محمّلين بغنائم وأسلحة ظفروا بها من قافلة عسكرية فرنسية، مضى أسبوع منذ رؤيته لرشيد في حُلمه، ومنحته تلك المهمة روحًا جديدة وقلبًا جديدًا، أنقذ إيطو من الموت قبل أن ينفجر خزان إحدى السيارات، وبالمقابل كانت تحمي ظهره حين اضطر للتأخر عنهم في الانسحاب، يوم مشهود حظى فيه بفيض من كلمات تصف شجاعته وقدرته على التضحية بنفسه لإنقاذ الجرحى، وحين جاء وقت الصلاة توضأ الجميع وصلوا خلف أقرأهم للقرآن،



وجلس هو وحيدًا يراقب سكناتهم وحركاتهم وصوت التلاوة يأخذ بحواسه لفيض من قبس وارتقاء، إنهم مؤمنون بأن هناك حياة أخرى أحسن في انتظارهم.. حتى لو فشل مسعاهم في تحرير أوطانهم سيذهبون إلى عالم أفضل إن ماتوا، الثواب والعقاب.. الجنة والنار.. والحياة والآخرة، والموت لا يعني شيئًا لهؤلاء، كذلك عليه أن يكون.. تحرير المغرب من الفرنسيين والإسبان غايتهم، قد يكونوا الطرف الأضعف لهذا يميل إليهم، ولكن الأمر لا يتعلق بالتعاطف وإنما بالقضية.. المقاومة لأجل الحصول على الحرية وجلاء الاستعمار عن الأرض والفكر، في الليل وبينما كانت إيطو تجلس وحدَها قبالة نيران المخيم، تنظف ماسورة بندقيتها، ذهب إليها، ظلّ واقفًا لبرهة ثم تحدث حين رمقته باستغراب:

- لالة إيطو، هل لي بسؤال؟
- بالطبع، اسأل يا ألِمان.
- لماذا أنتِ هنا؟

بنبرة تحمل التعجب وحاجبين عُقِدَا أجابته:

- ما هذا السؤال؟

حك رأسه ورسم ابتسامة على وجهه:

- أنت المرأة الوحيدة التي رأيتها تقاتل في حين أن كل النساء يقمن بأمور أخرى.

- هذا ما خلقت لأجله.. وهذا ما قسمه الله لي، فقدت أسرتي في مجزرة قام بها الجند الفرنسيون بقريتنا.. رأيتهم يقطعون الرؤوس ويلعبون بها كالكرة، ليومين ظللت مختبئة تحت ركام أحد البيوت ليومين، ولما رحلوا خرجت أبحث عن أبي وأمي، أجساد أهل مدشرنا ملقاة هنا وهناك، النساء صرعى والرجال دون رؤوس، حملها الفرنسيون معهم، تسمرت قدماي بالأرض وأنا أرى أمي بين القتلى، وبالقرب منها إخوتي الصغار.. جميعهم قتلى أما أبي فكان جسدًا مصلوبًا دون رأس.

صمتت إيطو ووضعت ماسورة بندقيتها جانبًا، التقطت سيخًا حديديًا رفيعًا، راحت تدهنه بالزيت وبدأت تسليك وتنظيف الماسورة قائلة بصوت ازدادت نبرته رخامة:

- - وجدني أوحمو الزياني ورعاني، كنت صغيرة ولم أحب يومًا اللعب مع الفتيات، ولم أشترك يومًا في تلك الأمور الخاصة بهن، لم أخلق لأكون مجرد امرأة، إنني أمتلك ما يفوق

طبيعتي، وكل ما أردته هو أن أصبح فارسة ولي بارودة خاصة بي، أن أقاتل الفرنسيين حتى آخر فرد فيهم، وحققت ما سعيت لأجله رغم كل ما يحيط بي من أشواك، أزهرت وفعلت ما أحب، كان للفتيات الأخريات أهل وعائلات، وأنا لم يكن لي أحد، سوى جوادي وبندقيتي.. وقلب عامر بمقاومة المغتصبين.. هناك مستضعفون بحاجة للمساعدة، لأن ينجدهم أحد كما فعل معي أوحمو الزياني، ونحن بحاجة لكل يد تستطيع حمل السلاح والمقاومة.. وأنا لها..

- ألا تخشين الموت؟!
- الموت قدر الله، جميعنا سنموت.
- وماذا بعد؟

حدقت بوجهه قليلًا وعادت لجمع أجزاء بندقيتها قائلة:

- ماذا تقصد؟؟
- ماذا بعد الموت؟؟ أين تذهب أرواحنا بعد دفن أجسادنا البالية بالتراب!
- الجنة.. إما أن نحققها على تلك الأرض أو نلحق بمن سبقونا إلى حيث تكون.



تمتم بخفوت وهو يجلس إلى جوار النيران:

- ماذا عن الجحيم؟

- أعد للظالمين.

- لا تختلف كثيرًا النهايات في المسيحية والإسلام.. حياة بعد الموت وحساب وجنة ونار..

أومأت برأسها دون أن تنطق وانهمكت في تركيب أجزاء بندقيتها، وشَرد هو قليلًا قبل أن يعاود الحديث:

- لا بُدَّ أن يكون هناك حساب وعقاب وإلا سيخيب أمل كل هؤلاء المستعبدين.

- هذا وعدٌ من الله؟

- وكيف هو الله؟!

رفعت رأسها نحوه وتوقفت عما تفعل، أطالت الصمت ثم قالت:

- هو العدل.. هو الرحمة.. رحيمٌ بنا رغم تعقيدات الحياة التي يصنعها البشر، أتعرف يا ألِمان.. الحياة بسيطة جدًا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، إذا ساد العدل عَمت الرحمة، ستجده معك أينما كنت.. وحين تشتد أيامك ظُلمة وتشعر بأن كل الأبواب مغلقة في وجهك وأن لا أحد على هذه الأرض قادر على



مساعدتك.. ستجده بانتظارك ليداوي جراحك ويمنحك فرصة أخرى للحياة.. بقدرته ومشيئته وخضوعك له تتيسر كل الأمور، إنه يَعلم ما تُسِر وما تُعلِن، ويصفح ويعفو هو الملك الذي لا إله إلا هو، قادر على كل شيء.

- لماذا لا ينصركم على الفرنسيين والإسبان؟
- أنت ثرثار يا ألِمان، الحرب كرٌّ وفرٌّ، ننتصر ونهزم.. كما الحياة التي نعيشها، كل شيء يخضع لقدر الله وما علينا سوى أن نختار سبيلنا، نعمل عقولنا لإبقاء قلوبنا نقية بقدر المستطاع حينها سننتصر. النصر من عند الله ينزله حيثما يريد ولك في معركتي الهري وأنوال مثال.. ومن قبل كانت لنا ملاحم وفتوحات.. وانهزمنا مرات وفقدنا أراضي وأناسًا خلقوا من ترابها.

أنهت كلماتها وأمسكت بقطعة قماش غمستها في قنينة زيت بجوارها وأخذت تُلمع بندقيتها، فسألها مجددًا:

- ما الإسلام؟
- أن تُسلم وجهك لله.. وترضى بكل شيء قُسم لك.



- هل عليّ أن أكون مُسلمًا مثلكم؟؟
- هذا أمرٌ تحدده أنت.
- لا أعرف كيف سيكون الأمر.
- عندما تعرف أخبِرنا، كيف وجدت الله.

حديث انتهى به إلى بحيرة من الحيرة، جفاه النوم لأيامٍ، صلوات أمه وصوت القس اقترنا بالآذان في رأسه، حركات الصلاة بين ركوع وسجود وتضرع، كيف نجا من الموت مرارًا.. الصحراء والجبال والبحر وذكريات تأبى الضمور، قاده القدر لهنا لسببٍ ما كما قال له رشيد.. لم نخلق عبثا، هناك غاية لكل حركة وسكون.. أنت كذرة تراب في صحاري شاسعة لا نهاية لها يا أيلمان.. جوزيف أوتو كليمس، لا يعلم من هو؟! ولكنه لم يُمسّ ذلك الشاب من دسلدروف.. كان تائهًا في مطالعة نجوم السماء وصوت صرصور حقل يغني بين الأجام، ربما تلك المرة الأولى التي يُلاحظ أن سماء الليل ليست سوداءَ.. إنها زرقة قاتمة ونادى المنادي لصلاة الفجر، جلب ضياء ونسيم بارد عمّ الأرجاء.. حالما انتهى المؤذن من ندائه، ذهب باتجاه الجامع.. وقف خارجًا وانتظر صاحبه إسماعيل الذي تعجب لرؤيته في هذه الساعة، حاول التركي أن يُبعِد النعاس



عن عينيه فتثاءب وهو يتجه إلى حيث يقف «جوزيف» سائلًا إياه:

- ألِمان، ما الذي أيقظك في هذا الوقت.

- سَمعت الأذان ورغبت في الصلاة.

تجمد إسماعيل وصار متخشبًا، غابت التعابير عن قسمات وجهه، ظل يحدق بوجه «جوزيف» لبرهة قبل أن يتحدث بصوت عميق:

- هل أنت في كامل وعيك؟

- أريد أن أكون مسلمًا يا إسماعيل.

ابتسامة غير مصدقة ارتسمت على شفاهه وهو يتقرب منه:

- لماذ تريد ذلك؟

- هي حياة واحدة وعليّ البداية من جديد وأعيشها كما تسير.. لعلّي أجد سبيل الخلاص يومًا..

ضحك إسماعيل واحتضنه بقوة معتصرًا إياه، فعلّ تعجب منه الداخلون إلى المسجد، تجمعوا تباعًا حولهما، وإسماعيل يفلته صائحًا:

- هدى الله ألِمان إلى الإسلام.

اجتمعوا بالمسجد ريثما اغتسل، أهداه أحدُ الرجال جلابة بيضاء جديدة أقسم إنه اشتراها ليزوج فيها



ابنه، وجاء إلى المسجد وأوقفوه أمام الصفوف إلى جوار شيوخ القبيلة، حمد كبيرهم وأثنى عليه ثم شَرع في تلقينه الشهادة، شَعر وكأنما قبضة باردة تنفك رويدًا عن قلبه، كلما نطق كلمة تلو الأخرى ينزاح صخر تراكم لسنوات على مدخل كهف حياته.. وفي النهاية بكى فهلل الناس وكبروا، نهضوا إليه وأخذوا يحتضنونه في أجواء من البهجة والفرح، وأقيمت الصلاة وسكن الوجود إلا صوت الإمام يقرأ الفاتحة.. هو الله الرحمن الرحيم.. مالِكُ كل شيء وإياه نعبد وإياه نستعين.. وهو من يهدينا الصراط المستقيم.. انهمرت الدموع من عينيه كسيل جارف يغسل روحه وما علق بها عبر سنوات من الضياع، تلك المرة الأولى التي يعي معنى الخشوع، هامت روحه في ملكوت آخر، حلق كعصفور يطير لأول مرة، سماوات لا يشوب زرقتها غيم، وغمر صدره راحة لا يشوبها شائبة، برودة راحت تنسحب رويدًا خارج جسده، حل محلها دفءٌ غريبٌ كان سببًا لينبت بقلبه رجاء بأن تكون حياته خيرَ حياة ومماته خير ممات.. وحين انتهى كل هذا وعاد لغرفته الطينية ذات الأسقف الخشبية، أيقن أنه لم يعد لجوزيف أوتو كليمس وجود، صار الآن اسمه الحاج أَلمان، بعقل راضٍ وقلب مطمئن.



كان غارقًا في الذكرى حين دلفت زوجته ميمونة إلى الغرفة، نقلت محمد الصغير إلى فراشه ودعته إلى العشاء، تناولا الطعام سويًا وتخلل مجلسهما حوارٌ رائق سألته فيه عن يومه وكيف كان اجتماعه، انتهوا وأوى إلى الفراش بجوارها محتضنًا إياها، تحبه وتشعر في كنفه بالأمان، لم يكن من السهل أن تتزوج من رجل أجنبي، ولكنه مُسلم والجميع يحبه، لم يهمها كيف كانت حياته قبل أن يتزوجا ان كان هو خير زوج، تتفاخر بين النسوة أنه قريب من الأمير الخطابي، وتذكر ليلتهما الأولى وكم كانت خجلة منه.. أما هو كان خائفًا في ليلة عرسه.. كان مرتعبًا حقًا بعد ما حدث له هناك في جبال الأطلس بعدما أعلن إسلامه، أخبروه بأن عليه أن يختتن ليتم إسلامه، في البداية ظن أنه اختبار له، وربما يريدون إخصاءه، ولكنه تذكّر ما علمه رشيد وكلمات إيطو.. أن الإسلام أن تُسلم وجهك للخالق.. ورغم خوفِه إلا أن الحَجّام كان ماهرًا فيما فعل، واختتن الحاج ألِمان وتزوج في الريف من ميمونة تلك الجميلة الهادئة، ابنة شيخٍ رأى فيه الصلاح، زوجوه ليطمئنوه ويؤكدوا له أنه واحدٌ منهم.. وكانت ميمونة خير هدية من الله وأم لولده، لم يظن يومًا أن ينجب ويكون له أولاد ولكن ها هو محمد أمامه، يكبر يومًا بعد يوم.

******

يوم حافل قضاه ببيت الخطابي، استقبل الصحفيين الأجانب وأجرى معهم الكثير من الحوارات، جاوب على أسئلة سكوت مورر الخبيثة ورحب بأسئلة فانسيت شين، صحفيان يملكان دهاء ومراوغة الثعالب، عرض عليهم كثير من الصور قام بالتقاطها بتلك الكاميرا التي غنمها من معسكر إسباني ذات مرة تسلل فيها إلى خيامهم، علمه رينيه التصوير حيث كان خير مُعلِّم قبل أن يَرحل إلى طنجة لخطبة حبيبته، الأيام تمضي سريعًا في الأمس القريب التقاه على متن سفينة حملتهم إلى الجزائر، والآن صار «أليمان» مترجمًا ومتحدثًا باسم ثوار الريف، قائد عسكري يخطط ويرسم الخرائط، يشارك في اجتماعات القادة حيث يُتخَذ القرار، أشيع عنه أنه جاسوس ألماني فما كان من الخطابي إلا أن قربه أكثر منه ومن قادة قبيلته بني ورياغل.. وبعد عدة معارك في الغرب وإشرافه على حصار تطوان، صار الكل يتحدث عن شجاعته وبسالته.. كتابات رينيه عنه ألهمت الصحف الشيوعية برسم صورة للرجل.. وأصبح ألمان رمزًا للمقاومة وسببًا في التحاق عددٍ كبيرٍ من الجنود الإسبان والفرنسيين بجيش الريف.. مقاومة الاستعمار والذود عن الضعفاء.. مناهضة الاحتلال وتحرير الأوطان كلها جُمل عجت بها



الصحف في فرنسا وبريطانيا وحتى ألمانيا.. أنهى اجتماعاته ورتب أوراقه آمرًا رجاله بمصاحبه الوفد الصحفي إلى حيث سيبيتون، وأثناء خروجه قابله أحد الرجال ومنحه خطابًا مغلقًا معنونًا باسمه وتوقيع رينيه، عاد إلى مقعده فاتحًا المظروف وبدأ يقرأ:

عزيزي الحاج إلمان..

اعتدتُ أن أخاطبك بكليمس ولكن هذه المرة سأناديك كما تحب أن تنادى..

ها أنا بطنجة العالية أخيرًا، تلك المدينة التي رأيتها من فيض كلمات غَمرت خطاباتها، جئت والشوق يدفعني لحُلم سعيت له كثيرًا، حتى صار على وشك التحقق، أتعرف ذلك الإحساس بأنك قد أتيت هنا فقط لأجلها؟؟ لم أكن أتخيل أن أطأ هذه الأرض يومًا، ولولاها ما جئت إلى هنا أبدًا، نعم يا صاحبي هي الحُلم الواجب تحقيقه وكل ما دونها مجرد سببٍ للقائها، سعيت وتمسكت بالأمل حين كان الألم يفتك بي، لم أتخلَّ عن موعدنا المحتوم رغم الصعاب والعقبات، في أشد الأوقات ظلمةً كانت نبراس ضوءٍ ينير دربي، انتظرتني وكان عليّ المجيء كما عاهدتها، وجئت على قدرٍ والتقينا.. توجسنا من بعضنا البعض لوهلة، وخاضت الأعين حديثًا طويلًا، فما كان من قلبينا إلا أن

دفعا بنا إلى عناق متين، احتضنتها وشعرت بدفء أنفاسها على صدري، ملكت العالم بأسره بين ذراعي، لا كلمات توفي قدر بهجتي ولا شيء يمكن أن يكون أجمل من هذا، أن تكون مع من تحب بعد سنوات من المحاولة والسعي، كل تلك الرسائل التي بيننا والخطابات المكتوبة بدمع الاشتياق، صار الآن لها معنى وترجمت إلى واقع ذي مذاق خاص، أنا سعيد يا صاح بل أنا أسعد رجل في العالم، كان لقاءً رائعًا لم تكن تصدق أني أمامها، ابتسامتها الهادئة تحولت إلى ضحكة حب، وأشرقت الشمس بانفراج ثغرها، وكأنها تقول ها هو أتى لأجلي وأقام عهده ووعده، لا أستطيع أن أصف لك كم كان قلبي ينبض بعنف، نظراتها الخجلة تغدق عليّ وتفيض بعشق نبيل، الحب شعور عظيم لا يضاهيه شيءٌ، أستطيع أن أرى مدى اتساع الكون في عينيها، أحسست بالأمان معها وبجوارها وفي كنفها نسيت سنوات البعد، الحب جميل يا صاح.. إنه ذلك اليقين بأنك وجدت قلبًا نقيًا يمنحك الأمل والأمان في الحياة..

ما أجمل الغرام تحت سماء طنجة! أغوتني تلك المدينة بدروبها وبحرها وأسوارها القديمة، طنجة مهدُ حبي وأرضُ ميعادي، هي الجنة الموعودة التي سعيت لها من أجل آن، أتيت لهذه المدينة حاملًا بوجداني



حُلمًا وأملًا، ورأيت كل شيء هنا بعينيها.. هضبة مرشان وسوق الداخل والسوق البراني ودروب المدينة القديمة، كل تلك العطفات والحوائط ستخلد حكاياتنا وضحكاتنا، وتلك النوارس المحلقة عند باب المرسى ستظل تتذكر مشهد اجتماعنا واحتضاني لها.

أعيش أيامًا رائعة بصحبتها، نجوب التلال والشواطئ معًا نشاهد أجمل غروب على وجه تلك الأرض، هنا في طنجة تتحقق الأحلام حين تتبدل ألوان السماء، تمضي الشمس إلى مغيبها حاملة معها كثير من الأمنيات، وتشرق من جديد ببشرى وأمل ينير الوجدان.. من كان يصدق أن نجتمع بعد كل تلك الأهوال التي رأيتها، أدركت الآن كل الأحلام المستحيلة قابلة للتحقيق، كل ما علينا أن نبذل ما في وسعنا وسنصل حتمًا.. أحببت تلك المدينة وعشقت روحها المقتبسة منها، كان يومًا مشهودًا عند سور المعكازين حين قدَّمت لها خاتم خطبتنا وطلبت منها الزواج، بعينيها فرحة تغمر الكون بالأمل والبهجة، وجلسنا على السور بين العامة نطالع الضفة الأخرى للبحر.. أيام وتنقضي إجازتي بالجنة وأعود إلى أجدير، سأرحل عن طنجة تاركًا قلبي وعقلي وأملًا بعودة قريبة لكتابة أجمل فصل بقصة حياتي، إن سارت الأمور على ما يُرام سيكون زواجنا في العام المقبل بسبتمبر القادم..



أتمنى أن تكون هنا لتصير «أشبين» لي في ذلك اليوم، ستعجبك المدينة وربما تستقر بها بعد تقاعدك، حين أعود سأقص عليك كل شيء بالتفصيل وحتى ذلك الوقت اعتنِ بنفسك وولدك الصغير محمد وزوجتك جيدًا، وقريبًا سأنضم إلى رابطة الأزواج مثلك.

صديقك

رينيه أوليفيه

أسعدته تلك الرسالة، وجدَ صاحبه روحه بجوار محبوبته، ظلَّ جالسًا مسترخيًا يفكر في كل كلمات الحب التي كتبها صاحبه بصدقٍ، الحروف التي تنبع من قلب مُحبٍّ هي صادقة بالضرورة، تستطيع أن تشعر بدفئها ويقشعر بدنك لفحواها، كان منغمسًا في تلك الحالة الرائقة حتى دق بابه، أذِنَ بالدخول للطارق الذي ما لبث أن أعطاه رسالةً أخرى.. أخذ يطالعها وتبدلت قسمات وجهه قبل أن ينهض ويرحل عن المكان.

*****

لاح جبل زلاع في الأفق البعيد، بدأت الهمسات والأخبار تنتشر في الركب، جاؤوا من شتى بقاع المغرب في وقتٍ قصيرٍ، قبائل الريف والأطلس اجتمعوا تحت راية الثورة في سرية، وانضمت لهم جبالة بعد أن بسط الأمير الخطابي سيطرته هناك..



صار الرجل الأقوى في الشمال، بعد أن أزاح الشريف الريسوني من طريقه، من كان يصدق أن بن القاضي عبد الكريم الخطابي يصبح بهذه القوة، يقول البعض أن الغرور تمكّن منه، وآخرون يجزمون أن الرجل قد عزم على شيءٍ كبيرٍ.. وكان النصر حليفه في كل معاركه؛ لهذا قررت الكثير من القبائل الالتحاق بصفوفه، اتخذوا من الشُبل والسهول المقفرة طريقًا لهم، دون أن يَلحظ أحد تقدمهم، راحو يخوضون مناطق موحشة يغمرها الخواء، معركة حشد لها محمد بن عبد الكريم الخطابي، عددًا غفيرًا من الخيالة والمحاربين الأشداء، فرنسا رفضت الهدنة والتهدئة وفشلت محاولات أخيه الكبير في تنظيم العلاقات بباريس، وكانت رسالته التي استلمها ألِمان تؤكد أن فرنسا عازمة على الهجوم على الريف من الجنوب، وبالفعل هاجمت فرق من المرتزقة بعض الزوايا والقرى القريبة من حدود الريف، وهنا قرر الخطابي الهجوم، يحاصر تطوان بينما يتحرك جيشه المنظم باتجاه المدينة الأكثر تحصينًا وأشد أهمية لدى الفرنسيين، فاس.

تَقدمت فرق من فرسان قبائل الأطلس يكشفون الطريق ويمهدونه، بين الصفوف كانت «إيطو»، لم تتأخر عن اللحاق بنداء الجهاد وحمى تحرير فاس من



الفرنسيين، كانت وفرقتها كعاصفة مفاجئة تضرب ثكنات الفرنسيين وتقطع التواصل فيما بينهم حتى لا يكتشف أحد وصول جيش الثوار، كانت سعيدة حين رأت ألِمان بين الصفوف، توجهت إلى حيث يقف ونادته:

- لم أكن أتوقع رؤيتك مجددًا حاج ألِمان.

التفت ليجدها فوق صهوة جوادها الأسود، ذي السرج الأحمر المميز، ملثمة كما عادتها ترتدي زِيًا أكحل اللون ولفت جسدها بشريط من فوارغ الطلقات النحاسية، ضحك وحياها برأسه قائلًا:

- لالة إيطو.. ها قد التقينا مجددًا.

- صرت أؤمن بذلك؛ أن لقاءنا قدر مُحتم ومكتوب.

- سعيد لرؤيتك، حكايات بطولاتك وشجاعتك تصل إلى الريف وتتغنى بها الفتيات.

ضحكت ولكزت جانب حصانها القوي ليتقدم قليلًا:

- كيف سارت الحياة معك في الريف، أسمع عنك كل خير، ولكن هل وجدت ما كنت تبحث عنه هناك؟

- وجدت.. وجدت الله..

- وكيف ذلك؟!



- في نفوس الناس وفطرتهم السليمة، لن أقول إنه مجتمع مثالي ولكنهم يحاولون بقدر الإمكان.. صار عندي ولد أسميته محمد على اسم النبي المختار.. وأعيش حياة هادئة إلا من صوت قصف الطائرات الإسبانية لأجدير بين الحين والآخر.

بدت الغبطة في عينيها، وتنهدت محدثة إياه:

- سعيدة لأجلك يا أخي، سامحني، عليّ المضي الآن، الشمس أوشكت على المغيب وبينما أنتم تعسكرون هنا، علينا تأمين تقدمكم.

جذبت لجام جوادها الذي حمحم وهو يدور حول نفسه، دورة كاملة بعنفوان وعزة، ثم التفتت إليه وهو يمضي:

- صاحبك التركي هنا، سأخبره أني رأيتك.

أطلقت صيحة أنثوية شرسة، انطلق الفحل الذي تمتطيه بين الصفوف متبخترًا، نادرات مثيلات إيطو، امرأة ذات عقل رشيد وقلب شجاع، قلما يجتمعان في امرأة، تسير بدرب الحياة دون أن تكترث بشيء، فارسة نبيلة على دراية بأخلاق الحرب، لا تقتل جريحًا ولا تتجبر على أسيرٍ، ابتلعها زحام الجيش المُعسكر، يبعدون عن فاس عشرة أميال فقط، ومن المؤكد أن



خبر وصولهم سبقهم إلى المدينة، عددهم الكثيف تجاوَز الخمسة آلاف نَفس، حالة من الاستنفار بينما ينصب الرجال الخيام والمتاريس، ستكون هذه المنطقة قاعدة ارتكاز لهم تَحوُل بين فاس والطريق إلى عين عائشة شمالًا، أرض وعرة متعرجة، ويحدها شمالًا جبلُ زلاغ كحائط منيع ضد أي محاولة التفاف عليهم، سيكون عليه الصعود إلى التلال القريبة لاختيار بقع غير مكشوفة، سينصب عليها مدافعه.

في المساء التقى إسماعيل، عناق أخوة متين وفرحة غامرة ككل لقاءاتهما، جلسا بصحبة زمرة من الساهرين حول نيران المخيم، الجميع يقصون حكايات عن حياتهم وأمنياتهم، يتبادلون الضحكات والحكي تارة، ويجالسهم الصمت والحزن تارة، حدثهم إسماعيل أن جميعنا في هذه الدنيا لدينا ما نتمناه ونخشى أن يضيع في خضم الحياة، ولكن الخشية من فقد الشيء تكون أهون من فقدانه، لذا قرر ألا يخشى شيئًا.. أن يفعل ما يريد ويسعى فقط لوجه الله، وحين تحدَّث ألِمان انتبه الجميع وأنصتوا، بدأ كلامه منذ كان بدوسلدروف جندي مراسلة بالجيش الألماني، وحتى اللحظة التي يجلس فيها معهم.. التقط رجل انضم إليهم حديثًا طرف الحديث قائلًا:



- المحن تصنع الرجال، جميعنا حظي بكثيرٍ من الجروح نتيجة خوضنا حرب الحياة، تشفى ولكنها تتحول لندوب ظاهرة وأُخرى وقرت بالقلوب، لدينا قدرٌ وفيرٌ من الهزائم والخذلان، وكلنا خسرنا في مرحلة ما من حياتنا ولكننا لم نَمُت، بل اشتد عودنا تيبس وصار قاسيًا جَلدًا، كالشجرة التي يقطعون أغصانها السفلى، فتنمو لأعلى وكلما قُلِّمَت الأغصان المنخفضة تزداد الشجرة ارتفاعًا، حتى تنوء بأغصانها إلى العلياء فلا يستطيعون الوصول لها، هكذا يجب أن نعزي أنفسنا بأننا سننمو ونعلو مهما فعلت بنا الحياة ومن خذلونا، حين ندرك هذا الأمر ونعيه جيدًا، سيكون لدينا يقين أنهم لن ينالوا منا إلا إذا أسقطونا تمامًا.

لا يدري لم شَعر ألِمان بروح «رشيد» في المكان، تأمَّل وجه الرجل بينما يُكمل حديثه بسرد لحادثة وقعت له بمدينة مليلية، كان الشبه بين الرجلين بعيدًا تمامًا، ذلك الريفي لم يكن يُشبه رشيد الذي افتقد رؤياه لسنوات.. استمرت جلستهم حتى بدأ النعاس يرواد الجميع وانسلوا واحدًا تلو الآخر إلى مستقرهم.

****



ثلاثة أشهر من الحصار مرت على فاس، معارك شِبه يومية يخوضها الثوار ضد الجيش الفرنسي الذي استبسل في الدفاع عن المدينة، حُفرت الخنادق على طول جبهات القتال، ودعم الجانبين صفوفهم بالمدفعية الثقيلة، حرب لا فائز فيها سوى الموت، نال من الجميع حتى الخيول نفق منها عدد كبير، وأضحت المواجهات تقتصر على محاولات التسلل وإضعاف عزيمة كل منهما الآخر، نُشرت نقاط استطلاع تحمي كلَّ الطرق المؤدية إلى المدينة، والأخبار القادمة من أجدير تؤكد أن الإسبان يحشدون قوات إضافية بمدينة سبتة، والأمر هنا في فاس صار أكثر تعقيدًا، منذ أسبوع نصب الفرنسيون كمينًا لمجموعة من المقاومين على طريق آوشان، وقتلوا كل المقاومين، وقبض الثوار على بعض الخونة في صفوفهم، ينقلون الأخبار إلى الفرنسيين، تم إعدام ثلاثة منهم والرابع اعترف بأنهم كانوا سببًا في عرقلة وصول الدعم القادم من الأطلس، والرد كان أشد قسوة من جيش الخطابي، استولى على عدة نقاط كان يتمركز فيها الجيش الفرنسي على بُعد خمسة أميال من فاس.. صار قريبًا للغاية، وأقوى بفعل الغنائم التي غنمها، أسلحة ومؤن وعربات وكنز ثمين تمثَّل في أربعة مدافع حديثة، سُحبت بالخيل والعربات إلى حيث معسكرهم، وأشرف



«ألمان» على تثبيتهم وتموضعهم كخط دفاع أخير خلف الجيش فوق تلال قريبة من جبل زلاع.

ذات ليلة استيقظ ألمان على صوت مساعده، يخبره أن هناك اجتماعًا عاجلًا لقادة القبائل المشاركين بقوام الجيش.. وعليه أن يَحضر، اجتمعوا في وادٍ بعيدٍ عن المعسكر، لا يصحب كل واحد منهم إلا حارسًا فقط، والخبر الهام الذي جمعهم على عجالة أن الفرنسيين أدخلوا مددًا إلى فاس على مدار الأيام السابقة.. قوات فرنسية وأخرى مغربية، سيجعلونهم يقاتلون بعضهم البعض.. هكذا هو الأمر، لم يتبين المستطلعون كم عدد هذا الجيش الجرار.. ولكن العديد من شيوخ القبائل قالوا إن المستكشفين يهولون الأمر.. وأن العدد مبالغ فيه ولن يستطيع أحد معرفة صحة الأخبار إلا في الأيام القادمة، اقترح ألِمان أن يُعَاد انتشار القوات، ونصب كمائن على الطرق والدروب المجاورة تحسُّبًا لأي هجومٍ فرنسي، ولم يَلقَ اقتراحه قبولًا لدى العديد من الزعماء، أرادوا التأكد من عدد القوات الفرنسية أولًا، أمرٌ أثار حفيظته وتجادَل مع كثيرٍ منهم بشأن ضرورة الاستنفار، فكان ردُّ كبيرهم أنه لن يدخل أيَّ معركة كبرى إلا بإذنٍ مختومٍ بختم الخطابي.

حديث انتهى برحيل ألمان عن المكان مغاضبًا، ما زال هناك من يظن أنه جاسوس، وآخرون يعاملونه على



أنه أقل مرتبة منهم، صلى الفجر مع رجاله بسلاح المدفعية، وجلس وحيدًا على حافة الجُرف يُشاهد الشروق.. السماء تتحول إلى الأرجواني ثم اللون الأحمر قبل أن يأتي ضياء شمس ارتقت الجبال بروية، شاهد ضوءها يُبسَط على الأرض كاشفًا الجيش الذي يخرج من رحم فاس، قادمًا نحوهم.عَبر عدسة منظاره المكبرة رآهم، آلاف الجنود يتخللهم كتائب من الفرسان ويتقدم كل هذا عربات ومدرعات تسبقهم، جيش كبير منظم.. انتشله أحد رجاله من الوجوم الذي حل به وهو يَبصر بمنظاره: «سيدي، علينا إخبار رفاقنا بالأمر..عددهم أكثر منا بمئات المرات».

لم يعقب ألِمان على قول الرجل القلق، فقط رماه بنظرة حادة وحدث مساعده:

- إنهم لا يعرفون بأمر نقاطنا تلك وهذا ما سيجعلنا نتفوق عليهم.. أحمد أبلغ نقاط تمركزنا الأخرى بأن يعدلوا من وضعيتهم ويتخذوا استعدادهم حتى تأتي إشارتنا، اجعلوا تصويبكم على تلك المدرعات الكبيرة وقتما تشعرون أنهم في مرمى قذائفنا.. أوقفوا واعطبوا ما استطعتم من تلك الآليات ثم ليكون تصويبكم بعد ذلك على الجانبين.. أريد أن تُدكّ فِرَق الفرسان ويتم تشتيتهم قدر



الإمكان، على رجالنا في الأسفل أن يبقوا حول المعسكر قرب الخنادق.

ركض الشاب إلى طرف الجبل وأخذ يعكس ضوء الشمس بمرآة صغيرة، حدّثهم بالإشارة وانعكاس ضوء الشمس، ومن على الجبل البعيد جاءه الرد وراحت الرسالة تسري، في تلك الأثناء امتطى ألِمان جواده وحدّث رجاله صائحًا:

- أثبتوا واجعلوهم يندمون على هذا الهجوم.أرخى لجام جواده القوى وانطلق نزولا عبر السفح الوعر إلى حيث يَعم المعسكر الهدوء.. حين وصل إلى قلب المعسكر كانت الأخبار انتشرت، حالة من الهَرج عمت المكان بينما اتخذ سبيله بين الخيام إلى حيث يجتمع قادة القبائل، لم يكونوا جميعًا هناك، فقط أربعة من الشيوخ الذين بدا على وجوههم الأسف، لا حول لهم ولا قوة، أما أصحاب الغرور والقوة خرجوا للقتال، وبدأ رجال المدفعية بقصف الفرنسيين.. وانطلق الفرسان إلى خارج المعسكر، تراصوا في صفوف تقدمهم زعماء القبائل.. صوت المدفعية يصم الآذان والخيل متوتر، صهيل مرتفع وعلى مرمى البصر انفجرت الآليات



الفرنسية، كان ألِمان مذهولًا مما يحدث.. يجب على قوات الريف ألا تهجم، لا يجب أن يذهبوا إلى الفرنسيين بهذه السذاجة، الدخان يتصاعد والأربعة مدافع يدكون صفوف الجيش الفرنسي على حين غرة، وبدأت حالة من الارتباك تسود الكتائب، وجاهد ألِمان ليوقف الهجوم على الفرنسيين، وضاع صوته الجهوري وسط الحشود..

انطلقت جحافل الخيالة يهللون ويكبرون والأرض ترتج من وقع حوافر جيادهم، مسافة طويلة قطعوها في جزءٍ يسير من الوقت، التقى الجمعان.. صوت مئات البواريد ستطغى على كل شيء، بدا كهزيم الرعد، ارتطمت نواصي الخيل وصدورها بأجساد الفرنسيين، وراحت الرصاصات تحصد الأرواح، الفرنسيون أكثر عددًا ولكنهم تراجعوا خوفًا بعدما رأوا آلياتهم تحترق وتعطب، حاولوا المقاومة ولكن خيالة القبائل كانوا أشد فتكًا، صاروا يطاردونهم بالسيوف بعد أن نفدت طلقات بنادقهم، ومن خلفهم وصل المشاة.. انتصار ساحق حققه جيش الريف الذي راح أفراده يجمعون الغنائم مبكرًا، ويتبخترون بساحة القتال في غرورٍ، بينما الجيش الفرنسي يفر عائدًا إلى بوابات فاس.. كان الأمر أشبه بنزهة أكثر منه معركة، وفي المُعسكر اجتمع

الفرنسية، كان ألِمان مذهولًا مما يحدث.. يجب على قوات الريف ألا تهجم، لا يجب أن يذهبوا إلى الفرنسيين بهذه السذاجة، الدخان يتصاعد والأربعة مدافع يدكون صفوف الجيش الفرنسي على حين غرة، وبدأت حالة من الارتباك تسود الكتائب، وجاهد ألِمان ليوقف الهجوم على الفرنسيين، وضاع صوته الجهوري وسط الحشود..

انطلقت جحافل الخيالة يهللون ويكبرون والأرض ترتج من وقع حوافر جيادهم، مسافة طويلة قطعوها في جزءٍ يسير من الوقت، التقى الجمعان.. صوت مئات البواريد ستطغى على كل شيء، بدا كهزيم الرعد، ارتطمت نواصي الخيل وصدورها بأجساد الفرنسيين، وراحت الرصاصات تحصد الأرواح، الفرنسيون أكثر عددًا ولكنهم تراجعوا خوفًا بعدما رأوا آلياتهم تحترق وتعطب، حاولوا المقاومة ولكن خيالة القبائل كانوا أشد فتكًا، صاروا يطاردونهم بالسيوف بعد أن نفدت طلقات بنادقهم، ومن خلفهم وصل المشاة.. انتصار ساحق حققه جيش الريف الذي راح أفراده يجمعون الغنائم مبكرًا، ويتبخترون بساحة القتال في غرورٍ، بينما الجيش الفرنسي يفر عائدًا إلى بوابات فاس.. كان الأمر أشبه بنزهة أكثر منه معركة، وفي المُعسكر اجتمع

الرجال حول ألِمان يحيُّونه على ما فعله بالمدفعية بالفرنسيين.. منحهم مبادرة جيدة وفرصة ذهبية للفتك بالعدو.. ولكن تلك الفرحة العارمة انقلبت إلى خوفٍ وترقُّب مع سماعهم لصوت أزيز أتى من السماء. أربع طائرات فرنسية يحلقن قادمين من فاس، والمعركة التي ما لبثت انتهت كانت في الحقيقة لم تبدأ بعد، كما نبأه حدسه.

الانفجارات توالت مع سقوط القذائف فوق رؤوس قوات الريف، فزعت الخيول وتناثرت الدماء، وصار الأمر مجزرة حقيقية، إذ حلقت الطائرات الأربع فوق ساحة القتال، تُلقي بقنابلها على القوات المحاصرة بين المدينة والمعسكر، لم يَكُن الأمر سوى خدعة وفخ من الجيش الفرنسي لاستدراج رجال الريف إلى العراء.. وفي الأفق ظهرت طائرتان أخريان وبدأت زخات الرصاص تمطر وتطارد الفرسان المتراجعين إلى المعسكر.. حيث يقف بقية الجيش ذاهلًا مما يحدث حتى وصلتهم الطائرات.

مع مغيب الشمس كان كل من الجانبين يلملم جرحاه وقتلاه، فقدت المقاومة عددًا غفيرًا من الخيالة والمشاة، إلى جانب الموقع الرئيسي للمدفعية، قصفته الطائرات التي كانت كطير الأبابيل ترجمهم بقنابل من سجيل، اهتز الجبل وهتكت الذخيرة المنفجرة جسده،

زلزلت الأرض وخيم الصمت إلا من طنين الطائرات العائدة إلى عشها بفاس، كل شيء توقف عند هذه اللحظة، الخيول الجريحة المنسحبة إلى الجانبين، هدنة لم يُطلق فيها رصاصة، مروا إلى جانب بعضهم ،كل إلى جبهته، الفرنسيون حملوا جرحاهم وما زالت آلياتهم مشتعلة إلى جانب الأحصنة الميتة، أسراب من غربان حطت فوق جثث القتلى التي لم تنقل بعد، الخنادق تعج بالناجين من الموت، العيون شاردة ورائحة الدماء والنيران تملأ الصدور، منحوا الحياة أو فازوا بها ليوم جديد، الأنين والألم والدماء يَملكون المشهد.. نظرات اللوم كانت تحيط بأولئك الذين دفعوا بالرجال إلى كمين محكم، لم يكن هناك مجال للحديث أو العتاب فقط كل ما يهم هو أن يدبروا أمر غد، تلك الطائرات ستعود حتمًا، ومع كل هؤلاء الجرحى سيكون القتال والانتصار أمرًا صعب التحقيق.

فوق الرماد الأسود جلس ألمان ومساعده أحمد، وبقية طاقم المدفعية أبيد عن بكرة أبيه، لا أشلاء ولا أثر لهم كحال ذلك الجزء من الجبل انكسر وفُقد، الذخيرة كلها تفجرت وصُلب المدافع انصهر وطار متمزقًا، كان يَجلس في تلك البقعة صباحًا وأمسى عليها وهي خراب، كان شاردًا حين سمع وقع الأقدام خلفه ومن بعدها كان صوت إسماعيل:



- ألِمان، ما الذي حدث؟

دون أن يلتفت أجابه:

- كما ترى.. مر الموت من هنا، رحل رجالي وبقيت على قيد الحياة.

- اليوم فقدنا الكثير من الأنفس.

قالتها إيطو بنبرة حزينة، التفت ليجدها تقف إلى جوار إسماعيل، أومأ لهم برأسه ونهض نافضًا الغبار عن يديه:

- كان يومًا عصيبًا، وهم لم يسمعوا تحذيري.

اقتربت منه بضع خطوات، وقالت:

- الأخبار الآتية من فاس تقول أن الفرنسيين يستعدون لهجوم جديد، تجاوز تعدادهم الثلاثين ألف مقاتل، وما كانت تلك المعركة في الصباح سوى توطئة لما هو قادم.

أضاف إسماعيل بصوته الأجش:

- المدد كان يصل إلى المدينة بشكل يومي دون أن نلحظ ذلك.

مشى ألِمان حتى حافة الجرف وأخذ يتطلع إلى المعسكر في الأسفل قائلًا:

- زعماء القبائل من أقحمونا في تلك المعضلة، كان يجب أن ننتظر خلف خنادقنا ومتاريسنا



حتى يأتوا إلينا، كانت مدفعيتنا ستفتك بهم وتبدّدهم، علينا تنظيم أنفسنا وصد الهجوم القادم.

قاطعته وهي تطلع بالأفق المتشح بلون المغيب:

- حدّدوا نقاط مدفعيتنا وها نحن نقف حيث ضربوا، وغدًا أو بعد غدٍ وربما فجر اليوم سيقضون علينا تمامًا.

استدار متطلعًا إليها بحدة:

- إيطو.. ما لي أراك انهزامية هكذا، ما زال لدينا خطٌّ دفاعيٌّ آخر لن يستطيعوا الاقتراب أكثر.

- بل سيفعلون يا أِلمان. مكثنا هنا لما يقرب من أربعة أشهر نكر ونفر عليهم، وبادلونا الدور كأننا نلهو سويًا.. يوم لنا ويوم عليهم يستنزفون قواتنا بينما يبنون هم جيش آخر.. جلبوا قواتهم من مكناس وخنيفرة والآن يستعدون ويتجهزون لفك الحصار تمامًا عن فاس، كان يجب أن ندخلها حين حانت الفرصة منذ شهرين حين كنا تحت أسوارها، ولكن جيشنا المنظم صار له أكثر من قائد وأكثر من رأي، لو كان الخطابي هنا أو أخوه امحمد كنا أنهينا تلك المعركة وأصبحت فاس

حرة.. فرنسا تحشد رجالًا من بني جلدتنا لمحاربتنا الآن، يعرفون حيلنا وطرق قتالنا بل يقاتلون مثلنا، لن ننكسر هنا ليس اليوم أو غدًا.. لن نُهزم يا ألِمان.

ظل إسماعيل ينقل بصره بينهما حتى تكلم ألِمان قائلًا:

- ماذا ترين؟

تحدثت وهي تشيح بوجهها:

- الانسحاب خيرٌ من الموت دون فائدة تذكر.
- وهل سَيستمع أمراء الحرب إلى رأيك؟
- لنحاول.

****

اجتماع صاخب لم يَدُم طويلًا بين قادة القبائل، مشتتون لا يعرفون ما عليهم فعله، بعضهم يقول علينا البقاء والقتال، وآخرون يريدون العودة بما كسبت أيديهم من غنائم، نادى فيهم ألِمان بأن يوحدوا كلمتهم ويعودوا إلى الريف كجيش كامل، ولكن أكثرهم أراد العودة إلى دياره لينظم صفوفه ويدفن موتاه ويعلن الحداد حتى يجتمعوا من جديد، مجرد سماعهم لتعداد الجيش الفرنسي جعلهم يفقدون الثقة، حدثهم الفقهاء والشيوخ بالثبات ولكن ثلة رأت في الانسحاب شيئًا من

النجاة؛ الانسحاب قرار جيد ولكن ليس إلى الريف، بل إلى وادي سبو حيث يستطيعون ترتيب الصفوف وانتظار أوامر الخطابي ومن ثمَّ العودة إلى فاس، ربما تبعهم الفرنسيون فتكون فرصة لرد الصاع لهم والفتك بهم بين الجبال، هكذا كان الأمر.. الانسحاب المنظم إلى وادي سبو، والليل سيكون ساترهم حتى يرحلوا، ستبقى عدة فرق من المقاتلين بالخنادق، وخيالة قبائل الأطلس سيصدون أيّ هجومٍ من الفرنسيين ويمنحون للجيش المنسحب أكبر قدرٍ ممكنٍ من الوقت ليبتعد.. المدفعية أيضًا ستبقى لتغطي الانسحاب الكبير.

حملت الخيل خيبة الأمل إلى جانب الجرحى والغنائم، والليل ستار يخفي الوجوه الحزينة، سيتراجعون دون الدخول إلى فاس، حُلم التحرير تباطأ وتأخر ولكنه سيحدث يومًا، على طول الطريق كانت العربات والخيول تسير دون توقُّف، يؤمنهم فرق استطلاع ويَخلفهم جمعٌ ممن تطوعوا للبقاء في الخنادق، ألِمان أصرّ على أن تنسحب المدفعية في آخر المطاف، ولكن بعد أن يتم انسحاب الجميع.. ومع ضوء الفجر الأول سُمع الأزيز من جديد، طائرة تجوب الجبال البعيدة، ومن فوق تلة قريبة من المدينة أرسلت الإشارات بأن الفرنسيين يتأهبون للهجوم، يبدو أن لديهم عيونًا تخبرهم بأمر الرحيل، لم يكن الانسحاب



الكامل قد تم حين بدأ عددٌ غفيرٌ من الفرسان يتجمعون أمام المتاريس والخنادق، رآها بينهم وكذلك كان إسماعيل، سيحاولون صدّ الهجوم الفرنسي.. ولكن ماذا يفعل ما لا يقل عن ثلاثمائة فارس أمام هذا العدد المهول من القوات الفرنسية. نادى منادٍ في الراحلين:

- هلم للذود عن ظهور إخوانكم.. إن الله يرى ما تصنعون فاجعلوه راضيًا عما ستفعلون، من يريد التطوع لعرقلة تقدُّم الفرنسيين فليتقدم إلى المتاريس.. نحن المقاومة التي كسرت شوكة إسبانيا والآن علينا دحر فرنسا.

كلماته أثارت شيئًا بداخل بعضهم، كانوا فرادى من لَبّوا النداء، ولكن ما لبث أن تشجع آخرون وبدأ الجمع يزداد، امتطى ألِمان جواده، وانطلق إلى حيث رأى إسماعيل وإيطو، جال بين الصفوف حتى وجدهما، تفاجأت به وكذلك التركي الذي سأله:

- أليس من المفترض أن تكون بين رجال المدفعية؟؟

- سيتولون الأمر، أنتم بحاجة لكل فردٍ هنا.. صدّ ذلك الهجوم واجبنا جميعًا حتى نؤمن انسحاب بقية المقاتلين.

هزّ إسماعيل رأسه قائلًا:



- ما زلت عنيدًا كما عهدتك.

على مرمى البصر بدأت المدرعات الفرنسية في الظهور، صمت مطبق وسكون مريع خيما على المكان، وريح خفيفة هبت لتعبث بخصلات شعر الخيل الجاهزة للقتال، عيون متحفزة وبواريد تحشى بالطلقات، أربعة صفوف من الخيالة ومن خلفهم ما زال هناك كثير من رفاقهم ينسحبون تاركين المعسكر والمتاريس، مَسحت إيطو على عنق جوادها وراحت تدندن بكلمات لأغنية أمازيغية بصوت خافض، قائلة:

- تمازيرت نخ دجان أيمو ياس اس أوبورز
- أور أشن ثلي أيون أزلان أخف أبليس
- أمش أنغان أسواس أغرييظ أتن تزغ توكت أينو.. (2).

بينما كانت إيطو تغني لجوادها، بدأ إسماعيل يتمتم بآيات ودعاء خاشع، أما ألِمان أغمض عينيه رافعًا رأسه إلى السماء.. يا لها من حياة تلك التي نقدمها ونضحي بها لأجل الآخرين، قضيتنا التي نؤمن بها، سنوات العمر مرت بذهنه ..كل هؤلاء الذين صادفهم خلال أيام حياته، لا يدري لماذا احتل رينيه المشهد الأخير، لحظات من الصمت لم تدم طويلًا حتى انطلقت قذائف المدفعية تَخرق السماء وتطرق الآذان،

لم تُصب القذائف أيًا من أهدافها البعيدة عن المرمى، ولكنها كانت تحذيرًا لم يفت بعضد الفرنسيين، استمر تقدم المدرعات ومن خلفهم الخيالة، انطلقت موجة جديدة من قذائف المدفعية، ولكنها لم تؤثر في تقدم القوات الفرنسية، توالى القصف واستمر التقدم.. كل هذا وخيالة الريف واقفون لم يحركوا ساكنًا. حتى ضربت المدفعية المتمركزة على جبل لازع هدفها، كانت الإصابة دقيقة للغاية، مدرعتين انفجرتا، ابتسم ألِمان وهو يقول في قرارة نفسه «هؤلاء رجالي ينتقمون لإخوانهم».. وبدأ الهجوم.

تسابقت الخيل مع القذائف الهاوية، ضربت الأرض بحوافرها يسوقها فرسان صارخين بقسوة شاهرين بواريدهم، يتبارون فيما بينهم على الوصول أولًا إلى حيث توقف الفرنسيون، رغم القصف الشديد إلا أنهم احتموا خلف المدرعات بتشكيل منظم، وارتكزوا مصوبين فوهات بنادقهم نحو الخيّالة القادمين نحوهم، وانطلقت الرصاصات ولكنّ الجياد كانت أسرع، تتابع صوت الطلقات، ارتطمت صدور الخيل بالجنود، انغرست سكاكين البنادق باللحم، تطايرت الدماء ملطخة أجساد المدرعات العاجزة عن ضرب أهدافها القريبة، ودارت رحى المعركة لتطحن الأجساد.. يوم مشهود خَلد ذكرى الفرسان، رغم عددهم القليل إلا أنهم



فتتوا تشكيلات المشاة الفرنسيين، صالت الخيل وجالت وفرسانها يطيحون من يصادفهم، إعصار من سيوف وبارود ودخان، بين الحين والآخر تسقط قذيفة هنا أو هناك، قتال دار بشجاعة منقطعة النظير بين الجانبين، الفرنسيون كانوا يجيدون التعامل مع تلك الاشتباكات، ورجال الريف استطاعوا إعطاب عدة آليات، من يسقط عن صهوة جواده يقاتل حتى الموت.. هكذا كانت تسير الأمور، وبينما كان إِلمان يخوض قتالًا شرسًا من فوق صهوة جواده للوصول إلى إحدى المدرعات، سقط إسماعيل أرضًا، تدحرج بصعوبة ثم نهض ممسكًا سيفه مواجهًا زمرة من الجنود، قام بدعمه عدد من رفاقه، على الجانب الآخر كانت إيطو وجوادها الأسود الجامح، كانت تقاتل على صهوته بانسياب وسهولة وسرعة، تُعمر البندقية بالطلقات بينما يخوض جوادها بين الصفوف مطيحًا بالجند، تطلق الرصاص وتصيب أهدافها بمهارة، فارسة لا مثيل لها بين آلاف الرجال المتقاتلين.. انفجرت إحدى المدرعات وتطايرت الأجساد مشتعلة، إِلمان نهض فرحًا بفعلته وبينما كان محاصرًا بعدد من الفرنسيين اقتحمت إيطو المشهد لتمنحه فرصة للركض نحو جواده التائه بالمعركة، لوحت له بالتحية



واستمر جوادها بالركض متبخترًا حتى سقطت بجواره قذيفة.

تباطأت حركة كل شيء، رآه ألِمان يسقط. بعد أن فزع ووقف على قائمتيه الخلفيتين، تشبثت به إيطو بمهارة ولكنّ الجواد دار حول نفسه والدماء تتفجر من بطنه، وحين ارتطم بالأرض كانت فارسته مطروحة أرضًا بعيدًا عنه، صوت الرصاص يُعمر المكان، الصرخات والانفجارات والأشلاء، زحفت إيطو نحو جوادها المحتضر، كان مبقور البطن بفعل شظية حديدية كبيرة، يخور ويحاول أن يرفع رأسه، فثبتته واحتضنت عنقه بيديها حتى لفظ أنفاسه مع نزيفٍ سال من منخاره، أغمضت عينيه ونهضت ممسكة ببندقيتها، عَمّرتها بالطلقات بسرعة وراحت تجوب أرض المعركة، نفدت طلقاتها في الوقت الذي هجم عليها أحد الجنرالات، زيه ميزه عن بقية الجنود، كان ممسكًا بسيف مخضب بالدماء، التقت عيناهما وانقض كل منهما نحو الآخر، كانت إيطو تبارزه ببندقيتها، تصد هجماته وتحاول النيل من رأسه، كان أطول منها قامة ولكنها كانت رشيقة للغاية، تدور حول نفسها وتلف البندقية بين أصابعها بنعومة، انضم إلى الجنرال أحد الجنود وصارت المبارزة اثنان ضد إيطو.



جاء الثالث بينما كان الثاني يسقط أرضًا بعد أن كسرت جمجمته بضربة بكعب بندقيتها، ركلت الجندي الثالث في صدره، وحين كان الجنرال يَهم بطعنها استطاعت أن تمسك به وتخنقه ببندقيتها، خارت قواه ولكنه فجأة نهض واقفًا فتشبثت به، حاول أن يجعلها تفلته فاستدار ليتلقى طعنة من رفيقه الجندي، كان ذلك الأخير ينوي طعنها هي ولكن قائده استدار في لحظة فارقة.. وأمام ذهول الشاب الفرنسي كانت إيطو تفلت جسد الجنرال، وتبدأ جولة جديدة.. أسقطت الأخير وتخطت جسده وطعنته فجأة.. نصل بندقية فرنسية استقر بجانبها ثم سُحب بسرعة لتتفجر دماؤها، وتخر على ركبتيها ومن خَلفها وقف الجندي رافعًا نصله.. وهوى على عنقها.. ولكن صوت طلق ناري حال دون وصول النصل إلى رقبتها.

بعينين ممتلئتين بدمع الألم رأت «ألِمان» يقف على مقربة منها مصوبًا بندقيته والدخان يتصاعد من فوهتها.. لوح لها وانخرط في القتال بينما استندت على سلاحها ونهضت، تحسست جانبها وابتسمت حين رأت الدماء على راحة يدها، ضحكت وصاحت بكل قوتها بالفرنسية:

- ما زلتُ على قيد الحياة وسأقاتل حتى النهاية.. تعالوا لتتذوقوا طعم الموت من إيطو



الزيانية.

كررتها وسط هدير المعركة التي لم تتوقف، هاجمها اثنان فتخلصت منهما بسهولة رغم أن جرحها كان غائرًا، وحين توقفت لتلتقط أنفاسها رأت فوهة كبيرة تبرز من جسد معدني ضخم تخرج من بين الدخان أمامها، وانطلقت القذيفة.



٨

غيوم الموت

أجدير – ١٩٢٦مارس

عبر غلائل النوم طرقَ سمعَ جوزيف بكاءُ صغيره محمد، جفل ألِمان، فرك عينيه يحاول طرد الوَسَن وبنفس الهلع الذي رافقه في السنوات الماضية قال لنفسه « على ما يبدو أنني نمت كثيرًا!!» هتف على ميمونة لكنها لم تُجِبه، فترك فراشه وراح يبحث عنها تطوف عيناه في كل ركن من أركان منزلهما الصغير، سرت في بدنه قشعريرة «ترى أين ذهبت أم الولد؟» ذهب إلى حيث حجرة ابنه، الولد ينفطر من البكاء بينما يلعق ظهر كفه ووجهه مصطبغ بحمرة فاقعة، تزاحمت في عقل جوزيف الخواطر، وهو ينحني لالتقاط ابنه من مهده، أخيرًا سكت الصغير وألقى رأسه على صدر والده. مسد جوزيف على ظهره وهو يحدثه «لا تبكِ يا بني ما زالت رحلتك بالحياة طويلة.. وعليك أن تصمد قدر الإمكان.»

جالسَه لما يَقرب من ساعة أعد له طعامًا لكن الولد لم يأكل وما زال يردد بداخل نفسه «أين ذهبت يا ميمونة؟ حتى عادت ميمونة التي قررت أن تهدي



زوجها اليوم نفسها، فذهبت مع بعض جيرانها لمزيونة وهي امرأة عرفت في القرية بوصفاتها وعجيب صنائعها في تزيين النساء وإعداد العرائس، رسمت ميمونة الحناء ودلكت بالمسك جسدها البرونزي بعد حمام دافئ، ودهنت بزيت الأركان شعرها الناعم الطويل، بدت فاتنة في هذا الصباح، رآها جوزيف وضحك فاغتاظت:

- بعد كل ما فعلته لأجلك تضحك.

ضحك أكثر فأخذت محمد وولته ظهرها وهَمت بالسير، فوجئت به يطوقها بذراعيه، احتضنهما معًا وهمس في أذنها:

- أضحك لتصاريف الحياة، مشرقة أنتِ وعوض عن سنوات مظلمة، لا شرائط شعرك الحريري ولا الحناء في كفك ولا هذا الجسد الناعم ما يحليكِ في نظري.. لم يكن عليك تركي قلقًا عليك ولو كنت استيقظت على ابتسامتك لما تغيّر شيء في رؤيتي لك، حتى بعد كل ما فعلتِه من أجلي كما قُلتِ.. ومع ذلك أحببت رسمة الحناء على كفيك، ولكني أحببت عطرك الذي تمَلّك من حواسي أكثر..



لثم قُبلة عميقة على عنقها، ارتبكت ميمونة خجلًا وحدثت صغيرها:

- ألِمان الولد..

عض رقبتها برِقة قبل أن يفلتها قائلًا:

- حبيبي الصغير، انظر كم يحب والدك والدتك.. اشهد على ذلك، فأمك دائمة النسيان.

تضاحكا وذهبا لإعداد الفطور معًا، يحبهما ويَشعر بجدوى وجوده في تلك الحياة، كان يمضغ شاردًا وعيناه معهما، بعد الانتهاء من الطعام أخذت الصغير لتحممه بينما دلف ألِمان إلى غرفته، جلس قُبالة طاولة كبيرة تعج بالأوراق، ممسكًا بقلمٍ يرسم شيئًا، بجواره مفكرة صغيرة يدوِّن فيها بعض الكلمات ثم يعود إلى خريطته التي عكف على رسمها، شهور مضت ولم تُمحَ من ذاكرته تلك المعركة قرب فاس، لم يُهزموا ولم ينتصروا فقط منحوا رفاقهم فرصة للانسحاب إلى وادي سبو، وفي المقابل ضحّى كثير من الرجال بأرواحهم وكذلك فَعلت إيطو الزيانية.. يَذكر قتالها وصمودها وكيف كانت شديدة البأس حتى آخر لحظاتها، أما إسماعيل فكان الأسْرُ من نصيبه بعد أن جُرح، لأشهر فشلت كل محاولات تبادل الأسرى مع الجانب الفرنسي، أما هو فأصيب إصابة بالغة ولكنها لم



تُعِق عودته إلى أجدير، حُمل مع الجرحى عبر الجبال والوديان، تمكنت منه الحمى لليالٍ وأيام، وها هو الآن يَجلس في بيته يَرسم الخرائط ويجهز الخطط قبل أن يُقابل الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، الأشهر الماضية كانت صعبة على الجميع، فُقدت الناظور، ودخلها الإسبان بالإضافة لعدة بلدات وقرى حول مليلية، وحصار تطوان انتهى إلى لا شيء بعد قدوم شتاء عاصف، والقوات الفرنسية تُحشد في الجنوب، والريف ينتظر ربيعًا بدا بعيد الأجل، قبل أيام أرسل مجموعة من الرسائل والصور إلى الصحفيين في ألمانيا وفرنسا وإسبانيا يحثهم على نشر مقالاته عن المقاومة وهذا العالم الحر، عن هؤلاء الناس الذين يتعرضون لجرائم الاستعمار الذي ينهش البلاد ويترصد بالعباد، كان على العالم أن يرى ويسمع عما يحدث هنا في الريف، هكذا علمه رينيه؛ صاحبه الذي ذهب إلى طنجة للزواج، جميل هو رينيه مفعم بالحب والأمل والحماس، خلال الشهور التي جلس فيها «ألِمان» بالمنزل للاستشفاء كان هو رفيقه الدائم، يجالسه من الصباح وحتى العشية يسرد عليه قصص حدثت له في طنجة.. كان حزينًا حين تأجل موعد العرس عن سبتمبر بسبب الحرب وما حدث في تطوان وفاس،



ولكنه حزم أغراضه مع مطلع العام الجديد واتجه إلى قبلة حبه، سلبت تلك الفتاة «آن» عقله ووجدانه.

الحياة أمرُها عجيبٌ حقًّا، تباغتنا دومًا بأشياء لا نتوقعها، تمنحنا ما لم نكن نتخيله يومًا، كل سنوات الظلام الماضية محيت بنور المستقبل، ولكن أي مستقبل ينتظر ميمونة ومحمد إن مات هو في معركة ما؟! لم يفكر في هذا الأمر يومًا حتى ذلك النهار الذي ماتت فيه إيطو وأسر فيه إسماعيل، الأولى لم يكن لها مثيل بالتضحية لأجل قضيتها ورجال بالكاد تعرفهم، قاتلت بضراوة وأنقذته من الموت، وتركت بداخله أثرًا طيبًا بأن هناك دومًا من يرسله الله ليساندك ويدعمك في أشد لحظاتك يأسٍ وخوفٍ، أما إسماعيل فأولاده ما زالوا يعيشون في مدشر قريب من خنيفرة، وراوده السؤال الأكثر ألمًا من طعنة عدو ماذا لو لم يعد إليهم وقتله الفرنسيون في الأسر؟! كان إسماعيل سببًا رئيسًا في كونه جزءًا من هذه الحرب وتلك القضية، المقاومة والنضال ودفع الشر عن الناس.. وروح الرجل الصالح رشيد الذي لم يره منذ سنوات، هل كان دوره مقتصرًا على إرشاده ليعتنق الإسلام فقط! أم أن هناك شيئًا أكبر من ذلك سيحدث.. كل تلك الأمور علقت برأس «ألِمان» حتى وصل إلى باب منزل الخطابي.. استقبله الحراس بابتسامة عريضة وأخبروه أن الأمير بانتظاره.



قابله الخطابي بترحاب رافقه يتقدمه بالرواق حتى غرفة اجتماعهما، وبعد حديث قصير عن الأحوال وأمور العائلة والأولاد، راح ألِمان يبسط الخرائط التي لديه، وقرب الخطابي مصباح زيت ليطالع وينصت لما أخذ صاحبه يشرحه، اكتمل توصيل خطوط الهاتف بين أجدير وكل المنطقة المحيطة بها، لأكثر من نصف ساعة راح ألِمان يَسرد على مسامع الخطابي كل التطورات حول تجهيزات المداشر والقرى، الطرق التي مهدت والمنازل التي بُنيت ولكن الرجل كان شاردًا، وهو ما جعل ألِمان يتوقف عن الحديث سائلًا إياه:

- سي محمد هل هناك خطب ما؟؟

رفع الخطابي بصره متطلعًا إيه، ثم هزَّ رأسه نفيًا، وهو يقول بنبرته الهادئة:

- لا شيء.. فقط عقلي مشغول بأخي الأكبر امحمد وعمي سيدي عبد السلام، منذ ذهابهم لجولتهم الديبلوماسية بأوروبا لم تأتِ أي أخبار عنهما، وذلك يثير قلقي.

- حتمًا لديهم عذرٌ هو السبب في تأخيرهم، ولكن يبدو أن هناك شيئًا آخر يزعجك.

أطال الخطابي النظر بوجهه ثم استدار متوجها إلى النافذة، وقف شاردًا لبرهة قبل أن يتمتم:



- جاءتني رسالة من حدو الأكحل هذا الصباح.. الإسبان يجهزون لشيءٍ ما، يقول إنه علم بطريقة ما أنهم اشتروا كمياتٍ كبيرة من الغازات السامة كالتي استعملت في معارك الحرب الكبرى.. ما أخشاه هو احتمال أن تكون تلك الأسلحة الفتاكة مجهزة لنا.
- لا أظن أنهم يفعلون هذا.
- مَن قطعَ الرؤوس وهتك الأعراض من السهل أن يفعل أي شيء، كانوا يقولون إنهم جاءوا لتمديننا.. ولكن بالغازات السامة وكل وسائل الفناء.. إنهم يقصفوننا منذ عام وبعض القرى أبيد كل أهلها ومواشيهم دون أن يُطلق عليهم رصاصة واحدة.. تُرى هل هذا طبيعي؟!
- ولكننا نقصف في أجدير أيضًا على مدار الشهور الماضية ولم يتبين أيُّ رصدٍ لغازات سامة أو ما شابه.

لأنهم ببساطة يا ألِمان ما زالوا يجربون تلك الأسلحة الفتاكة.. وحالما يتأكدون من فاعليتها سيعرفون إلى أين يوجهونها، جبناء لا يقاتلون إلا بالخسة والنذالة.. لا شرف لديهم، أتمنى أن يأتوا على أرجلهم ودباباتهم بدلًا من قصف المدن بالطائرات.كانت



المرة التي الأولى التي يرصد فيها ألِمان الحدة والعصبية في صوت محمد بن عبد الكريم الخطابي، أخذ الرجل يتابع حديثه بإنصاتٍ، وما إن فرغ الأمير من حديثه، قال ألِمان:

- نحن جاهزون لهم، وسنقاتل حتى آخر رمق، لدينا جبهة ممتدة لثلاثمائة كيلو متر بطول الساحل يمكننا إجهادهم واستدراج أي عدد من القوات تأتي إلينا.
- نعم يا ألِمان.. سننتصر حتمًا كما فعلنا في أنوال وقرب فاس، ولن تضيع تضحيات أهل المغرب هباء.. وستأتِ الرياح بالسفن التي نشتهيها ما دمنا نملك الميناء.قضى الرفيقان ذلك اليوم في ترتيب أمر دفاعات المدن والبلدات على طول الساحل، وانضم إليهما عدد من زعماء القبائل، بعد مشاورات اقترح أحدهم تأجيل أي عمليات عسكرية حتى ينتهي موسم الحصاد، فالرجال منهمكون في حقولهم وهذا مورد رزقهم الوحيد، وافق الخطابي على الأمر وانتهى الاجتماع برحيل الجميع عن الدار وتركوا الأمير وحيدًا.. يفكر فيما ستحمله الأيام المقبلة.



******

قطع ركب من الخيالة الطريق المؤدي إلى بوابة أجدير، كانوا على عجلة من أمرهم، جيادهم القوية تطرق الأرض بعنفوان، ملثمون معظمهم إلا هو، يعرفه الجميع ويلوح له الصبية الصغار، الحاج ألِمان يبجله الجميع ويحيطونه بهالة اقتبس قداستها لقربه من الأمير الخطابي، صاحبه ومستشاره العائد للتو من الحسيمة، رحلة استغرقت أيامًا اطمأن فيها على التحصينات ومد خطوط الهاتف إليها، نزل في ضيافة عبد الله الصربي، صديقه القديم الذي استقر به المقام في جنة الريف، تعرف على أولاده وطال بهما الحديث عن كل شيء، كلاهما كان على نفس السفينة الذاهبة إلى الجزائر، الأسى كان يُهيمن كلما حلت سيرة إسماعيل، لا أحد يَعرف عن التركي شيئًا من أسره.. أنهى ألِمان جولته في الحسيمة وها هو يعود مرة أخرى إلى عاصمة المقاومة.. أجدير.

استقبله محمد بن عبد الكريم الخطابي بابتسامة هادئة، ترجل عن صهوة جواده وقدم التحية للأمير خافضًا رأسه للأمام:

- السلام عليكم، مولاي محمد.



حياه الخطابي وبدأ الرجال في تقبيل يد الرجل تباعًا، دلف الجميع بعد ذلك إلى مجلسهم بداخل دار الأمير، لقاء زخر بإنجازات كل منهم وكيف أن مهمتهم في الحسيمة وأنحائها تمت بنجاح، استمع لهم الرجل وناقشهم في عدة نقاط، كان مستمعًا جيدًا يَعرف معنى القيادة، يدرك قواعد اللعب مع الإسبان والفرنسيين، الاثنان يطالبان برأسه ورأس قادته، الريف صار قويًا تحت رايته حتى وإن خَسر وانسحب من عدة معارك «المقاومة هي السبيل للنجاة وحرية الشعوب» هكذا كان يقول دوّما، انفض المجلس وبقي ألِمان بناء على رغبة صاحبه، ما إن رحلوا سأله:

- كيف وجدت الحسيمة هذه المرة؟!
- هادئة وبهية، مدينة تألفها النفس، لا عَجب أن عبد الله الصربي اتخذها مستقرًا له.
- أحب الحسيمة كما أحب الشمال وكل أنحاء المغرب.. أتدري يا ألِمان هناك شعور غريب يراودني، أخشى أن يفرقوا بيني وبين الناس.
- مولاي محمد، الناس تحبك ويطلقون عليك الأمير و...
- لا أريد هذا يا ألِمان، لا أريد أن أكون أميرًا ولا حاكمًا، فقط أريد أن أكون حرًا في بلدي. لا



أرى في هذا الوجود إلا الحرية، وكل ما سواها باطل لا أرى في هذا الوجود إلا الحرية، وكل ما سواها باطل. أنا مسؤول أمام الله عن آلاف الأسر التي قد تقضي نحبها بسببي.. ماذا لو انتقمت إسبانيا لما فعلناه بها يوم أنوال وما تبعها من معارك؟!

دام صمته لوقتٍ طويلٍ وهو يتطلع شاردًا بخريطة أمامه، ثم تحدَّث:

- العالم صامت على ما يُفعَل بنا، فرغت الدول الاستعمارية من حربها الكبرى، ولكننا سنقاوم ونكسر الأغلال عن أمتنا وبلادنا، تلك الأرض ملكنا وملك أجدادنا وليس لفرنسا أو إسبانيا حق هنا. هذا ما يجب أن يعلموه جيدًا.

رفع بصره تجاهه وأردف:

- ألا تفكر بالزواج مرة أخرى؟!

ضحك ألِمان وعقد حاجبيه مندهشًا من قول الخطابي:

- ولكني متزوج.
- وهل هذا يمنعك؟
- لا بالطبع، وأعرف أن الإسلام أحل للرجل الزواج بأربع.. ولكن أموري جيدة هكذا، شكرًا

لك مولاي.

- ربما حين تراها تبدل رأيك.. هيا عد إلي منزلك ستجدها في انتظارك أرسلتها لدارك فور رؤيتي لها أجد أنها تليق بك.. ستتفهم زوجتك الأمر سَبق وتحدث معها أبوها في هذا الشأن وقت غيابك بالحسيمة.

- هذا لطف منك مولاي..

- حسنًا عد إلى الدار وارتح وانظر في أمر العروس.. ستنال إعجابك بالتأكيد.

طوال الطريق أخذ ألِمان يفكر، كل رجل يطمع في الحياة بامرأة وأكثر، زينة الحياة الدنيا ومصابيحها، إلا هو، في حبه لميمونة مخلص حتى في خياله إنه يحمل نحوها عطفًا صادقًا، فكر كيف استقبلت في منزلها امرأة أخرى تعلم أنها قد تشاركها زوجها عواطفه بصره صوته سمعه، « الرحمة بها يا الله» تنهد وهو يسر بتلك العبارة بداخل نفسه، شد على شفته السفلى بأسنانه وطرق باب منزله، فتحت له، وشَت نظراتها بكل شيء لكنها لم تتكلم، دخل منزله ببطء السائر في جنازة، سأل عن ابنه محمد فأجابته باقتضاب « بخير» وراحت تقدح الثقاب واحدة تلو أخرى حتى أشعلتها



أخيرًا بشق النفس، أضاءت مصباحًا زيتيًا أعطته لزوجها وقالت له:

- خذ المصباح وادخل إنها تنتظرك، يجدر بك أن تراها بتمعن، إنها جميلة يا ألمان.

كلمات فاحت منها الغيرة وغضب مقرن بسخرية واضحة، ليست هذه هي نبرة ميمونة ولا طريقة كلامها، إنها لم تبتسم في وجهه بل رجمته بكلماتها، رحلت من أمامه، وظل واقفًا وحيدًا في ردهة المنزل يفكر ماذا يفعل، أيلحق بأم ولده أم يتبع الأصول والواجب ويرحب بضيفته هدية صديقه وأميره، بقى متصلبا في مكانه للحظات قبل أن يمضي إلى الغرفة الموصدة، أمسك بمقبض الباب وتوقف متفكرًا ما الذي يحدث معه ميمونة غاضبة ولا يريد أن يُحرج الأمير ولكن مَن هذه التي تودع في بيت حتى ينظر إليها من أهدت له، لم يكن مستوعبًا الأمر حتى فتح الباب برفق..

كانت جالسة في الزاوية تطلع إليه بعينيها الواسعتين، الخوف بادٍ على محياها، وبشرتها البيضاء مائلة للزرقة، تضم ركبتيها إلى صدرها، تضع على رأسها حجابًا انزلق عن نصف شعرها الأشقر القصير، وملامحها الدقيقة الحزينة الطفولية أرجفا قلبه، ظلّ



واقفًا يحدق بها لا يدري ما عليه فعله، لحظات مرت حتى بدأ الحديث متوجسًا:

- هل أنتِ بخير؟

انفجرت باكية وشبكت أصابعها أمام صدرها وأخذت تتلو كلمات بالإسبانية، «إنها تُصلي» هكذا حدَّث نفسه، لعلها تتضرع لئلا يقترب منها، كان عليه أن يهدئ من روعها، تراجع خطوة للوراء رافعًا راحتي يده أمامها قائلًا بالفرنسية:

- لا أعلم إن كنتِ تجيدين الفرنسية أم لا.. ولكن لغتي الإسبانية سيئة جدًّا، لن أؤذيكِ أقسم لك.. فلا داعي للبكاء.

انكمشت أكثر في مكانها وقالت بفرنسية ذات لكنة إسبانية بدت في طريقة لفظها للكلمات وهي تحدِّثه برجاء:

- أنت مسيحيٌّ؟!

صمت، تاه في الإجابة وعقله يعيد عليه ذلك اليوم في الجزائر بكنيسة السيدة الأفريقية وتمثالها الجرانيتي كان بصورة أمه.. أجابها بعد ومضة من شرود بإيماءة وحدثها:

- اطمئني، أنتِ في أمانٍ ولا أحد يستطيع أن يَمسك بسوء.. أنا ألماني.. ربما تستغربين



هيئتي، كنت جوزيف وصرت الحاج ألِمان، أوروبي مثلك تمامًا..

- ماذا ستفعلون بي؟!

- لا شيء، ما تريدينه سأفعله، أيًا كان، شَرط أن تبتسمي وتطمئني لي.

كان يُشفق علىلا حالتها الرثة، المسكينة لم تكن تعلم أنها ستتزوج، توقعت الأسوأ أن تكون جارية تغتصب مرارًا وتُترَك في الصحراء روحًا هائمة بعد أن تنزف حتى الموت، سَمعت ما يكفي من حكايات تَصف همجية ووحشية أهل الريف.. انتشلها صوته من قاع بئر يفيض بأفكارها السوداء..

- ما اسمك؟

- إيزابيلا..

- حسنًا إيزابيلا، سعدت بلقائك، هل تقصين عليّ حكايتك حتى أستطيع مساعدتك؟!

كان يحدثها مبتسمًا متذكرًا رينيه، جامع القصص وكيف أقنعه على السفينة المتجهة للجزائر بأن يقص حكايته، هناك في البحر تبدّل كل شيء في حياته، كانت لحظة فارقة لكل من جاء على تلك البارجة الحربية وجب عليه الآن أن يتبع أسلوب صاحبه رينيه.



- أنا إيزابيلا خوان دي لامنشا.. نحن من سلالة نبيلة في إسبانيا، يستطيع والدي أن يدفع ما تريدون فقط أطلقوا سراحي وأعيدوني لمليلية.
- أنتِ من مليلية إذًا.
- لا أنا من مدريد، أنا متطوعة بمستشفى مليلية، ممرضة وأعالج الجميع، أقسم لك عَالجت الكثير من المغاربة، كنا في مستشفى ميداني أنا ورفيقتان وإليخاندرو.. ضابط طبيب بالجيش الإسباني.

اعتصرت يديها وتحسست خاتم خطبتها، وأردفت ودمع ثقيل يتساقط من مقلتيها ببطءٍ:

- أظنهم ماتوا جميعًا إلا سيسيلا.. كانت معي وافترقنا بعد أن اطلع علينا عبد الكريم.. أريد العودة إلى مليلية أرجوك.

كان مشتتًا.. وتداخلت الذكريات في رأسه، صورة سارة بزِيِّ التمريض، كلمات الخطابي عن الحرية والعدل، الطبيب خطيبها هكذا استنتج.. قاطعها سائلًا:

- إليخاندرو هذا خطيبك أليس كذلك؟؟

أومأت برأسها، فتابع بنبرة تحمل الأسى:



- آسف لمصابك، أتمنى أن يكون بخير في مكانٍ ما.. يبدو أنك تحبينه كثيرًا.
- لقد جئت خلفه إلى هنا، صدمت عائلتي بأمر تطوعي ولكن العديد من الكونتيسات جاءوا أيضًا معنا.. سيدات مبجلات يحطن بمجلس الملكة.
- لماذا جئتن؟
- لخدمة للرب وإسبانيا.. نقوم بعملنا بعيدًا عن ميادين القتل، ونعيش حياة صعبة بين الدماء والأشلاء، فرحة نجدتك لجريح يقابلها أعين جامدة، تُحملِقُ في الأسقف خاوية من الحياة، نحاول دفع الموت بعيدًا عن المصابين، حتى جاء اليوم الذي اخترت فيه للخروج إلى ثكنة تعرضت لهجوم الريفيين.. أرجوك أعدني إلى مليلية، إن كنت حقًا تريد مساعدتي.. حررني.
- أنتِ حرة بالفعل.
- أنا أسيرة لديكم ولا أعرف ما سَيفعل بي.
- هل أنتِ مقيدة؟؟ لا أرى أغلالًا وتتكلمين بحرية وأمامك طبق به صنوف أكل لا يحصل عليه أي أسير، ألا يكفي هذا أن تكوني حرة؟!
- هل هذه الحرية من مفهومكم؟



أجابها بلطف:

- لم أسأل نفسي يومًا ما عن معنى الحرية، أنا أعيش لأنه يجب عليّ أن أعيش الحياة بهذا الشكل، وإن كان عندي جناحان لما فكرت فيما من الممكن استخدامهما، قد أرفرف بهما فرح بوجدهما لكن لا أظنُّ أنني سأختبر الطيران بهما.. ولكني سأمنحك ما تريدين.

- ماذا؟؟

- الحرية التي تريدين.. سأعيدك إلى مليلية.

عاد إلى غرفته حيث ما زالت ميمونة مستيقظة، تطلعت إليه بينما يبحث في صندوق ملابسها عن شيء، سألته:

- عن ماذا تبحث؟

- أريد ثوبًا ثقيلًا يقي الفتاة البرد.

فغرت فمها ولم تنطق، دام الصمت لبضع لحظات قبل أن يلتفت إليها:

- سأعيدها من حيث جاءت.

رددت بتوجس:

- إلى الأمير الخطابي؟

- بل إلى مليلية حيث كانت تعيش.

- ولكنه أهداك إياها.



- ومنذ متى يُهدى البشر؟! إنها إنسانة لها الحق في اختيار مصيرها والعيش كما تريد.
- إنها أسيرة.. يا أِلمان.
- إنها مجرد فتاة، ممرضة لها طموحات وأحلام.
- وهل ستذهب معها إلى مليلية؟ من الممكن أن يقوم أحدُ رجالك بالأمر.
- سأعود يا ميمونة لا تقلقي.

خرج من الغرفة، فنهضت ميمونة فرحة وركضت نحو الباب، تلصصت عليه وهو يخرج من الغرفة حاملًا مصباح الزيت ومن خلفه الفتاة وقد تلحفت بملابسها، لم تترك ميمونة رأسها للهواجس بل خرجت من مكمنها، تبعتهما حتى صارت على عتبة الدار نادته:

- أِلمان عد إلينا سالمًا.

*****

بعد شهرين..

يوم شديد الحرارة في صيف ليس كمثلِه صيف، الناس يفترشون شواطئ خلجان فيروزية المياه، خُضرة التلال شاحبة عَطشة، وأسواق الحسيمة عامرة بالظلال، ولكنها خاوية من الناس في تلك الساعة من النهار، لا ريح يحرك الأغصان ولا هواء يُرطب الأجواء،



كل شيء هادئ حتى العصافير لم تبرح جحورها بالجدران القديمة، ومجموعة من الأطفال يلهون في الأزقة الظليلة، ضج الزقاق بصياحهم حتى تناهى إلى مسامعهم الطنين.. ركضوا بسرعة في الأزقة الضيقة الملتوية حتى وصلوا إلى خارج المنازل، إلى حافة الجُرف المطل على البحر.. وفي زُرقة السماء الباهتة كانوا يقتربون.. يحلقون باتجاههم كسربٍ من طير جارح من حديدٍ، مروا فوق رؤوسهم محدثين ضجيجًا ارتجت منه الأرض تحتهم، وبدأ القصف على المدينة.. تهاوت القنابل تباعًا كالمطر، الانفجارات تصم الآذان والصغار يحملقون فاغرين أفواههم وأعمدة من دخان أخضر تصعد إلى السماء، ركض أولهم نحو المدينة وتبعه رفاقه، الصراخ والعويل وأناس تَركض هنا وهناك، قتلى وأشلاء والدخان الأخضر يَحتل الخواء، تفرّق أحمد بن عبد الله الصربي عن رفاقه، كل ما أراده هو العودة إلى المنزل ولكن الضباب كان يغمر كل شيء.. تحسس الجدران وألم شديد يغزو صدره، بكى.. كان خائفًا والناس تتهاوى من حوله.. يسعلون ويتقيأون ثم يسقطون أرضًا.. تنتفض أجسادهم كأن بهم مَسًا من جان.. كاد أن يَسقط حين تعثر بجسد امرأة صريعة، خُيّل إليه أنه رأى شجرة التين العتيقة قرب باب منزلهم.. ركض والدماء تسيل من أنفه دون



أن يَشعر، المسافة تطول ولا سبيل للوصول إلى الباب إلا تحليقًا.. بسط الصغير يديه في الهواء وهوى على وجهه.. بعين نصف مفتوحة رآهم يخرجون من الضباب؛ وحوش غريبة الشكل وإن كانت تنتصب على ساقيها كالبشر، يحملون بنادق ذات سكاكين لامعة، تغطي وجوههم أقنعة غريبة.

الباب يُفتح والمشهد يتباطأ، خَرج عبد الله مُلثمًا، هرول إلى حيث سقط ابنه، على جانبي الزقاق تغرس النصول بالأجساد، لم يكن الصرعى بحاجة إلى الرصاص، سيهدر دون جدوى مع أجسادٍ نال منها الغاز السام، ارتمى عبد الله على جسد ابنه تحسس رأسه بيدٍ مرتجفة، وحين هَمَّ بحمله ضرب بكعب بندقية في ظهره، أفلت جسد الصغير المرتخي وهو يسقط إلى جواره، ارتطم بالأرض وتلقّى ركلة بمعدته، لم يكن الألم الناتج عن الضربات كذلك الذي يفيض به قلبه، ولكنه نهض بحركة سريعة، تفاجأ الجندي وظلّ يُحدق به من خلف زجاج قناع الغاز الملتصق بوجهه، لحظات مرت.. الدخان يحيط بهما وجثة الصغير على الأرض بينهما، رفع الجندي ذو القناع بندقيته وضغط زنادها ولكن عبد الله الصربي تحرك قبل ذلك، مال جانبًا وهو يندفع نحو الإسباني، ارتطم بجسده بقوة دافعًا إياه إلى الحائط، عراك بالأيدي تفوّق فيه عبد الله، ونجح في أن



يجعل الآخر يُفلت بندقيته قبل أن يغرس نصل سكينه بقلبه.. لثامه المبلل بدأ في الجفاف وصار يَسعل وبدأ الإعياء يتسلل إليه، خلع عن الجندي القتيل قناعَ وجهه وعاد راكضًا نحو ابنه القتيل، ألبسه القناع وشد أحزمته جيدًا حول رأس الصغير الشاحب وحمله عائدًا إلى الدار.

جميعهم أموات؛ زوجتي وأبنائي.. حتى الدجاجات التي كنا نربيها، وإن بقيت أنا أيضًا، سيكون مصيري الموت.. لم أتخيل تلك النهاية لأسرتي.. إن ما بنيته في سنوات ينهار هكذا.. لو لم يكن قتل النفس حرامًا لانتقمت من موتهم بقتل نفسي لألحق بهم.. استطعت الهرب متنكرًا بزي جندي إسباني وقناع الغاز الخاص به.. وها أنا أجلس معكم أندب وأتحسر على ما حدث وأعزي نفسي بأني قاتل من قتلهم.. ما دمت حيًا سأقاتل، وكلمة ليتني لا محل لها بالحياة سوى الندم، ولكن يصيب النفس ألم شديد من تحطيم الأحلام، إن تركت نفسي للهوى لكان الأمر صعب تقبله، خاصة حين ترى الحياة تسلب من حولك، أحمد ابني أراد أن يصبح مثل حدو الأكحل يُحلق بطائرته فوق العالم.. كان لديه لعبة من خشب، مجسم لطائرة كنت وجدته بثكنة إسبانية، وكأنها كانت نذير بما سيحدث أن تقصفنا إسبانيا بغاز الخردل السام، كل ما أردناه الحرية وإقامة



العدل، أن نحرر البلاد من الاستعمار، فأنا جبت الأرض من سراييفو إلى بلغراد وإسطنبول وروما حيث التقيت بإسماعيل التركي واستقر بي الحال في باريس، انضممت إلى الفيلق الأجنبي وتعرفت على الحاج «ألِمان» كان حينها جوزيف كليمس ذلك الألماني الغامض، الصامت معظم الوقت كان إسماعيل أقرب إليه مني، وحدث ما حدث في جبل مستاوة ورأيت الحقيقة حين عفا عني المقاومون وتركوني جريحًا بدلًا من قتلي، وفهمت رسالتهم حين أعتقوا جميع الأسرى، خضت أهوالًا عديدة من أجل الحياة التي وهبنا الله إياها، تركت مكناس وانضممت إلى ثوار الأطلس وجاورت أوحمو الزياني في أرض القتال وشَرفت بمرافقة سرية إيطو الزيانية، ماتت هي أيضًا قرب فاس، كانت محاربة أسطورية كتلك الحكايات العجائبية من بلغراد ورومانيا.. وحدها زوجتي حكيت لها كل شيء، تقبلتني بكل ما كنت أعانيه، أتعرف يا رجل شعور أن تكون وحيدًا في هذا العالم؟! عدت الآن من حيث بدأت وحيدًا دون أسرة أو أولاد.. ولكن لدي إخوة وأصدقاء يحيطون بي، مصابهم مصابي وحزنهم حزني، من لطف الله أنه يقرب الأصدقاء في وقت المحن، أتعرف يا «رينيه» في هذه الحياة علينا أن نخطئ ونتعثر لنعلم من يتمسك بنا جيدًا، الجيدون



فقط يبقون معنا ويدفعون بنا إلى الأمام، ومن كل من عرفتهم بتلك الحياة لم أجد شخصًا قريبًا مني سواها، ولكني لم أكن أفصح لها بشيء عما بداخلي من حب العودة يومًا إلى بلادي، أو اشتياقي لأبي الذي لا أعرف عنه أي شيء.. هل مات أم ما زال حيًا في مكان ما.. كنت آوي إليها كل ليلة وأضع رأسي وسط حجرها وأغمض عينيّ في حضرتها.. فيتوقف الزمن ويعم السكون.. تخرس البنادق وتخمد النيران.

حكى عبد الله تفاصيل كثيرة، كان حزينًا موجوعًا.. وبمقلتيه نبع دمع لم يتفجر، ليس هناك أصدق على هذه الأرض من رجلٍ فقدَ كل ما أراده يومًا، لم تكن الحسيمة وساحلها إلا البداية، غاز الخردل السام حصد الأرواح وتهاوت المعاقل، الموت صار جاثمًا على المدن والبلدات، كان اجتياحًا عظيمًا تحالفت فيه فرنسا وإسبانيا ضد المقاومة في الريف.. إنزال ما يقرب من نصف مليون جندي بأسلحتهم وعتادهم ومدرعاتهم، الطائرات تقصف المدن والقرى بالغاز فيهلك من يَهلك ويستسلم البقية، عدة مناطق شهدت معارك ضارية ولكنها انتهت بالانسحاب أو الاستسلام.. انتشرت قصص عن بطولات الريفيات وصمودهم وقتالهم إلى جانب الرجال في المعارك، نسوة قررن ألا يعشن إلا بكرامة وعزة، كان الإسبان

والفرنسيون أكثر مكرًا من الأمير الذي ظنَّ أنه قد يحصل على هدنة بفعل مؤتمر وجدة لبناء قواته.. ولكن الإسبان كانوا متعطشين للثأر من يوم أنوال، انقطعت معظم الأخبار عن مقر المقاومة بجبال الريف، حيث يَجتمع القادة وبعض من زعماء القبائل، تبدَّل حالُ الأمير والجميع لاحظ ذلك الأمر، صار أكثر عزلة وصمتًا، حين يَخرج يرافقه أخوه الأكبر امحمد الذي يبث في نفوس المقاتلين طمأنينة بكلماته عن النصر ووعد الله.. كانت الأخبار السيئة تتوالى دون هوادة، فرنسا تهجم من الجنوب والشرق وإسبانيا من البحر والغرب.. توغلت قواتها حتى مشارف غمارة، بعد الظهيرة وصل عددٌ غفير من الثوار وأبناء القبائل، وكان من بينهم ألمان، رافقه بضعة رجال من المقاومين الأجانب، استقبله الرجال بترحاب هو وجماعته قبل أن ينفصل ويدلف إلى حيث يَجلس الخطابي.

«انتهى الأمر، تقبل الله منك، يمكنك الذهاب.. أنت حر يا ألمان.»

كانت هذه الكلمات هي نهاية محادثة استمرت لأكثر من ساعة بين الرجلين، عانقه الخطابي وربت على ظهره، ولكن ألمان لم يتقبل الأمر، خرج من البيت غير مستوعب لما يحدث، الخطابي يريد تجنيب الناس الهلاك بالاستسلام؟! كيف هذا!.. لا يعقل الأمر إن



استسلموا ستكون نهايتهم مريعة، رؤوسهم سترفع على فوهات البنادق، تردّد في عقله كلمة الخطابي «الإسبان يريدون رأسي يا ألِمان».. هل خاف الرجل حقًا على روحه؟! أم أنه كما قال يخشى مقتلة عظيمة قد تنهي على كل من بالريف.. هل آثر تسليم نفسه على أن يُقتَل الأبرياء بسببه؟ أم أنه أراد الحياة، وهل يضمن أي محاكمة عادلة من هؤلاء؟ كان شارد الذهن حين سَمع صوت رينيه:

- وكأن لقاءنا قدرٌ محتوم يا ألِمان.

استدار مبتهجًا والفرح يغمر تقاسيم وجهه التي بدلها الزمن، ليس ذلك من التقاه على ظهر السفينة المتجهة إلى الجزائر، تعانقا ضاحكين وألِمان يحدثه:

- صرت نحيفًا أيها الفرنسي.

- بل معدتك اعتادت على دسامة الأكل الريفي.

أفلته ألِمان وهو يربت على كتفه:

- منذ متى وأنت هنا؟؟

- وصلت منذ يومين، حاولت مرارًا التحدُّث مع سي محمد الخطابي ولكنه أخبرني بلطفٍ أنه لا يود الحديث.

أطرق ألِمان رأسه:



- الوضع صار صعبًا ولا أحب أن أتكلم أيضًا عن الأمر.
- هل الأمور سيئة للغاية هكذا؟
- بل أكثر يا صاحبي، أنا عائدٌ إلى حيث تتمركز قواتي، هل ستبقى هنا للأيام المقبلة؟

هز رينيه رأسه نفيًا وزاغ بصره:

- جئت لأحصل على لقاء حصري ولم يَحصل هذا.
- رينيه، ماذا بك؟؟
- لا شيء..
- ليست هذه نبرة صوتك، ولا هذه روحك التي عهدتها، هل هناك خطب ما؟ كيف حال «آن»؟؟ تزوجتما أليس كذلك!

أطبق الوجوم على وجه رينيه، ظلّ صامتًا جامدًا يحملق في وجه صاحبه دون أن يجيبه، وكان الحزن وريح السهوب لوح وجهه بكى وانهمر دمع مفاجئ من عينيه، دهش إلمان وتلفت حوله ليتأكد أن أحدًا لم يرَ بكاء صاحبه، يبكي الرجال حين يشعرون بالقهر، حين يشعرون أنهم عاجزون، أمسك بكتفيه برفق وحدّثه بصوت خفيض:

- على رسلك يا صاحبي.. اهدأ، تعالَ معي.



جذبه وسار به باتجاه كوخ خاوٍ، مسح رينيه وجنتيه وفرك عينيه بعنف لكن بئر الدمع لم تنضب، أغلق ألِمان الباب الخشبي العتيق خلفه، استدار رينيه وتطلع إلى وجهه، فسأله ألِمان:

- ما الذي حدثَ ليكون كل هذا الحزن بداخلك؟

أجهش رينيه بالبكاء، فاستطرد ألِمان بصوت رخيم:

- ابكِ يا رجل، فرغ كل ما يجيش به وجدانك..

مرت دقائق حتى هدأ رينيه، غسل وجهه من قربة ماء صغيرة أعطاها إليه ألِمان، كان يَجلس مقرفصًا على الأرض مستندًا بظهره إلى الحائط، شَرد قليلًا ثم تحدث:

- ما كان ينبغي للأمور أن تسير هكذا.. لم يكن هناك داعٍ لكل العبث الذي حدث ويَحدث، الأمور كانت تسير على خير حال حتى يوم زواجنا.. ثم تبدل كل شيء، حتى «آن» صارت أخرى.

- وما السبب؟!

- الخيانة.. هذا هو الجُرم المشهود الذي دمر كل شيء، خنتها مع أخرى.. لم أكن أقصد أبدًا ذلك، الأخرى كانت صديقة وتوددت ليّ



ووقعنا فيما وقعنا فيه مرة واحدة ثم توقفنا لأن لكل منا لديه حياة أخرى.. كانت تلك خطيئتي التي عاقبتني عليها «آن».. أنا مجروح يا رجل، وكأني شيدت صرحًا عظيمًا وفجأة سقط فوق رأسي، أنا أحبها يا ألِمان.. أحبها.

انتحب رينيه مرة أخرى، بينما ألِمان يطالعه في صمت، أردف رينيه:

- أنا فعلت أشياء كثيرة لأجلها.. خضت حروبًا ضارية وقطعت مسافات طويلة لأكون معها.. نسيت كل شيء يا ألِمان. ووضعت عشرات الحواجز بيني وبينها.. هي كل من أعرفه بطنجة صرت وحيدًا شريدًا.. حاولت لقاءها والحديث معها ولكني مُنعت.
- أوجعتها يا رينيه.. هَشمت خاطرها وما كان يجب عليك أن تفعل ذلك، ما دمت مرتبطًا لماذا تضاجع أخرى؟
- لم أضاجعها.
- ألم تقل خيانة؟؟
- الأمر اقتصر على بعض الأحضان والقبلات وحديث الرقيع، ولكنها رأتني.. في ذلك اليوم



بحفل المندوب السامي.. كنت تأنقت ببدلة بيضاء وربطة عنق قرمزية كلون فستانها.. انتظرتها ولكن تلك المرأة الأخرى جاءت قبل آن.. اللقاء كان عاديًا حتى بدأت الغاوية تتلاعب بي.. تمايلت وتصنعت التعثر فالتقفتها بين يديَّ.. قبلتها ولم يكن عليَّ أن أفعل هذا.. وكانت آن ترى كل شيء.

- الخيانة ليست من شيمك وعلى «آن» تفهُّم الفرق بين الخطأ والخيانة.. مجروحة هي وعليك الصبر عليها، فإن الغضب يتحكم فيها.
- حاولت مرارًا محادثتها ولكن كل الطرق أغلقتها في وجهي.
- الحديد لا يُطرَق وهو ساخن يا صاحبي، أذكر ذلك اليوم الذي قلت لي في السفينة أني لم أسعَ إلى ماجدولين كما ينبغي.. ولكن شهدت على محاولاتك الذهاب إلى طنجة حيث تقيم «آن» وشهدت على مدى حبك وإخلاصك لها، خطاباتك ورسائلك كلها تقطر حبًا لها.. أجزم أنها كذلك تحبك، ولكن على قدرِ الحب يكون الألم. دَعْ الأمور تسير إلى نصابها، ولا أعلم أيَّ



غباء أصابك لتأتي إلى هنا وسط الحرب وتترك حربك الخاصة.

- جئت للعمل لعلّي أهدأ ولكنّ طيفها يطاردني في كل مكانٍ.. أشعر أني تسببت لها بجرح كبير وأشعر بالذنب لذلك.

- لا تحمل نفسك فوق طاقتها، نحن بشر نخطئ ونفعل أمورًا شنيعة بقصد أو غير، والحب في أصله مغفرة وصفح، ستتفهم «آن» الأمر في وقتٍ ما.

- إنها عنيدة يا ألِمان.

- كلهن كذلك.. طالما أنكما أحببتما بعضكما البعض، سيكون هناك بينكما خيط رفيع وستتحدثان ويعود كل شيء كما كان.

- أخشى أن تعتاد البعد ويقسو قلبها بالهجر.

- اسمع يا رينيه.. أتريد نصيحتي؟!

- نعم.

- اذهب إليها واعترف لها بخطئك.. تحدثا.. تواجهَا، وحدكما القادران على تخطي الأمر.. هي تحبك وأنا أعرف ذلك.. ولكنك تحبها أكثير يا رينيه.

رفع رينيه وجهه وتطلع بوجه ألِمان الذي أردف:



- نعم أنت تحبها أكثر.. أصدق الرجال في العالم من يبكون حبيباتهم، إن كنت ترى أنها تستحق أن تجازف من أجلها وتعود إلى حيث هي في ظل هذه الأجواء.. عد، اذهب إليها، ولا تكف عن المحاولة.. أليست هي حُلمك؟ ألا تستحق أن تطيب خاطرها وتخبرها وجهًا لوجه كم تحبها؟ اذهب، حاول وقاتل من أجل حُلمك.. هذا حديثك لي يا رينيه ذات يومٍ..
- وهل وجدت حُلمك أنت يا ألِمان؟؟
- الدفاع عن المستضعفين ونصرتهم هما حُلمي وغايتي.. لدي حياة الآن؛ زوجة وطفل وبيت كبير بأجدير، ربما حتمت الحرب علينا الانتقال منه ولكنه ما زال هناك ينتظر عودتنا منتصرين.
- حديث ألِمان كان يفيض بالأمل، رغم كل الدمار الممتد بطول ساحل الريف كان هناك أمل، رغم الموت والحزن ما زال بالعيون بقية بريقٍ من أملٍ، لطالما كان رينيه من يهوِّن على الجميع والآن انقلبت العُملة، هكذا هي الحياة دومًا.. عفوية.. حتمية وغير عقلانية، تضعنا تحت ضغوط قد لا نتحملها فلا نحسن اختيار



كلماتنا وقرارتنا، وعلينا تحمل العواقب، نجلد أنفسنا ونبحث عن مخرج ونحن الوحيدين الملامون على كل فعلٍ اقترفناه بوعي أو في لحظات الغضب العارمة، ومن يغفر لنا زلاتنا إلا أناس يحبوننا بصدقٍ ويمنحوننا فرصة ثانية، ولكن هذا يحدث مع أولئك الذين لديهم أناس مقربون وبداخلهم قلوب تحوي ولو جزءًا ضئيلًا من المغفرة وعقول تمنح العفو والصفح دون مقابل.. من كان يتوقع أن هذه الزمرة التي التقاها منذ سنوات على ظهر سفينة يجتمعون بعد أن تفرقهم الأيام، تحول كل واحد منهم وصار شخصًا آخر، إسماعيل في الأسر، وعبد الله ما زال صامدًا رغم ما ألم بأسرته، وأِلمان الكاره للحياة صار محبًا لكل ما فيها.. الأيام والسنوات كانت كافية ليخوض كُلٌّ منهم غمار الحياة بمصاعبها واختياراتهم ولكنهم جميعًا كانوا مؤمنين بشيءٍ ما.. قضية يعيشون لأجلها، ورينيه كانت «آن» هي حلمه وقضيته وإيمانه بأن الحياة ستكون أجمل بجوارها، ظل أِلمان يتحدث عن زوجته وأولاده حتى تذكر رينيه أمر عبد الله.. فأخبره وكان اللقاء.



*****

أيام قضوها برفقة الخطابي ورجاله حتى قرر الأخير الرحيل، جَمع الرجال متاعهم وتجهزوا للرحيل إلى حيث أمرهم، لم يكن أحد يَعرف ما الذي ينوي الرجل فِعلَه سوى ألِمان.. ولكنه كذَّب نفسه، كل التعليمات اقتصرت على الرجوع لتمركزات المقاومة في الجبال حتى تأتي لهم الأوامر الجديدة.. حالة من الارتباك سادت الجميع وانفضوا إلى حيث أمرهم محمد بن عبد الكريم الخطابي، رحل ألِمان ومعه عددٌ كبيرٌ من رجاله عائدين إلى خط الدفاع الأخير حيث كتائب المدفعية.. قافلة طويلة من الخيالة والمشاة يتبادلون الركوب على ظهور الأحصنة، وبينهم كان رينيه يرافق صاحبه الذي وعده أن يعيده إلى طنجة في أمان.

ضُربت أوتاد الخيام بوادٍ بين جبلين قريبين، حُلت السروج عن ظهور الخيل، كان عليهم الراحة لمواصلة الطريق، استراحة حتى مطلع فجر تمنوا أن يأتي بكل خير.. أشعلت النيران وتجمَّع الرجال في دوائر حولها، عبد الله وألِمان ورينيه اختاروا أماكن متجاورة.. جلسوا يستدفئون بالنار ورينيه يقص على مسامعهم حكاياتٍ عن مغامرته هو وحدو الأكحل، لم يكن من الغريب أن يتواجد صحفي فرنسي بينهم، الجميع يَثق بألِمان وعبد الله الصربي وكذلك صديقهما الثرثار.. مع



انتصاف الليل كان الجميع نيامًا إلا رجال الحراسة، السماء ذات الزرقة الداكنة والنجوم اللامعة كانت سقفهم، هلال وليد راح يتهادى في السماء على مهل.. أحد الحراس كان قريبًا من دغل من الشجيرات الكثيفة، توغل بينها قاصدًا مكانًا يقضي فيه حاجته، وبدلًا من ذلك تلقى طعنة من الظهر، غرس الخنجر مرتين بجانبه وبينما كان الغادر يكمم فاه ضغط الحارس زناد بندقيته بآخر ما تبقى في عروقه من حياة.

صوت الطلقة أيقظ كل حي بالجبال لمسافة بعيدة.. ظل طنينها عالقًا بالآذان حتى هجم الإسبان، ممطرين مخيم الثوار بوابل من الرصاص، اخترقت الأجساد وضربت الصخور والشجيرات، فزعت الخيول وحاولت الهرب، استطاع بعض الفرسان امتطاء خيولهم، أخذ عبد الله بندقيته وراح يطلق النيران صوبَ مصدر الهجوم، الليل ونيران المخيم شبه خامدة منحا المشهد رهبة بدأت حين بدأ الريفيون في الرد بكل قوتهم على جنود التريسيو -الفيلق الأجنبي الإسباني- ، يعرفهم ألمان جيدًا، إنهم من يرددون شعار «عاش الموت» أشد مقاتلين الجيش الملكي الإسباني، طوقوا الثوار من كل جانب وتبادل الطرفين الرصاص بين الحين والآخر، مرت ساعات والوضع كما هو،



ضباب صباحي خفيف راح يغلف الأجواء، وكلما تحرك شيءٌ كانت الرصاصات تطلق، خلف صخرة كبيرة كان ألِمان ورينيه المحتضن لكاميرته، حديثهما طوال الساعات الماضية كان همسًا.. محاصرون داخل هذا الوادي ولا سبيل لفك الحصار ومعرفة عدد المهاجمين، بينما الحال كذلك جاء رجل إلى عبد الله وأخبره أن الإسبان يتراجعون.. لم يصدِّق ما قاله الرجل وذهب معاه، بحذرٍ مشى الرجلان بين الشجيرات والصخور، لا شيء سوى الضباب والرجل يجزم بأنه رآهم يتراجعون، لم يكن هناك سبيل للمجازفة، الأعداد قليلة والمصابون في حالة صعبة، أشار للرجل بأن يصمت عن الثرثرة وأخذ يجوب المكان بعينيه.. ربت على ظهر الرجل وقال له: حسنًا، اذهب إلى تلك الشجرة هناك واستكشف المكان.. سأومن ظهرك.. كن حذرًا يا عبد المجيد.

أومأ الرجل برأسه وتحرك بخفة متسللًا إلى حيث أشار له عبد الله، وقبل أن يصل إلى البقعة رددت الجبال صوت طلقة استقرت بمنتصف رأس عبد المجيد، ظلَّ الصربي جامدًا وهو يُحملق في جسد صاحبه الذي هوى إلى الأرض.. خرج من مكمنه وأخذ يُطلِق رصاصاته بجنون، وحين نفدَث ركض متوغلًا داخل الضباب، من خلفه كان ألِمان يناديه بالتوقف



ولكن الرجل لم يَفعل.. صوت طلقتين أعقبهما الصمت.. الجميع متحفزون والبنادق مصوبة إلى حيث ذهب عبد الله ولم يَعد، ترقب وسكون قطعه صوت خطوات على الحصى.. وظهر عبد الله جريحًا ويداه مخضبتان بالدماء صاح فيهم:

- لنرحل الآن..

صياحه جعلهم يركضون إلى ما تبقى من جياد ويلملمون ما يستطيعون جمعه من أغراض، ذهب إليه ألِمان ورينيه الذي أسنده ودخل تحت كتفه، الدماء تُغرق ملابسه وبالكاد يستطيع الوقوف، سأله ألِمان:

- لماذا فعلت هذا؟؟

- لم يكن سوى قناص واحد البقية اختفوا.

- اختفوا؟؟

سَعل عبد الله وخارت قواه، أمسك به ألِمان مع رينيه والأخير يقول:

- إنه مصاب بشدة في بطنه.. علينا أن نجعله يستلقي ونوقف النزيف.

ابتسم عبد الله على غير عادته وقال بصوت مبحوح:

- لا عليكم.. ولا تقلقوا، لن يصيبني أكثر مما حدث.



بدأ الرجال في الرحيل عن المكان تباعًا بحذرٍ، تلفَّت رينيه حوله فقال له ألِمان:

- رينيه، اذهب وأحضِر جوادينا بسرعة..

أفلت رينيه ذراع عبد الله وركض على الفور، والصربي الجريح يقول لألمان:

- ليس هناك فائدة من هذا.. ارحل يا ألِمان.. ارحل يا رجُل خذ رجالك وامضِ إلى حيث تستطيع تنظيم أمورك ومواصلة القتال.
- لن أتركك يا عبد الله.
- قُضِيَ الأمر يا صاحبي.. ما زال يمكنك مواصلة الطريق ولا يجب أن تموت هنا، قاتل وامضِ في الحياة حتى تصل إلى غايتك.. قاتلنا من أجل الله لأجل الحياة والحرية.. أكمل الطريق ولا تتوقف.

قبل أن يُنهي كلماته دوَّى صوتٌ يصم الآذان، سمع صهيل خيل وصياحًا تلته قذائف مدفعية تتساقط فوق رؤوسهم، حالة من الهَرج عمت المكان ومرت الطائرات فوقهم.. الموت المُحلق كنسرٍ عملاق يجوب سماء الصبيحة الأرجوانية، لم ينسحب الإسبان فقط تراجعوا ومنحوا سلاح الجو قربانًا من المقاومين المحاصرين بين الجبلين، مدَّ عبد الله يدَه إلى ألِمان بقناع الغاز



الذي سَلبه من القناص.. دفعه إلى صدره وجحظت عيناه.. أرقد صاحبه أرضًا وهو يصدر حشرجة مزقت قلب ألِمان، الموت ظفر بروح عبد الله، أغمض عينيه براحة يده بلطفٍ، ورينيه يقف قريبًا منهم ممسكًا بلجام جواد واحد فقط، التفت إليه ألِمان وما لبث أن نهض متجهًا إليه، وضع قناع الغاز في يده وقال: هيّا ارحل.

ترك القناع بيد رينيه وتجاوزه ليلتقط بندقية أخرى غير المعلقة على ظهره، تأكد من عدد الرصاصات بها واستدار ليجد رينيه ما زال واقفًا يتطلع إليه، حدّثه والقذائف تتساقط على مسافة منهم والحصان المتوتر يصهل:

- اذهب يا رينيه الآن.

لم يتحرك رينيه فأمسك ألِمان بتلابيبه وأخذ يصيح بوجهه:

- ارحل الآن.. اذهب إلى طنجة وحقق حلمك وغايتك.. اظفر بما تريد وقاتل من أجله.

أفلته حين مرت الطائرة من فوق رأسيهما.. وأخذ يطلق عليها الرصاص، حتى فرغت البندقية فألقاها وتناول الأخرى وكرر الأمر وهو يصيح:



- اذهب يا رينيه. لا تجعل شيئًا يعيق تقدُّمك لما تريد يا صاح.. اذهب إليها وأخبِرها أنك تحبها وأن نزوتك عابرة.. أخبرها أنك لن تعيد الكرة ما حييت وأخلِص لها، إنها تُحبك.. إن أوقفك الإسبان أو الفرنسيون أخبرهم أنك كنت أسيرًا ووجدت سبيلك للنجاة.

امتطى رينيه الجواد العصبي دون أن ينطق كلمة، واكتفى بإيماءة لصاحبه وانطلق يشق طريقه إلى خارج الوادي ومن خلفه دوى الانفجارات والرصاص.. منحه ألِمان فرصة للحياة والقتال لأجل حُلمه، كان مضطرب الذهن حين خرجَ من الوادي إلى الصحراء الشاسعة والجبال البعيدة، بطريقة ما لم يلحظه الإسبان أو أنهم تغاضوا عن الفارين وكان كل ما يهمهم هو الفتك بمن بقي داخل الوادي الذي هبطت عليه غيوم الموت.

٩



حكايتي

طنجة - ١٩٣٩

قفز قط أصهب فوق أسطح المنازل المتلاصقة، سار برشاقة فوق الأسوار وتنقل بخفة بين الجدران، عند حافة أحد الأسطح وقف يتشمم الهواء الرطب، أكمل المسير واتجه إلى درج يؤدي إلى داخل أحد البيوت، نزل السلم بحذر يرهف السمع، يتتبع رائحةً ما تنبعث من إحدى غرف الطبخ بالمنزل القديم، دلف إلى المطبخ وأخذ يموء ويتمسح بساق صاحب البيت المنهمك بوضع سمكتين في الزيت، أفزعه فِعل القط.. رمقه بنظرة متفحصة وجلة «من أين جئت؟!» ماء القط ملوحًا بذيله في الهواء، هذا ما كان ينقصه؛ قط فضولي بعد ليلة لم يستطع فيها النوم، في البداية شَعر أن هناك مَنْ يُراقبه ويسير خلفه في الأزقة، وفي المساء أحس أن بالمنزل شخصًا يجوب الغرف.. انكمش في فراشه حتى غشاه النوم وحين استيقظ كان جائعًا، وقف يدندن بأغنية فرنسية والقط ما زال يحك جسده به، أمسك مغرفة وأنقذ السمكتين من الزيت المغلي ونقلهما إلى طبقٍ أبيض مزركش برسومٍ زرقاء، أخذ



يقطع حبة طماطم وثمرتي جزر، حمل الأطباق وسار إلى الطاولة وما إن وضعهما عليها حتى سَمع طرقات ببابه.. ذهب إلى الباب وهو يتلفت باحثًا عن القط، فتحه ليَجد الصغير يونس يقف مبتسمًا، استغرب من مجيئه فحدثه:

- يونس، كيف حالك هل هناك خطب ما؟
- لا شيء سيئ رينيه.. جئت أطمئن عليك، فقد حلمت بك الأمس.
- حلمت بي؟!
- نعم.
- تعال، ادخل..

دلف يونس متفحصًا زوايا المنزل يتبعه رينيه بعدما أغلق الباب، ألقى نظرة على القط الذي سبقه إلى الغداء، تابعه بحسرة وهو يقضم السمكة بينما حدَّث الصبي:

- ذلك القط اللعين.. تناول غذائي وعلى حُلمك أن يُشبع فضولي.
- لقد رأيتك تجلس مع امرأة جميلة قرب شاطئ مرقالة..
- مَن هذه؟؟ وكيف هي!



- بيضاء ذات شعر أسود، كانت تحضنك وتبكي. لا أعرفها ولكني حين اقتربت منكما لم يكن هناك سواها وأنت تبخرت.

شَرد رينيه وظلّ جامدًا للحظات حتى لوح يونس بيديه أمام وجهه:

- سي رينيه أنت بخير؟
- نعم يا يونس.. بخير.
- هل ستحكي لي قصتك كما وعدتني؟!
- نعم بالتأكيد، سأقص على مسامعك حكايتي.
- متى؟
- قريبًا..
- حسنًا سأرحل الآن.. سأذهب إلى سوق الداخل لشراء بعض الأغراض التي تريدها أمي.. سأمر عليك بعد الظهيرة.. هل تريد شيء من السوق؟
- سأنتظرك.. شكرًا لك يا يونس.

أغلق الباب خلف الصبي وعاد إلى غرفة المعيشة، اختفى القط ولا أثر له ولكن ليس هذا الغريب في الأمر.. كانت السمكتان كما هما في الطبق لم يمسسهم شيء.. وسط دوامة دهشته تجول في البيت باحثًا عن القط، وحين يَئِسَ في وجوده قبع بعيدًا عن الطاولة



لوقت طويل، لم يأكل فقط يُحملق في الأطباق مستغربًا ما يحدث معه وعقله يعيد عليه العديد من الذكريات ولكن حدث واحد استقر برأسه.. يوم نجاه ألِمان.

حين أنقذه أخبره أن يسير وراء حلمه ويقاتل، ويتمسك بكل شعرة أمل تقرِّبه من حُلم حياته، أن يدع الحرب والتصوير والقصص وكل هذا الهراء، أن يترك الموت والخراب ويبحث عن الحياة، فرَّ يوم الزحف ممتطيًا جوادًا كان يومًا مِلكًا لصاحبه.. سار على غير هدى بين الجبال والوديان.. فقط تَبِع الشمس الذاهبة غربًا إلى طنجة، توارى عن أنظار الطائرات المحلقة في سماء الريف.. وتجنب المرور بالقرى والمداشر الأمازيغية، كل شيء ساكن إلا قلبه وعقله.. هل نجا ألِمان؟ هل سينجو هو الآخر ويعود إلى آن؟؟ هل تنتظر عودته؟ نام على ظهر حصانه المتعب، يترجل بين الحين والآخر ليقضي حاجته.. أو ليقطف ثمار الهندي – التين الشوكي-، لم يكن حذرًا من الأشواك بقدر جوعه، منحته الثمار قليلًا من ماء يفتقده، رحلة شاقة بين الجبال وأفكاره وتخميناته لمستقبلٍ قد لا يأتي.. ولكنه سيعود إليها مهما كانت العقبات، سيحاول ولا ضير من المحاولة ما دمنا أحياء.



حدث حصانه ذات ليلة باردة، أنا غريب ضائع في غياهب الذكريات ووحيد في ثنايا كون شاسع لا أمل من الخروج منه، تَغلي بداخلي حمم مشتعلة كبركان بباطن الأرض ولا سبيل له من الانفجار، يا لها من حياة قاسية تجبرنا على المضي حاملين على عاتقنا بؤسًا وألمًا وجرحًا سيرافقنا حتمًا إلى التراب.. دومًا سألت نفسي هل تَشعر القطط والكلاب والخيل والعصافير مثلنا؟؟ لهم أحلام وخليلات وخطيبات ينتظرن عودتهم! هل هناك بُغض بينكم وكره وحروب.

استيقظ بعد سنة من نوم على طرقات بباه بالكاد سمعها، نهض متثاقلا والذباب استقر فوق صحن السمك.. كان يونس من بالباب، دلف الصغير حاملًا طبق فخاري بين يديه:

- أمي أرسلت معي طبقَ طجين اللحم بالخضروات.. كنت حكيت لها عنك وأنك أبعدت عني هؤلاء الصبية في الزقاق.

وضع الطبق على الطاولة واستدار بينما رينيه يحدثه:

- يجب عليك شُكر والدتك بالنيابة عني.

لم تفارق الجدية وجه يُونس الذي يتقمص دور شخص كبير، طريقته في الحديث تُضحكه ولكنه قرر



منذ عرفه أن يعامله كرجلٍ كبيرٍ.. صديق لم يرَ من الدنيا سوى أزقة المدينة العتيقة، ماذا سيفعل حين يَكبر في بلد مُقسم بين الإسبان والفرنسيين؟! ربما طنجة لها خصوصية دون غيرها من المدن، ولكن جيش فرانكو يزداد توحشًا واقترب إعلان نصره في الحرب الأهلية الإسبانية، آه يا يونس الصغير ستكبر وقد فاتك الكثير.. هل ستعرف يومًا بما صار في أنوال؟! وكيف انتصر جيش الثوار على الإسبان.. ترى هل سيتذكرني أنا أحد؟ خطابات ألِمان وآن وكل تلك المفكرات التي تحوي قصص أناس عاشوا في ظل حرب وحصار.. هل سيفتقدني أحد؟؟ الكُتاب يعيشون تخلدهم كلماتهم.. منذ بدء الخليقة كان البشر يدوِّنون كل شيء.. ومَن يأتي بعدهم يقرأ ويتعلم ويضيف قبسًا فوق إرثهم.. وتمر الأيام وتتراكم الكلمات لتصير جبلَ معرفة.. كلما بقي على تلك الأرض بشر سيكبر الجبل أكثر.. جَلس فوق السطح يتسامر مع الفتى لساعات.. حتى بدأت الشمس تنسحب شاحبة نحو مستقرها، ودعه يُونس على أمل اللقاء في الغد.. حيث سيكمل يونس قصته عن قارب جده الذي سرقته حورية البحر الزقاق.

ألقى بجسمه على الفراش وترك عقله يُحلق فوق سماء المغيب الأورجوانية، إلى حيث كان قُرب تطوان،



بالكاد يرى بياض بيوتها وأسوارها فوق الجبل البعيد.. أيام من السير وسط الجبال متفاديًا تجمعات الجند الإسباني، كان قد قرر ما سيقوله إن أمسكوا به.. « أنا صحفي فرنسي كنت أسير لدى الريفيين» نطق بها وهو يتوقف أمام الحاجز العسكري.. ضابط وأربعة عساكر وعدة متاريس، وجوه صارمة وعيون متحفزة، أخرج لهم أوراقه الشخصية مضيفًا:

- أدعى رينيه أوليفيه..

لم يكن يتخيل أنه سيصمد حتى يَعبر بوابة المدينة، يذكر تلك الشوارع جيدًا.. زارها حين زار القائد سيلفيستري.. وهناك رآها لأول مرة، ابتسم للذكرى وعقله يعيد عليه تفاصيل ذلك اليوم، ليس له أحد في تلك المدينة ولكنه سيستطيع تدبر أمره.. كان عليه أن يستريح ويفكر جيدًا قبل مواصلة رحلته إلى طنجة.

لم يَستطع رينيه النوم، جذبته الذكريات إلى صندوقه القديم، نهض متوجهًا للخزانة أخرج الصندوق وعاد به إلى الفراش، فتحه وجلس يُقلب في الصور على ضوء مصباح زيتي رفع فتيله ليضيء أكثر، خطابات ألِمان الكثيرة، الأوراق عبث بها الزمن فاصفرت.. نجا ألِمان يوم حصارهم في الوادي وهرب عائدًا إلى أسرته، كان قد أرسل له رسالة طمأنه فيها



على حاله فورَ استقراره عند أصهاره في إحدى القرى القريبة من مناطق جبالة، وبعدها عَلم الجميع باستسلام الخطابي.. كان لانتشار الخبر حزن دام لأيام، طنجة كانت تعيش مأتمًا حقيقيًا كما حال كل المغرب.. الأمير استسلم والريف استباحه الاسبان والفرنسيين، الغازات السامة أتت بمفعولها.. والرجل يُحاكم ويلتقط له الصور وهو بين الجند.. أسيرًا بعد أن كان أميرًا، وقضي الأمر.. أسابيع مرت وصل الفرنسيون إلى القرية التي يختبىء بها ألِمان.. أطبقوا الحصار عليه، قاتلهم هكذا قال الشهود ممن حضروا الواقعة، ولكنه استسلم هو الآخر بشرط أن يتم إلحاقه بصاحبه محمد بن عبد الكريم الخطابي بجزيرة لارينيون ولكنَّ الفرنسيين لم يَفُوا بعهدهم كالعادة، حُكِمَ عليه بالإعدام.. وتصدَّر المشهد بالصحف والمجلات العالمية، ولكن بعد ضغطٍ كبيرٍ من الرأي العام تم تخفيض المدة لعقوبة بالسجن.. وقضى معظمها بفاس ومكناس قبل أن يتدخل النظام النازي في ألمانيا ليطلق سراحه.. عاد إلى ألمانيا وظلت رسائله تصل إليه على عنوانه بطنجة.. وكان كلما طلب منه أن يكتب له ويحكي عن حياته كيف صارت مع آن، ولكن رسائل رينيه لم تحمل أبدًا اسمها.. فقط ادعى أن كل شيء بخير.. وهو ليس كذلك.



******

في الصباح نهض متثاقلًا، يَشعر وكأن عظامه تحترق.. تحسس جبهته بظهر يده، حرارة جسده مرتفعه.. أحسّ بدوّارٍ خفيف وهو يَمضي إلى المطبخ، أشعل النيران وبحث بين الأرفف على عُلبة كان اشتراها من العطار، عشب يعالج البَرد ويخفض الحرارة، حين جاءه يونس كان يَصب لنفسه كوبًا آخر من الشراب الدافئ، وبعد حديث طويل مع الصبي منحه الصندوق، فاض نبع الفضول بعيني الطفل، كان ثقيلًا بعض الشيء عليه، ولكنه استطاع حمله، ساعده في الخروج به عن طريق السطح، ومنه إلى المنزل المهجور في الجهة الخلفية لبيته، أصر على أن يأخذ الفتى الصندوق ويحتفظ به.. أن يخفيه، هذا سِرٌ بينهما حتى يتعلم يونس الفرنسية أو يموت رينيه، فقط حينها يستطيع فتحه. تعامله مع الصغير على أنه رجل راشد.. جعل الصبي يُقسم بجدية إنه سيفعل وهذا عهد رجال.. مضى يونس بالصندوق، ونزل رينيه الدرج عائدًا إلى غرفته.. بدل ملابسه وتأنق ثم خرج.

على حافة هضبة مرشان جَلس فوق صخرة استغلها كمقعدٍ له منذ سنوات، تحسس جيب معطفه، اشترى جريدة فرنسية وهو في طريقه إلى المكان، أخرجها واكتفى بمطالعة عناوين الصفحة الرئيسية،



وطواها بعد ذلك وأعادها للجيب، وراح ينظر للأفق متأملًا شاردًا في رحابة البحر والسماء، ساعات قضاها في ذلك المكان.. كان على يقين بأن لكل مدينة روحًا تتجلى مع المغيب، تتخضب السماء وسُحبها بشفق من حنة حمراء بديعة الرسم، يسكن الوجود حدادًا على موت الشمس، والخلائق كل في واديه يهيم. صوت أذان بوزن أندلسي اعتاد سماعه يُعمر الأرجاء، ويرد عليه مؤذن آخر من بعيد بصوت رخيم، شعور غريب يراوده في هذا اليوم، ما زال في السماء ضوء من نهار ماضٍ، سار عبر أزقة خاوية هادئة، والظلال وجدت مستقرًا لها بزوايا الدروب.. وهو وحيدٌ، كل شيء مرّ برأسه بتتابع غريب، منذ اللحظة التي ركب فيها السفينة إلى حياته الجديدة، أخذ صورة لكل مرفأ وميناء ومدينة ومعركة.. جولته مع حدو الأكحل ومغامرتهما في الطريق إلى أجدير من الجزائر والعكس، شراء الطائرة وكيف كان انتحل صفة سمسار أمام البائع، ساعد صاحبه حدو الأكحل في الحصول على الطائرة بسعر رخيص، ليت أيام الحكي أمام نيران المخيمات بقيت، أضواء المشاعل في بني عروس كان يراها من سفوح بني حسان، كان ذلك على طريق الشاون حين راح مع «آن» لبيت الريسوني، اللون الأخضر اللباس الرسمي لسفوح الجبال والسهول

والوديان، جنة الريف وقبائله وعاداتهم ولطفهم وقسوتهم في الحرب، فرسان يبجلون الخيل وشجعان لا يهابون الموت وأنوال شاهدة على ذلك، معركة غيرت مجرى حياته، كان مصورًا حتى اضطر إلى حمل البندقية ليدافع عن حياته، لم يتخيل أن يَقتل أحدًا، كان الإسباني سيقتله إن لم يفعل هو، تلك هي الحرب.. ظن وقتها أنه حارب الموت من أجل أن يكون معها، رغم ذلك أشفق على الجرحى الإسبان وقتلاهم، أناس لهم حكايات وأهل أيضًا، هناك من ينتظرهم في الوطن، سيعودون في صناديق ملفوفة بالعلم الإسباني، وسيدفن الريفيون قتلاهم في رمل بلادهم الشاهد على بسالتهم ومقاومتهم، هذا كل ما في الأمر، الجميع يموتون أيضًا ويتألم ذووهم، ولكن الحياة تمضي..

كان عليه أن يغامر بحياته لأجل قصة يكتبها أو صورة يلتقطها، وجوده في مليلية تزامَن مع وجود الموت أيضًا، مرض الالتهاب السحائي انتشر تحت وطأة حصار رجال الريف، ولكنه استطاع الخروج والتنقل بين المداشر والقرى الصغيرة بصحبة رجال الخطابي، ساعده ذلك الأخير في أن يذهب لطنجة ويعود مرارًا في أمانٍ دون أن يمسه سوء، تذكّر لقاءه مع جوزيف كليمس -ألمان- بعد سنوات من لقائهما الأخير في الجزائر.. أيام الحب والفرح في هذه الدنيا



قليلة، لم يكد كل منهما يشرع في البدء من جديد حتى جاء الاجتياح الكبير؛ إنزال وغزو شامل لساحل الريف، خمسمائة ألف جندي، جاءوا للفتك بالخطابي ورجاله، قاطع طريق متمرد.. خائن، غادِر يقتل الجند الإسبان والفرنسيين بوحشية.. هكذا وصفوه وهذا كان مبررهم ليجتاحوا الريف.. بوارج تقصفهم من البحر وطائرات تمطر قنابل مُحملة بغاز الخردل السام.. كل تلك الأحداث حدثت بينما كانت هي محور حياته.. كل شيء في الكون يدور في فلكها.

توغل أكثر في ثنايا طنجة العتيقة، يهبط الزنقات عابرًا الممرات المسقوفة، لاحت في الأفق القريب مأذنة المسجد العتيق، مرّ إلى جوارها متجهًا إلى باب المرسى، نشيج صدره يزداد والسعال لا يتوقف، عضلات ساقيه متيبسة على غير العادة، يَشعر وكأنه مشى دهرًا من الزمان، قطع مسافة طويلة ونسي الوقت حتى رحل الغسق وعم الظلام، وفي ساحة باب المرسى وقف يتطلع إلى برج البارود، وأسوار طنجة الممتدة خلفه تحيط به، يؤنسها وجوده وطقسه الأسبوعي الذي داوم عليه لسنوات، خصص له يوم الجمعة، كمثل اليوم الذي احتضنته هي فيه لأول مرة، وضعت رأسها على صدره واعتصرته بذراعيها الرقيقين، يذكر نظراتها الفرحة والطمأنينة التي



غمرتهما.. كان يومًا خالدًا في مساء رائق، وطيور النورس تركض حولهما والساحة خاوية إلا منهما، يفتحون أجنحتهم بينما يحملها ضاحكًا، وتشبثت به أمنا، ضحكا وهرولا وأفلتت من قبلته النهمة، كانا حبيبين بريئين لا ينغص حياتهما قلق ولا نَصِب، ذهب إلى بقعته المفضلة حيث مجلسه الذي يطل على الشاطئ، يذكر كم كان مخطئًا حين سمح لأخرى بالولوج إلى حياته، لم يصمد أمام إغوائها وزُلَّت قدماه فسقط، خطيئة عظيمة في حق من وثقت به وسلمته روحها، لم يقصد أن يجرحها وتراجع مرارًا، ولم تكن الخيانة يومًا من طبعه ولكنه مذنب على كل حال، اعترف بخطئه ولم يكابر، وفجأة صارت «آن» قاضيه وجلاده.

أنقذه ألمان وعاد إليها يطلب منها الغفران والسماح، اعترف بخطيئته أمامها وتوسم في قلبها الرحمة، ولكنها لم تعد تريد أي شيء ولا حتى رؤياه، تلك الحقيقة التي عاش عليها دهرًا حتى جاء هذا الصباح، وبينما يهبط من مرشان إلى ساحة الأحزان تبادر إلى ذهنه سؤال.. هل نحن صنف من الملائكة؟ لنطلب من الناس أن يكونوا كذلك؟!

لو كنا ملائكة، فكليمس ألمان ملاك، والخطابي ملاك، وفرانكو وجنود فيلق الموت كذلك.. هل كان



سيليفستري القاسي والريسوني ملائكة؟! لو كان كل هؤلاء ملائكة لا يخطئون.. من ذا الذي يفعل كل تلك الآثام؟ القتلى من هنا وهناك ومدن خربة وأطلال.

الحقيقة التي خلص إليها أن البشر ليسوا ملائكة قطعًا، لم نولد بأجنحة ولم نخلق من النور، بل نحن بشر من طين، لا أحد كامل وحتمًا ينقصنا شيء وربما أشياء، أما المثالية ليست سوى وهم وسراب أحلام، كلنا ننسى ونغفل ونقصر ونخطئ ونطمع ونكره ونحسد ونكذب ونفعل ما هو أكثر، ويعترينا ما يعتري المخلوقات من أشياء سلبية وشهوانية كثيرة، جميعنا بحاجة إلى النظر بالمرآة قبل الحكم على أي إنسان، أن نرى آثامنا دون تبرير، أن نصارح كينونتنا بما نخفيه من ذنوب، ونتجرد من ذاتنا لنصبح عراة أمام أنفسنا، إن الشجاعة الحقيقية في أن نواجه أخطاءنا ونعترف بها، ثم نُعدّل ونتوب، ألا نكرر ما فعلناه، فإن أيقنّا بهذا الواقع سنجد أنّ في الأمر سعة كبيرة في التعامل مع الناس، وسنستطيع حينها أن نتحلى بأخلاق العفو والمغفرة والتسامح والسمو وقبول الآخر.. ولكن العفو مقدرة فإن لم تعفُ هي، فماذا لو جاء يوم وعادت؟!.. غمغم محدثًا نفسه سائلًا متهكمًا:

- هل ستعفو عن كل ما سببته لك من ألم وأذى يا رينيه؟! كان أكبر بكثير من قدرتك على



التحمل.

صمت لبرهة وضاقت حدقتاه متأملًا البحر وهواء غربي بارد يلفح وجهه، وتمتم بخفوت يرثي حاله:

- انتظرتها لسنوات، وكنت أعلم أنها لن تعود.

سكن الكون وخفت هبوب الريح، كان هائمًا بأرض ذكرياته يبتسم تارة ويحزن تارة، ومن مكان قريب كان يُونس الصغير يراقبه، جلس على مقربة منه يتطلع إليه، وريثما يُخرج الجريدة المطوية ويقوم بفردها، وعلى ضي المغيب أخذ يُقلب الصفحات برتابة يطالع العناوين ويقرأ بعض الفقرات سريعًا، لا شيء يثير شغفه، مجرد حبر على ورق، لم يعد هناك قصص لتحكى، حتى هو نفدت كل حكاياته.. وبينما الناس ينتظرون ليلة بعد غد ليسمعوا بقية قصة «الحاج ألِمان»، كانت صورة جوزيف أمامه في منتصف الجريدة.. نعم هو ألِمان.. فرك عينه وأعاد النظر محملقًا في خبرٍ كُتب بخط ثقيل:

مات جوزيف كليمس الشهير بـ «الحاج ألِمان»
أحد قادة حرب الريف يغلف موته الغموض.

مات وحيدًا، بطلق ناري في الرأس.. ربما انتحر أو قتله أحد النازيين.. كان بطلًا مقدامًا.. ومناهضً للإمبريالية.. مؤمن بالحرية وثائر مقاوم.. إلخ.

جمل قصيرة تختصر حياة الرجل، شَعر بالضيق يغزو صدره، هذه المرة مع ألم شديد، أشاح ببصره عن الجريدة وعاد مرة أخرى لعلّ الخبر يتبدل، ولكن صورة ألمان ونظرته الصارمة ترمقه.. يشعر بالخزي نحوه، هو الذي ساعد في هروبه يوم الحصار، أخبره أن يقاتل لأجل حُلمه لعله يتحقق.. ولكنه فشل وضاعت محاولة صاحبه سدى.. مات رفيقه الوحيد الذي يؤنس حياته برسائله وخطاباته، انسلت الدموع من عينيه.. مات من زرع فيه بذرة أمل لم تنبت حتى اليوم.. رفع رأسه للسماء وراح يتطلع إلى شروق نجوم المساء الخافتة.. ربما وُلِد في السماء اليوم نجمٌ هو روح جوزيف كليمس ألمان، يوم حزين آخر عليه أن يعيشه، كان قد حسب أنهم مخلّدون في الشقاء ولكن صاحبه رحلَ.. بالتأكيد لم ينتحر فليس هذا ألمان الذي يعرفه.. الناس ينتظرون بقية حكايته وها هو يموت اليوم بعيدًا ولا يستطيع حضور جنازته، لن يُرسِل له خطاباتٍ بعد الآن، لن يقرأ كلماته.. مرة أخرى، عليه أن يطلب من يونس أن يُعيد الصندوق، ما كان عليه أن يعطيه له، هل جُنَّ ليودع ذكرياته لدى صبي.. ألا ينفد من الأرض الحزن؟!

قصة أخرى وشخص آخر تنتهي حكايته بمأساوية، وكُتِبَ عليه أن يكون شاهدًا، ولم يتبقَّ من القصص ما يروى، الحاج ألمان مات، حصل على حريته أخيرًا،



تحرر من جسده الفاني كما كان يريد يومًا.. ترى ما حال زوجته ميمونة وابنه محمد، أين هما؟؟ وكيف سيتربى ابن ألِمان! في آخر خطاباته قال إنه يَشتاق لرؤية عائلته.. ما زالوا هناك في الريف.. هكذا كان يوقن رغم إقامته الجبرية لدى النازيين.. بما قتلوه كما تقول الجريدة! الصحفيون ليسوا صادقين بالضرورة.. أبواق فرنسا تمجد إنسانيتها بينما الواقع غير ذلك، يكتبون التاريخ وِفق ما يريدون.. لا أحد يستطيع لومهم، أسد الريف الخطابي حبيس في منفاه، وحدو الأكحل قُصقص ريشه وصار كعصفور مكسر الأجنحة محجوز بقفص على شاطئ الصويرة، إيطو سبقتهم جميعًا إلى الموت وتقدمت بجوادها وقاتلت حتى النهاية، وإسماعيل التركي قُتِلَ بالأسر.. وعبد الله ضحى بحياته من أجل اصحابه.. لم يتبق سواه وحيدًا حيًا ينتظر عودة من فارقته بلا رجاء.

جرفته تيارات الذكرى إلى طنجة يوم عاد إليها، أسبوعين قضاهما في تطوان قبل أن يأتي إلى شوارع مدينة البوغاز التي قضى بها أجمل أيام حياته معها.. كان هزيلًا كسيرًا كطائر فقدَ ريش جناحيه في عاصفة، واهن الجسد نحيل، عيناه غائرتان ولحيته نامية دون تشذيب، وكل ما يُفكر فيه هو لقاؤها.. مر على كنيسة القديس أندرو بطريقه للمدينة العتيقة، قرر أن يذهب



لمنزلها قبل أي شيء، ستفرح حتمًا بعودته.. هكذا تمنى وسقى بذور الأمل بقلبه من نفح حبه لها، كانت وجوه أهل المدينة ممتقعة في ذلك اليوم الغائم، ما حدث في الريف له أثر بالغ بالنفوس، سار بخطوات متوترة نحو منزلها، تتسارع خفقات قلبه ويسبقه الشوق ليتخيل عينيها حين تراه واقفا أمامها.. حاملًا ورودًا اختارها بعناية، حتمًا ستسامحه وتقبل اعتذاره، هكذا كان يُحدِّث نفسه طوال الطريق، مطر خريفي خفيف يغسل الطرقات وأجواء رطبة باردة.. طرق الباب وارتجف جسده، وترقرقت عيناه بدمع اشتياق، نقل بصره بين الورود المبللة بقطرات المطر والباب الذي فُتح.

****

كان يَجلس شاردًا ويونس ما زال يُراقبه من بعيدٍ، الوقت يمضي وهو قابعٌ بزجاجة من حنين تبحر في بحر الذكريات.. وكأنه جِنّي حُكم عليه بالحبس داخل تلك القنينة المغلقة بإحكام، تتلقفه أمواج الماضي وشوق إلى لقياها، اشتم شذى عطرها، لم ينسَه رغم مرور السنين، التف برأسه ليجدها تأتي على مهلٍ، نعم هي «آن» كانت جميلة كما عهدها دومًا. تسير بخطوات بطيئة بدلال، على وجهها مسحة حزن رغم الابتسامة البادية على محياها.. ظل يتطلع إليها ولم ينهض من



مكانه، اغرورقت عيناه بدمع تجمد في مقلتيه، لم يُصدق ما يراه، وعلى مسافة بعيدة منهما كان شيخ بملابس بيضاء يقف موليًا وجهه للبحر.. اقتربت منه وقالت بصوتها العذب ونبرتها التي خلدت بوجدانه:

- كنت أعلم أني سأجدك هنا..
- آن!! أهذه أنت؟

أجابت باستحياء وأسى:

- نعم.. أنا آسفة حقًّا على كل تلك..

تطلع إليها وسيل الذكريات يتدفق بوجدانه، استقبلته بجمود جبل مغطى بالثلوج يوم عاد إليها، عيناها كانتا قاسيتين، كانت لا تزال موجوعة منه، وكان راجيًا عفوها، أن تعود المياة إلى جداولها مرة أخرى لتسقي حياتهما وتنبت زهور عشقهما بعد أشهر من الفراق والهجر، ولكنها كانت قاسية.. نهرته ونعتته بالخائن، أخبرته أنها لا تثق به وكل كلماته لم تُجدِ نفعًا معها، كل ما فعله من أجلها نسيته.. طلبه بالغفران وفرصة ثانية ليعوضها عما فعل في حقها قوبل بالرفض.. كانت عنيدة ذات وجهٍ باهت لا يعرفه، لم تكن تلك آن التي أحبَّها وأفنى سنوات من عمره ليسعدها، هذا ما يتذكره جيدًا أنها تمعنت في إذلاله وكسره.. ورغم ذلك بقي على حبها وانتظرها لسنوات



حتى جاءت الآن، وجد نفسه يحدثها مشيحًا بوجهه عنها ناحية البحر:

- لا تتأسفي.. فالموج لم يتوقف لرحيلك، ولم تسقط الطيور المحلقة.. حتى القمر لم يهوَ بقلب المحيط يومًا.

- رينيه، ما كان يجب عليّ تركك، أعتذر لك...

التفت إليها مقاطعًا إياها بحدة:

- حين تعلق الأمر بغلقك لكل الأبواب الممكنة تركت بابي مفتوحًا على مصراعيه لعلك تعودين يومًا.. انتظرت وتجولت بالدروب والطرقات لعلّي أرى وجهك صدفة وتكون خير من ألف ميعاد.. رحلتِ أنتِ وبقيت أنا يا آن.. وكما قلتِ ذات يوم أنّ أيامنا ليست كحسابات بقية البشر.. لقد عشت دهرًا من الزمان وانتظرتك ولم تأتِ.. أعلم أني أوجعتك وخذلتك.. واحتسبتيها طعنة في الظهر فما كان منك إلا أن تتفنني في طعني مرارًا وتكرارًا.. كان انتقامك شديد القسوة أن تلقي بجسدي على قارعة الدنيا.. كغربال قديم مهترئ ممزق من كثرة الطعنات. ورحلتِ وكأن سنوات عمري التي قضيتها بجوارك لم



تكن.. وانتظرتك ولم أودع أيّ أملٍ يؤدي إليك.. انطويت على نفسي لسنوات مع صورك.. ولم تغفري.. كنت ألوم نفسي وأحمل عنك أوزارك وألتمس لك الأعذار.. لعلك تعودين يومًا ولم تأتِ.

اغرورقت عيناها وانهار سد الدمع بعد سنين من الشروخ:

- رينيه..

رفع يده وأشار بإصبعه ليوقف شفتيها عن الحديث:

- بقيت وحيدًا مع ذكراك والمعاناة حتى ثقل كاهلي ووهنت قدماي.. كل من ساعدني في تلك الحياة رحلوا.. حتى ألمان الذي كان يدفع بي لمواصلة الحياة مات. وصار قلبي محطمًا كمدينة مرت عليها الحرب.. انتظرت عودتكِ وأضعت عمري في الانتظار.. كنت أفكر كل ليلة فيك أحاديثنا وسمرنا.. لهونا وانطواؤك بداخلي.. كنتِ طفلتي التي تركض إلى حيث أمنها وسعادتها.. لم أتوقع بعد كل هذا أن أصبح نكرة.. لا قيمة لي في حياتك.. اختفيتِ وكان بمقدوري إيجادك ولكني لم أفعل.. أردت



أن تكوني بخير وتأخذي وقتك.. انتظرت طويلًا إشارة منك لمقابلتك والحديث معك ولكنكِ أصررتِ على نسياني.. كان للأمر أن ينتهي بنهاية أخرى، كان كل شيء عالقًا بيننا سيذوب من وهج عناق ننسى به ما فعلناه ببعضنا البعض.. أمضيت حياتي في قص الحكايات على الساهرين بالمقاهي، والمنصتون دومًا كانوا يريدون سماع قصتي.. حكايتي أنا وليست حكايتنا.. حكاية الفارس الذي ضحى بكل شيء ليكون مع حبيبته الأميرة الحسناء وانتهى به المطاف مهزومًا.. وحيدًا يجوب الطرقات هائمًا، لم أظن يومًا أن يتحول الحب منكِ إلى عداء.. ورأيتك وقد غمرتكِ فرحة نصر على أطلالي.. وتركتِني أنزف الحزن والأسى صريعًا على تل ذكرياتك.. هجرتِ واختفيتِ عن الأنظار وكتبت لك مئات الرسائل والخطابات.. ربما لن تقرأيها يومًا.. في الحقيقة لست ندمان على ما فعلته لأجلك ولو عاد الزمن لسعيت لك مرة تلو الأخرى، ولكني فعلت كل ما بوسعي وما كان يجب أن يحدث كل هذا، ما وجب أن تكون تلك النهاية أبدًا.



- رينيه، أنا هنا معك.

لم يجبها.. فقط تابع بعينيه ذلك العجوز المار بجانبهما مبتسمًا متوهجًا، نعم هو ذلك الشخص الذي حدثه ألِمان كثيرًا عنه، هزَّ رأسه محييًا الشيخ وعاد ببصره إليها حيث تقف شاحبة الوجه.. وحدثها بنبرة هادئة:

- فلتبقِ أنتِ هنا.. أما أنا راحل.

ارتخى جفنه والهواء يتلاعب بصفحات الجريدة المستقرة على فخذه، في الزاوية البعيدة للساحة تثائب يُونس، تأخر الوقت وعليه العودة إلى منزله، وصاحبه رينيه الغريب ما زال جالسًا منذ ساعات وحيدًا لا يأبه ببرودة الجو ولا حلول الليل، لن يؤرق جلسته تلك وفي الصباح سيذهب إلى منزله ليأخذ طبق والدته، وليسأله عن سر اختياره له لحفظ الصندوق المُغلق.



شكر خاص لأخي العزيز يونس الشكراتي وللأستاذين الفاضلين.. رشيد المير ومصطفى أمزير على ما قدماه لي من معلومات ومراجع عن تلك الفترة الزمنية المنسية.